

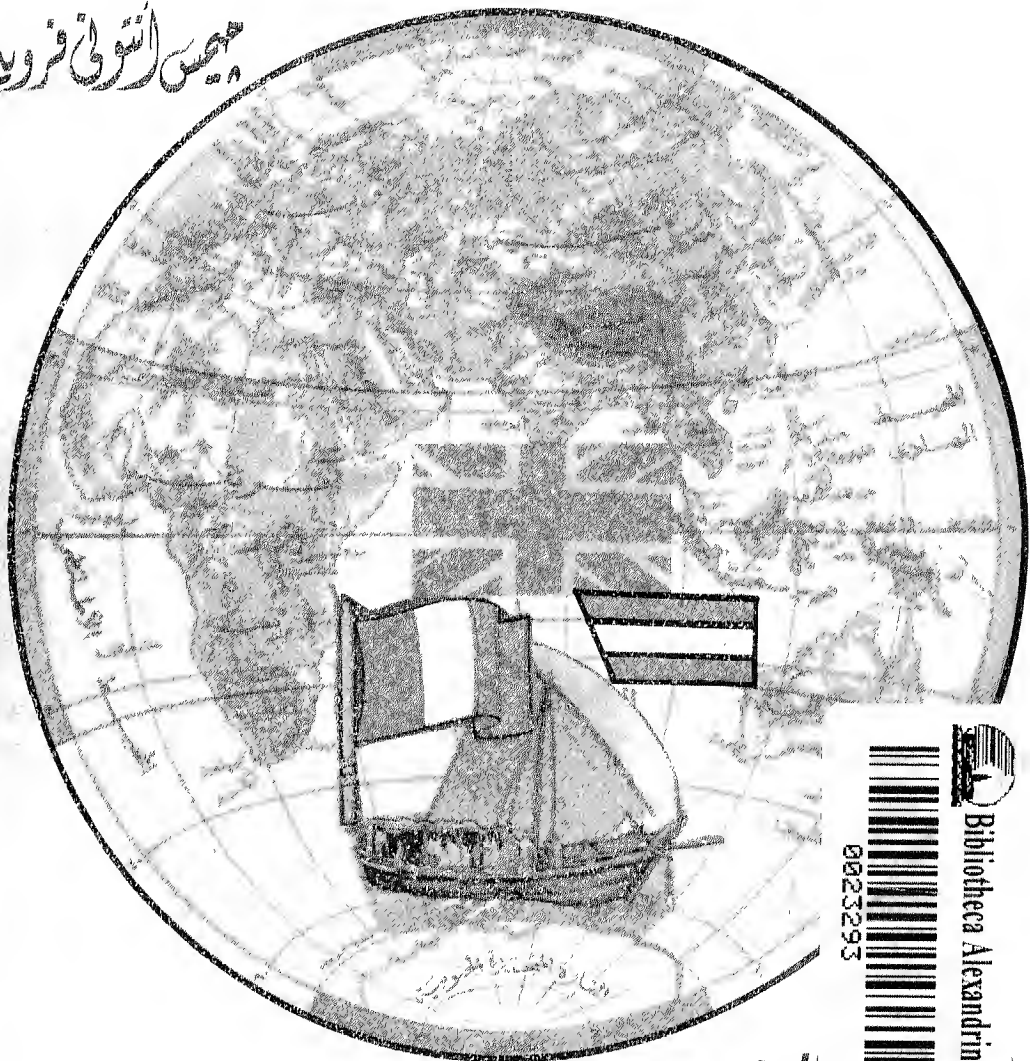
التنافس البريطاني الإسباني القرصى

في القرن السادس عشر

حول العالم الجديد وجزر الهند الغربية

تأليف

جيمس الثوري فريزر



Bibliotheca Alexandrina



0023293

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بالدارك

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية العلوم العربية والإسلامية

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش. الدكتور مصطفى مشرفة
٤١٣٩٤٧٢ - ألكندرية

التنافس البريطاني الأسباني الفرنسي في القرن السادس عشر حول العالم الجديد وجزر الهند الغربية

تأليف

جيمس انتوني فرويد

ترجمة وتقديم

دكتور/ السيد يوسف نصر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك

جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية

كلية العلوم العربية والاجتماعية

١٤١١ هـ / ١٩٩١ م

مؤسسة شباب الجامعة
د. الدكتور مصطفى مشرفة
٤٨٣٩٤٧٢ - الإسكندرية

مقدمة المترجم

كان من دوافع ترجمتى الى هذا الكتاب - المعنون بـ:

(English "Seamen in the sixteen century")

والمؤلف بواسطة الأستاذ الدكتور جيمس أنتونى فرويد James Anthony Froude أستاذ كرسى التاريخ الحديث بجامعة أكسفورد - أنه يعالج تاريخ القرن السادس عشر الميلادى، ويوضح بصفة خاصة العلاقات البريطانية الاسبانية فى هذا القرن. فقد كانت هذه العلاقات سيئة الى أبعد حد ممكن، ويرجع ذلك الى سببين، أولهما التنافس حول جزر الهند الغربية، وثانيهما الصراع الناجم عن اعتناق بريطانيا للمذهب البروتستانتى. فضلا عن ذلك فان هذا الكتاب يعالج مواضيع أخرى كثيرة، تعتبر بحق فى غاية الأهمية، وبخاصة فأنه يعالج فترة متأخرة من تاريخ أكبر دولتين فى أوروبا فى هذا العصر.

ويتميز هذا الكتاب بالصعوبة، التى ترجع فى أساسها الى طول الجمل، فأحيانا يصل طول الجملة الى صفحة الاقليل، علاوة على وجود جمل أعتراضية كثيرة، تتخلل الجملة الاساسية التى يصعب معها فهم هذه الجملة بطريقة سهلة وسريعة. زيادة على ذلك فأن مؤلف هذا الكتاب يعتمد فى المقام الاول فى الكتابة على ضمير الغائب سواء أكان المفرد منه أم المثنى أم الجمع، ثم يكرر هذه الضمائر كثيرا دون تمييز، وهذا يؤدى بالتالى الى صعوبة تتبع الاحداث، ومحاولة ربطها حتى تتضح الفكرة بصورة جلية. وفوق كل ذلك فان هذا المؤلف يستخدم العبارات الانجليزية القديمة، التى لم تعد تستخدم فى وقتنا المعاصر، حتى أصبحت فى طى النسيان، فضلا عن استخدامه لبعض الكلمات النادر استعمالها فى أيامنا هذه. علاوة على استخدامه لبعض التعبيرات الاسبانية واللاتينية القديمة، حتى أن مؤلف هذا الكتاب ذكر أنه كان يعجز عن ترجمتها فيضطر الى تركها على حالها مع الاشارة الى ذلك فى متن الكتاب. فهذه هى كل العوامل التى جعلت الترجمة أكثر صعوبة.

يعتبر هذا الكتاب على جانب من الأهمية، لانه علاوة على ما سبق، فانه يوضح لنا القوى السياسية فى أوروبا فى القرن السادس عشر، والاضاع التى كانت سائدة فى هذا العصر. كما يوضح لنا دور جون هوكنز John Howkins الانجليزى الجنسية

ب

فى تجارة الرقيق الافريقية، الذى يعتبر أول تاجر أنجليزى، تاجر فى أبناء أفريقيا، فضلا عن أنه كان مغامرا، وقرصانا خطيرا هدد الامن الاسبانى فى جزر الهند الغربية. وكان معروفا معرفة جيدة لدى الشعب الانجليزى بكل طوائفه. لهذا أفرد مؤلف هذا الكتاب فصلا عن "جون هوكنز" وتجارة الرقيق الافريقية. واستدللنا من هذا الفصل على مدى ما كان لهذا الرجل من أهمية فى عصره، وربما يرجع ذلك الى موقفه المعادى من فيليب الثانى ملك أسبانيا ويعود هذا العداء الى سببين : أولهما أن هوكنز كان قرصانا خطيرا هدد أمن السفن الاسبانية فى عرض المحيط الاطلسى، وبخاصة القادمة منها من العالم الجديد والمحملة بالذهب والفضة. وثانيهما أنه (هوكنز) قد تبنى محاربة فيليب بسبب تعسف الاخير ونصبه محاكم تفتيش للبحارة والقراصنة الانجليز، وذلك لاعتناقهم المذهب البروتستانتى، فضلا عن كونهم خطرا يتهدد المصالح الاسبانية فى جزر الهند الغربية، بل على السفن الأسبانية أيضا التى تمر عبر المحيط الاطلسى. ويشير الكتاب أيضا الى السير فرانسيس دريك Sir Francis Drake، الذى كان هو الآخر قرصانا بحريا خطيرا زاد فى عدائه للاسبان. فقد أخذ هذا البحار على عاتقه بل على حسابه الخاص اعداد حملة لمهاجمة المستعمرات الاسبانية فى البحر الكاريبى. وقرر أن يدفع ملك أسبانيا تكاليف هذه الرحلة. فالمقصود بهذه العبارة أنه يبيع لنفسه الاستيلاء على الموارد الاسبانية حتى يسترد ما أنفقته على هذه البعثة. وكان من أهم أسباب هذه الرحلة، الانتقام من أسبانيا فى مستعمراتها، نظرا لحرقها للبحارة الانجليز البروستانت، الذين أطلقت عليهم أسم المهرطقين. وقد تبنى دريك هذه القضية وسبب رعبا رهيبا الى أسبانيا بحيث أقلق مضجعها، وأزعج أمنها. ومن المعروف أن دريك هو الذى ساهم مساهمة فعالة فى هزيمة الارمادا "الاسطول الاسبانى العظيم" فى القتال الانجليزى عام ١٥٨٨م.

وفى هذا القرن كانت عناصر الصراع فى أوروبا تتمثل فى اليزابيث ملكة بريطانيا - التى حاربت من أجل حماية مذهب والدها (المذهب البروستانتى) والتى عانت هى وشعبها من الاضطهاد من جانب أوروبا الكاثوليكية كلها - وفى كل من البابا وفيليب الثانى، ملك أسبانيا - الذى تزعم حركة هذا الصراع - وفى مارى ستيوارت

جـ

ملكة الاسكتلنديين. ورغم حرمان الملكة اليزابيث كنيسيا بواسطة بابا روما، الا أنها ظلت متماسكة، ومحافظة على مبدئها، ومبدأ والدها من قبل. ومع ذلك، وفي نفس الوقت، فانها لم تكن ترغب فى خوض معركة ضد فيليب، خشية أن تهزم هزيمة نكراء، لذلك نجدها عندما فشلت فى مقاومة فيليب وفى حماية رعاياها من البحارة ومن القراصنة - تسمح للبريطانيين جميعا باستخدام كل الوسائل من أجل حماية أنفسهم ومحاربة الاسبان بالشكل الذى يرونه ملائما.

ومن هذا المنطلق نجد أن القراصنة الانجليز وبخاصة كل من هوكنز وديريك يذهبان على رأس الحملات العسكرية خاصة الى جزر الهند الغربية لضرب أسبانيا فى عقر دارها وكان دريك قد ذهب بنفسه الى قادش وهاجمها وأحرق سفنها الرابضة فى مينائها، وأثار الذعر بين الاسبانيين وجعلهم يرتعدون خوفا من مجرد سماع اسمه.

وانتهى هذا الصراع المرير بين أوروبا الكاثوليكية ممثلة فى فيليب وبين اليزابيث، بهزيمة أكبر وأعظم أسطول بحرى - عرفته أوروبا فى هذا العصر - تابع لفيليب، الا وهو الارمادا، التى قادها ميدينا سيدونا Midina Sidona بدلا من سانتا كروز Santa Cruze القائد المحنك الذى مات قبل اقلاع الارمادا بأسابيع قليلة جدا. وقد هزمت الارمادا هزيمة لم يسبق لها مثيل، وقتل الكثير من جنودها بأيدي القراصنة الانجليز. وخاب أمل أوروبا الكاثوليكية فى تطلعاتها الى عودة بريطانيا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية والى تولى فيليب الحكم فى بريطانيا، والى التخلص من هذه المرأة الشريرة (اليزابيث) كما كان يعتقد فى هذا العصر. فقد دب اليأس بين صفوف الاسبان. ولكن منذ ذلك التاريخ أصبح لبريطانيا الهيمنة والسيطرة على البحار والمحيطات، وأفل نجم أسبانيا وتدهورت أوضاعها، وضاعت هيبتها، وفقدت مستعمراتها، ولم تقم لها قائمة حتى تاريخنا المعاصر.

وعلى بهذا العمل أن أكون قد أضفت موضوعا جديدا فى مجال التاريخ الحديث الى المكتبة العربية التى أعتقد أنها بلا شك فى حاجة ماسة اليه.

وعلى الله التوفيق .

المترجم

د. السيد يوسف نصر

الفصل الاول

البحر مهد حركة الاصلاح الدينى

قال جين باول Jean paul، الشاعر الالماني أن الله قد أعطى لفرنسا امبراطورية الارض، وأعطى لانجلترا امبراطورية البحر وأعطى لالمانيا إمبراطورية الهواء أو الجو^(١). وقد تغير العالم منذ أيام جين باول، فقد نقصت أجنحة فرنسا، وأصبحت الامبراطورية الالمانية متماسكة، وكانت انجلترا لا تزال لها السيادة والهيمنة على طرقها البحرية، كما أنها كانت لا تزال أيضا تهيمن على البحار. ومن هذه المكانة العظيمة نشرت بريطانيا السلالة الانجليزية التي كانت تتفاخر بها في كل أرجاء المعمورة.

✱ وقد أسست انجلترا الامة الامريكية العظيمة، كما وطنت انجليز جدد في استراليا ونيوزيلاندا، وجعلت من ملكتها امبراطورة على الهند، وفي واقع الامر كانت بريطانيا ظاهرة جديرة بالتقدير في المجالين السياسى والاجتماعى، الامر الذى اعترف به الجميع. وقد أنجزت بريطانيا كل هذا في غضون ثلاثة قرون من الزمن، نتيجة لتفوقها تماما كقوة بحرية، فلو كانت قد جردت من أساطيلها التجارية ومن أساطيلها الحربية التى تقوم بحماية اساطيلها التجارية، لانتهد امبراطوريتها تماما، ولتساقطت مستعمراتها كأوراق شجرة ذابلة، وتصبح بريطانيا مرة أخرى جزيرة لا أهمية لها في بحر الشمال، يناقش مصيرها طلبة المستقبل - في جامعات استراليا ونيوزيلاندا - في الجمعيات الخاصة بمناظراتهم.

ومن الجدير بنا أن نفكر كيف بلغ الاسطول البريطانى هذه المكانة غير العادية، فقد كتب عنه الكثير، ولكن يبدو لى أن ما كتب فى لب الموضوع كان قليلا. وقد رأينا قوة وطننا تنمو وتتزايد، ولكن كيف نمت ولماذا، بعد نوم مئآت كثيرة من السنين، وكيف أن عبقرية أجدادنا الاسكندنافيين دبب فيها الحياة مرة ثانية - كل هذا ترك دون تفسير.

(١) يعنى هذا أن المانيا لم يكن لها امبراطورية فى القرن السادس عشر (المترجم)

The Spanish وبكون شك كانت البداية تتمثل فى هزيمة الاربامادا الاسبانية Armada عام ١٥٨٨ م. فحتى هذا الوقت كانت السيادة البحرية للاسبان التى حققوها بأنفسهم. وقد أدى فتح جرانادا Granada الى تحفز الشخصية الاسبانية والى الزيادة من قدرها، فقد كان رعايا فرديناند وايزابيلا Ferdinand, Ezabela ومن بعدهم رعايا تشارلس الخامس Charless V وفيليب الثانى Philip II رجالا غير عاديين، فأنجزوا أشياء غير عادية. فقد وسعوا حدود العالم المعروف انذاك، ففتحوا مكسيكو وبيرو، وأسسوا مستعمرات لهم فى قارة أمريكا الجنوبية، كما أستولوا على جزر الهند الغربية الكثيرة، وبهذه القبضة الحديدية، فان كوبا على الاقل لن تفقد بصمة اليد الاسبانية التى استولت عليها. وكان الاسبان قد بنوا مدنهم، كما لو كانت ستظل الى الابد. وانتشروا كذلك فى المحيط الهندى، واطلقوا اسم ملكهم على جزر الفلبين، وأنجزوا كل هذا فى نصف قرن من الزمان، أنجزوه بيد وباليد الاخرى كانوا يحاربون المغاربة والأتراك، ويحمون فى الوقت نفسه ساحل البحر المتوسط من قراصنة تونس والقسطنطينية.

ولضيق أراضيهم فقد ركبوا البحر باحثين عن أقطار جديدة ليفتحوها فى وقت كان نباح الكلاب المائتة الانجليزية نادرا ما يسمع فيما وراء مناطق صيدهم، فكانت أضخم سفينة تجارية تبحر من ميناء لندن (فى ذلك الوقت) لايزيد حجمها عن سفينة ساحلية حديثة تستخدم لنقل الفحم. ومع ذلك وفى فترة حياة عادية واحدة، تمكن سكان هذه الجزيرة غير الهامة من انتزاع الصولجان من قبضة الاسبان، ووضعوا تاج البحار على رأس ملكهم. فكيف حدث ذلك؟ وأى كادموس Cadmus قد زرع أسنان التين فى الخطوط المائتة ليقفز منها هذا السباق ؟ أو من الذى زرع هذه الصراعات التى نتج عنها هذا السباق البحرى ؟ ومن الذى زود سفن الملكة اليزابيث بأطقمها ؟ ومن الذى حمل علم بلادهم حول الارض، فتحلوا وحاربوا الاسبان على سواحلهم وفى موانئهم ؟ وكانت القوة الانجليزية البحرية هى المولود الشرعى لحركة الاصلاح الدينى فكانت قد نمت - كما سيتضح لكم - بطريق مباشر من الحركة البروستانتية المحترقة.

يكان من الممكن لماثيو باركر Mathew Parker والاسقف جويل Bishop Jewel وهوكر الحضيف نفسه The Judicious Hooker وهم رجال ممتازون- أن يكتبوا ويعظوا ويعلموا من أجل أهداف بسيطة دون الحاجة الى مصاحبة مدافع دريك. ومن ناحية أخرى فان مدافع دريك هذه لم تكن لتهدر دون بحارة مدربين، قلبا وقالبا، وذلك لتشغيل هذه السفن واعداد مدافعها، وقد عزا الاسبان هزيمتهم الى مهارة البحارة البريطانيين وللخاصية الممتازة للسفن الانجليزية وأطقمها. فمن أين أتت هذه السفن؟ وأين وكيف تعلم هؤلاء البحارة حرفتهم؟ وكان المؤرخون قد تحدثوا بحماس عن الروح القومية للشعب الذي ثار وتوحد ليقاوم الغازي وغيره. ومع ذلك فان الروح القومية هذه لم تستطع أن تعد أسطولا أو تقدم ضباطا مدربين وبحارة، كي يكونوا أندادا لبانتو* Lepanto.

وفي البداية، أود أن أبدى ملاحظة موجزة، ولكن بالتأكيد- دون هدف مشير للتعصب. واعتقد أن كافة الكتاب المحدثين قد قالوا بثقة مرات عديدة بأن الغزو الاسباني أوقف في انجلترا الصراعات العقائدية، ووجد بين البروستانت والكاثوليك الرومان، وذلك للدفاع عن ملكتهم ووطنهم. ومن الجدير بالذكر أن هذه الصراعات تذكرنا بأن اللورد هوارد أف افنجهام Lord Howard of Effingham كان أدميرالا للملكة اليزابيث، وكان هو نفسه كاثوليكيًا رومانيًا. ولكن السؤال أكان هذا صحيحا؟ وفي الوقت نفسه، كان إيرل أف ارندل عميد أسرة هوارد The Earl of Arundel the head of the house of Howard وهو كاثوليكي روماني- يصر في القلعة Tower ويدعوا بالنجاح لمدينة سيدونا** Medina Sidona ولم يزد اللورد هوارد أف افنجهام - وبصفته كاثوليكي روماني- عن الاسقف الحالي لكاتدرية Canterbury أو أسقف لندن، وأرجو الا أكون بذلك قد سلبتهما شخصيتهما. فقد كان كاثوليكيًا، ولكن كاثوليكي انجليزي، مثل هؤلاء الاساقفة الموقرين.

* لبانتو ميناء ومدينة قديمة تقع على رأس خليج كورنيث في بلاد اليونان (المترجم).
** هي مدينة شذونة التي تقع في الجنوب الشرقي للسواحل الاسبانية على لسان الدكتور/ حمدي عبد المنعم أستاذ التاريخ الأندلسي.

فهو لا يمكن أن يكون كاثوليكيا اذا ساند اليزابيث فى هذه المناسبة العظيمة. فالكاثوليكي الرومانى هو الشخص الذى يعترف بسلطة الاسقف الرومانى وكان البابا قد طرد اليزابيث من الكنيسة، وأعلن عزلها، وجعل رعاياها يتحللون من ولائهم لها، بل ومنعهم من أن يحاربوا من أجلها. ولم يكن يوجد انجليزى من الذين حاربوا فى هذه المناسبة العظيمة من أجل حرية الانجليز على وفاق مع روما.

وقد أعددت بيانات مختصرة غير مترابطة من هذا النوع كى تتواءم مع المزاج الحديث بحيث فهمت بسرعة، واستحسن وتكررت، ودخلت التاريخ دون مناقشة.

وكان فى حوزتى تقرير تفصيلى عن اتجاه الاحزاب فى انجلترا، وضع عام ١٥٨٥م، أى قبل الارمادا بثلاث سنين. وكان كاتبه من اليسوعيين المميزين. واعد هذا التقرير من أجل أن يستخدمه البابا وفيليب، وركز بوجه خاص على استقبال قوة غازية، وجاءت فيه تفاصيل كثيرة، حيث يقول الكاتب "ان سكان المدن - كلفدن، وبريستول - كانوا من البروتستانت المحدثين وبوجه العموم كان اللوردات والنبلاء المستأجرون أراضيهم والفلاحون الذين يكونون الغالبية العظمى من السكان من الكاثوليك. ولكن هذا الكاتب كان يميز بدقة بين الكاثوليك. فهناك كاثوليك متحمسون وعلى استعداد أن يكونوا "كهنة إعراف وشهداء"، وعلى استعداد أن يثوروا فى أول فرصة، وهم مستعدون كذلك للتخلى عن ولائهم، ولديهم الاستعداد لخلع اليزابيث، ووضع ماري الاسكتلندية مكانها Maryscots ويقول الكاتب: أن عدد هؤلاء كان يتزايد يوميا بسبب المجهودات التى يقوم بها الكهنة فى نواتهم، وهو يتفاخر بالمكائد المستمرة التى كانوا يحيكونها لاغتتيال الملكة.

وهناك كاثوليك من نوع آخر وهم الذين كانوا قلبيا من رعايا البابا، ولكنهم سايروا الاحداث لانقاذ ما يمتلكونه، وتطلعوا الى احداث تغيير فى النظام الطبيعى للأشياء، ولكنهم لن يقدموا على شىء بأنفسهم حتى يظهر لهم فى الواقع جيش غاز، ولكنه (أى الكاتب) يصر بأن الجميع متشوقون لثورة. دع أمير بارما يأتى، فهم سوف ينضمون اليه، وكانت هاتان الطبقتان معا من الكاثوليك يكونان ثلاثة أرباع الامة.

ويقول أن الحزب الوحيد - وهذا شيء حقيقى ملفت للنظر- الذى سيخوض الحرب حتى الموت من أجل الملكة يتمثل فى أصدقائها الحقيقيين، من البيورتان Puritans ويكون ذلك أول اشارة الى الاسم الذى وجدته، وبصفة خاصة بيورتان لندن وبيورتان المدن المطلة على البحر أو المدن الساحلية. وهو يسلم بأن هؤلاء الرجال كانوا خطيرين وجسورين ولديهم العزم ولكن من حسن الحظ كان عددهم قليلا.

وكما قلت فان تاريخ هذه الوثيقة يرجع الى عام ١٥٨٥م، وعلى وجه العموم، اعتقد أنها دقيقة. والخطأ الوحيد أنه كان يوجد من بين الكاثوليك الانجليكان عدد قليل، كانت الدولة عزيزة عليهم، مثل عقيدتهم. وبدأت هذه القلة ترى أنه فى ظل قانون التناسق يمكن أن تعلم وتمارس الطقوس الكاثوليكية، فهم الذين أخلصوا الولاء للطقوس القديمة للعقيدة، لهذا فأنهم لم يعتقدوا أن طاعة البابا ضرورية بحيث تمثل جزءا من العقيدة. وكان أحد هؤلاء هو اللورد هوارد أف أفنجهام Lord Howard of Effingham الذى عينته الملكة فى القيادة العليا ليضمن لها ولاء اللوردات والنبلاء المترددين فى ولائهم. ولكن انطلقت القوة والغضب والحماس من البيورتان - كما اعتقد الجزويت - فهم رجال لهم نفس الاعتقادات مثل الكلفيين Calvinists فى هولندا وفى روشيل Rochelle، وهم من الرجال الذين طردوا من الارض واجأوا الى المحيط كوطن طبيعى لهم، وتعهنوا حركة الاصلاح الدينى فى المحيط مهد هذه الحركة. فكيف تبنى هؤلاء الذين قدموا من الشمال الاوروبى هذا الانطباع البروتستانتى القوى، لهذا فأن هدف هذه المحاضرات هو توضيح ذلك.

وعندما تبق Henry VIII العرش وجد انجلترا بدون اسطول، وبدون احساس واع بالحاجة الى مثل هذا الاسطول. وكان هناك القليل من السفن التجارية Hulks، التى تعمل بين بورو Bordeaux وقادش Cadiz، ولشبونة Lisbon، وكل منها صنادل (سفن مسطحة القاع) لنقل الأثقال الضخمة Hoys، وكان منها كذلك مراكب صغيرة وخفيفة Fly boats التى تتحرك ببطء ذهابا وايابا بين أنتويرب Antwerp والتميس Thames، وقد خصص اسطول جيد لصيد الاسماك، فكان يذهب سنويا الى ايسلندا، وذلك لصيد سمك الكود Cod (البكلاه). وعمل الصيادون المحليون فى بحر الشمال وفى القنال،

ابتداء من هول Hall وحتى فول موث Flamouth وذهب سكان تشستر Chester الى كنسل Kinsale من أجل الحصول على سمك الرنجة Herrings والميكرل Mackerel (السردين). ولم ترغب الامة الانجليزية فى الحصول على أكثر من كل هذا.

وقد قدم كولبس Columbus العالم الجديد الى هنرى السابع، مع أن كشف هذا العالم لم تتضح معاملة بعد وقد أرسل كولبس أخاه الى انجلترا ومعه خرائط وأشكال للكرة الارضية، واقتباسات من أقوال الفيلسوف أفلاطون، ليثبت وجوده (أى العالم الجديد) وتعامل هنرى كرجل انجليزى عملى مع كل هذه الاشياء التى أرسلها له كولبس على أنها حلم يصعب تحقيقه.

وقد أتى الحلم من بوابة القرن (مضيق ماجلان فى جنوب امريكا الجنوبية) فاكتشفت أمريكا وأول من امتلكها هم الاسبان وليس الانجليز. وكانت أمريكا لاتزال مكانا رحبا، ومرة ثانية حاول جون كابوت John Cabot، الايطالى الجنسية وابنه سبستيان Sabastian مع هنرى (القيام برحلة). ومن المحتمل ان انجلترا كانت لاتزال لها القدرة على أن تضمن لنفسها جزءا واستمع هنرى السابع اليهما هذه المرة، واعدت لذلك سفينتين صغيرتين فى ميناء بريستول Bristol وعبرتا الاطلنطى، واكتشفتا نيو فوندلاند واتجهتا الى سواحل فلوريدا باحثين عن طريق يؤدي الى كاى Cathay، ولكنهما لم يعثرا على شىء. وفى تلك الاثناء، مات كابوت الاكبر، وعاد كابوت الشاب الى أرض الوطن. وفشلت البعثة، ولم يظهر أى اهتمام بها.

وبتولى هنرى الثامن Henry VIII الحكم بدأت حقبة جديدة، بمعالم كثيرة، فكان الطباعة قد استخدمت - وقد هز أرازمس ورفاقه أوربا Erasmus بهذا التعليم الجديد، فقد غير علم الفلك الكوبرنيكس مفهوم الارض من قرص مستوى الى كرة تدور، مما أصاب أفكار البشرية بالدوار. وقد اتسع الخيال فأصبحت حقيقة الاشياء تبدو بأحجام أكبر مما يتصوره الخيال، واقتلعت العقيدة الثابتة بكل جوانبها العديدة. ورحب أرازمس بهنرى الشاب لانه ربما يكون فخر لعصره الذى كان قد بزغ، فقد كان شابا لامعا، مهذبا طموحا. فما الذى ترنو اليه نفسه فى ظل هذه الظروف الجديدة ؟ كان هنرى الثامن يمثل كل ذلك، ولكنه كان حذرا. ونظر من حوله، وفى ذلك الوقت كانت

أوروبا تنتشر فيها الحروب، التي كان من المحتمل أن ينخرط فيها. وكان والده قد ترك له خزانة عامرة ووجه الملك الشاب - بعقلية الرجل - اهتمامه في المقام الأول نحو القناة الواسعة التي أسماها بالقتال الانجليزي، التي شكلت خط الدفاع الطبيعي للمملكة. وقد أحدث فتح المحيط ثورة في الحرب والملاحة، فتطلبت الرحلات الطويلة سفنا أكبر. وكان هنري الثامن أول أمير يرى أهمية البارود. ففي السنوات الأولى من حكمه أصلح ترسانات السفن، وبنى سفنا جديدة على أنماط محسنة، واستجلب الإيطاليين كي يصنعوا له نماذج جديدة من مدافعه. ويقال، أن الملك هاري King Harry أحب رجلا توسم فيه الرجولة عندما رآه. وأقام علاقة شخصية مع قباطنة البحر في كل من بورت موث Port mouth وثوئمبتون Southampton. وبوسيلة أو بأخرى تعرف على شخص ما هو المستر وليام هوكنز Mr. William Hawkins من بليموث Plymouth، ووضعه محل تقدير خاص. وقد بدأ المستر هوكنز رحلاته إلى ساحل غينيا في غرب أفريقيا تحت رعاية الملك هنري الثامن، وعاد إلى الوطن وهو يحمل معه الذهب والعاج، ثم عبر إلى البرازيل، واتخذ أصدقاء له من الوطنيين البرازيليين، وأحضر معه عند عودته ملك هذه البلاد، الذي كان لديه فضولا في أن يرى كيف تكون إنجلترا، وقدمه هوكنز إلى هنري في سرايا الملك White hall. ومرة أخرى، وبمساعدة هنري خرج رجل آخر من بليموث Plymouth هو روبرت ثورن Robert thorne ليجت من الممر الشمالي الغربي، الذي كان كابوت قد فشل في العثور عليه. وسميت سفينة ثورن باسم دومينوس فوبيسكوم Dominus Vobiscum. وعلى كل حال لم يتحقق هذا الأمل الزائف. وبعد ذلك، حاول رجل من لندن هو المستر هور Mr. Hore الذي يقال عنه أنه كان هاويا لدراسة العالم وكان متحدثا مقنعا في الاجتماعات العلمية وغير ذلك. واستمال بعض المحامين الشباب (اعتقد أنهم لم يمارسوا مهنة المحاماة من قبل)، وكذلك استمال بعض الرجال المذهبيين بحيث بلغ عدد الأشخاص الذين انضموا إليه مائة وعشرون شخصا. وحصل هذا العدد من الأشخاص الذين انضموا إلى هور على سفيتين عند جرافسند Gravesend. وقبل الإبحار منحتهم الكنيسة البركة. وبوضوح اعتمدوا على الرب كي يراهم لأن تجهيزاتهم التي أعدها كانت قليلة. وكانوا قد وصلوا إلى نيوفوندلاند Newfoundland

found Land ولكن مخزونهم من المؤن كان قد نفذ، ومع ذلك واصلت سفينتيهما المسير الى الشاطئ. وفي أرض السمك، لم يعرفوا كيفية استخدام الصنارة والطعم، فتغنوا على جذور النباتات وعلى ثمار العنب البري Bilberries، كما التقطوا عظام الاسماك المتبقى فى أعشاش الطيور. وفى نهاية الامر بدأ كل منهم يأكل الآخر، دون اكتراث بالسيد هور، الذى أخبرهم بأنهم سيذهبون الى السعير Unquenchablefire. وفى تلك الاثناء، وصلت سفينة فرنسية، فاستولوا عليها وعلى المؤن التى كانت على متنها، وعادوا بها الى أرض الوطن تاركين طاقمها من الفرنسيين يلقون مصيرهم. وفى سعادة وجد الفرنسيون التعساء وسيلة لتعقبهم أو اللحاق بهم وقد شكوا الفرنسيون من معاملة الانجليز لهم، وعندئذ، أمر هنرى الثامن باجراء التحقيق، ولكن فى النهاية وكما قال التقرير، أن الرحمة والشفقة انتابتا هنرى تجاه جماعة المستر هور، وذلك لما لاقوه من كوارث، فلم يقم بمعاقبتهم على ما فعلوه، بل قام بمنح الفرنسيين تعويضا ملكيا من جيبه الخاص.

واذا أريد النجاح لأى مغامرة بحرية فى انجلترا، فان الحاجة لا تقتضى متطوعين، ولكن تقتضى شيئا أفضل. وتسببت الحروب الطويلة التى نشبت بين فرانسيس الاول Francis، وتشارلس الخامس Charles V، فى جعل المشكلة أكثر صعوبة حيث كانت الحرب البرية دائرة بين الجيوش النظامية. ونجد أن سفن القراصنة المسلحة كانت تنطلق من الموانئ الفرنسية والفلمنكية والاسبانية، وقام الافراد باستصدار تصاريح حكومية من أجل مشروعاتهم، فأبحروا كى ينتهزوا الفرصة، ويستغلوا ما تقع أيديهم عليه.

وكان القنال هو ميدان الحرب الاساسى لأنه الطريق العام بين أسبانيا والاراضي المنخفضة. ولم يكن هنال فارق كبير بين القراصنة وأصحاب السفن الخاصة. واشتركت السفن بكافة أنواعها فى العمليات الحربية. وأصبحت جزر سيلى Scilly قلعة للقراصنة، فكانت الخلجان الصغيرة ومصبات الانهار - فى كل من كورك Cork وكيرى Kerry مخابىء يختبئ فيها القراصنة بأمان. وهناك يقومون بتقسيم غنائمهم مع الرؤساء الايرلنديين.

وازداد الاضطراب والنوضى عند طلاق كاثرين أف أراجون Cathrine of Aragon ، فقد جعل هذا الطلاق هنرى عدوا علنيا لأوروبا الكاثوليكية. عندئذ تعرض التجار الانجليز ومراكب صيدهم للغرق والسلب والنهب مما أدى الى تسليح أطقمها كي يدافعوا عن أنفسهم. وعندئذ أصبح القتال مسرحا للحروب العنيفة، ابتداء من مصب نهر التيمس Thames وحتى لاندس اند Land's End. وفى نفس الوقت تغير نمط السفينة كي تلائم الظروف الجديدة، حيث اعتمدت الحياة على سرعة الملاحة. وتصف الوثائق الحكومية الاساطيل الفرنسية الصغيرة، والاساطيل الاسبانية السريعة، وهى مندفة الى كل من دارموث Darmouth وبلى موث Plymouth أو فلموث Falmouth، وذلك لاعتراض السفن الانجليزية أو لمحاربة بعضها البعض. عندئذ، كان على الملك هنرى الثامن أن يهتم بأمنه دون ضوضاء بعد طرده من الكنيسة، وبعد ثورة ايرلندا، وبعد أن هددت الاضطرابات والفوضى انجلترا. وقد كتب السفير الاسباني تقريرا عن الملك هنرى جاء فيه أن الملك يقوم ببناء السفن في صمت فى نهر التيمس وفى بورتسموث Portsmouth. ولما أصبح الغزو وشيكا بدأ فى تطهير البحار من السفن التى تثير القلق، واندفع فجأة من سولنت Solent عدد قليل من السفن المسلحة تسليحا جيدا، وأسرت ودمرت أسطولا للقراصنة فى خليج مونتس Mount's Bay كما أغرقت فى الدونز Downs بعض سفن القراصنة الفلمنكيين وأسرت أمير البحر الفلمنكى نفسه. ولما أصبح الوطن أكثر تعرضا للخطر، وبدأ الرهبان الكاثوليك فى نشر العصيان الذى تطور الى حج الهداية Pilgrimage of Grace، أخذ هنرى الاديرة وباع أراضيها، وسلح بأثمانها حصون الساحل، وكأته قال لهم " أنتم تهددوننى، فأنتم ستستخدمون الثروة التى منحها لكم أبائنا فى قلب نظام حكومتى ، وستقبلون الغزى، فأنا سأستولى على ثروتكم، وسأستخدمها فى احباط غدركم". ولعلكم ترون ما تبقى من أعمال هنرى التى تتمثل فى الحصون التى أنشأها فى كل مكان على طول الساحل من بيرويك Berwick وحتى اللانس اند Land'a End .

وزمجر الفاتيكان راعدا. ففي عام ١٥٣٩م، كان عصر هنرى الثامن على الابواب، وكانت فرنسا وأسبانيا قد تصالحتا، وكان من المتوقع أن ينقذ تشارلس (ملك أسبانيا) أو كليهما معا قرار البابا وقد تجمع حشد من السفن الضخمة والصغيرة فى شلدت (Scheldt الارض المنخفضة Nether Lands) لا لغرض سوى لنقل الجيش الى انجلترا، وقد انضمت اسكتلندا الى العصبة الكاثوليكية.

ولجأ هنرى دون خوف الى الشعب الانجليزى فلربما فى هذه الحالة يتآمر ضده النبلاء والكهنة والكاثوليك - فكيف نفسر ذلك، هذا ما سنفعله - ولكن الامة الانجليزية كانت مخلصه فوقفت الى جانبه. وفى نفس الوقت، سلح تجار لندن سفنهم فى النهر. وقدمت السفن المسلحة ذات الشراعين، والمراكب ذات الشراع الواحد من كل الموانئ فى كل مكان كما تخلق صيادو السمك فى الغرب عن قواربهم وشباكهم الى زوجاتهم، ولم تسق حالة الصيد، لان النساء تناولن المجذاف والشراع والصنارة، وذهبن الى أماكن صيد الاسماك، بينما ذهب أزواجهن ليحاربوا من أجل ملكهم. وعند نداء الوطن تمخضت العبقريّة الانجليزية عن اكتشافات جديدة، فاخترع المستر فلتشر أف رى . Mr. Fletcher of Rye (سيذكر اسمه) قاريا لم يرى له مثيل من قبل أبدا، اذ أنه سيستخدم فى اتجاه الريح، وله أشربة مزركشة فى الامام والخلف، وتمثل صناعته أعظم ثورة فى مجال صناعة بناء السفن. وقد حشد ١٥٠ قاريا شراعيا فى ساندوش Sandwich لتتكافى فى القوة مع الاسطول المربط فى شلدت. وفى دهشة، كتب السفير الفرنسى ماريلاك Marillac تقريرا عن نشاط الملك والشعب. ونتيجة لذلك، بدأت القوى الكاثوليكية، تفكر بطريقة أفضل، فلم تكن هذه هى انجلترا التى أخبرهم عنها ريجنالد بول Raginald Pole والتى كانت تواقا الى مواجهتهم، وقد تبعثرت قوة شلدت (هولندا، أو الاراضى المنخفضة). عندئذ أعطى هنرى اسكتلندا درسا كانت فى حاجة اليه، وكان الاسكتلنديون يعتقدون أنهم يستطيعون أن يستفيدوا من موقفه السيء، بحيث يهاجمونه من الخلف، عند مهاجمة الامبراطور له. وفى صباح أحد الايام، وعند استيقاظ الناس من نومهم فى ليث Leith، وجنوا الاسطول الانجليزى رأسيا فى المراسى Roads وقبل أن يكون لديهم الوقت ليتفحصوا ما حولهم اشتعلت

ليث، وسقطت أندبرج Edinburgh ولو أن تشارلس الخامس فكر بجدية في غزو هنرى، لرجع الى مستشاريه الأكثر حكمة، ولأقام حلفا معه بدلا من ذلك. وتوجه البابا الى فرنسا، فإذا تخلى عنه الامبراطور فإن أكثر الملوك تمسكا بالمسيحية ستساعده، ووعد(البابا) فرانسس أنه لو استولى على انجلترا فإنه يمكنه فى هذه الحالة أن يبقيا لنفسه. وقد صمم فرانسس أن يعمل ما يستطيع عمله.

وفى عام ١٥٤٤م، كان قد أنقضى خمس سنوات على التجمع فى ساندوتش Sandwich ويذكر التاريخ أن الفرنسيين جمعوا فى هافر Havre ما يقرب من ٢٠٠ سفينة تتضمن سفنا حربية وشراعية، ونقالات للجند ومما لاشك فيه أن هذا العدد مبالغ فيه، ولكن على أية حال، كانت أكبر قوة تتجمع فى ذلك الوقت، كى تغزو انجلترا. وكان من الممكن لو استخدمت بطريقة جيدة أن ترغم هنرى على الركوع. وكانت الخطة تتمثل فى احتلال جزيرة ويت والاستيلاء عليها Isle wight وتدمير الاسطول الانجليزى وبعدئذ تستولى على بورت موث Portsmouth وسوثمبتون Southampton ثم تتقدم الى لندن.

ومع ذلك، لم يتراخ اهتمام هنرى بأسطوله. فقد بنى سفينة تلو الاخرى وكانت حمولة السفينة هارى Harry ألف طن، وتحمل أيضا على ظهرها ٧٠٠ سبعمائة رجل، حيث كانت معجزة العصر. وكان هناك اثنتا عشرة سفينة أخرى، كان لها تأثير كبير. وناشد الملك الأمة مرة ثانية، فأجابته الأمة مرة أخرى، وفى كل أنحاء انجلترا، كان هناك ١٥٠,٠٠٠ رجل مسلحين فى الميدان أو فى الثكنات، ووجد فى أسطول الملك الراسى فى بورت موث ١٢ ألف بحار (اثنا عشر ألف بحار) فضلا عن حشد من السفن الحربية الخاصة بالقراصنة والراسية فى الغرب والتي تجمعت بحماس مثلما كانت من قبل. وعلى الرغم من الأفكار السيئة التى سمحنا لأنفسنا أن نكونها عن هنرى، فإننا نلاحظ الحماس الذى تجمعت به البلاد التى لم تقسمها الصراعات الدينية، وذلك للدفاع عنه. وفى اسطول بورت موث هذا بقيت عبقرية عظيمة انجلترا البحرية المستقبلية على ما هى عليه دون تطور، وهذه حقيقة موجزة ترتبط بهذا، فهى جديرة بالتسجيل.

وكان الشعار على ظهر الأسطول هو "يحيا الملك" وكان الجواب فليطل حكمه لنا .
ويعتبر هذا أول بداية أمكن اكتشافها للنشيد الوطنى الانجليزى .
وفى منتصف شهر يوليو من نفس العام، جاء الملك نفسه إلى بورت موث
Portsmouth كى يشاهد الهجوم المتوقع . وفى تلك الأثناء، كان الأسطول تحت قيادة
اللورد ليسيل Lord Lisle الذى أصبح فيما بعد دوق أف نورثمبرلاند Lord of
Northumber land . وفى ذلك الوقت، كان الفرنسيون قد عبروا من هافر Havre دون
مقاومة تذكر، ورسوا فى سنت هيلينا، على مقربة من مرسى ميناء هاربر بريدينج
Harbour Briding .

وكان الانجليز فى انتظارهم فى المياه الضحلة، لأن الفرنسيين كانوا يفوقونهم
عددا، وفى الصباح التالى لمجىء الفرنسيين كان الطقس ساكنا وحارا، لذلك لم يستطع
الانجليز التحرك لقلّة الريح، ومع ذلك عبروا بسفنهم واشتبكوا معهم (أى الفرنسيين) لمدة
ساعتين أو ثلاث ساعات وكان الموقف فى صالح الانجليز . وعند الظهر هب نسيم البحر،
فاندفع عدد قليل من السفن السريعة، ذات الشراع الواحد، واجبرتهم على التراجع
بسهولة، ولكن نفس هذا النسيم - الذى مكن الانجليز من التحرك - جلب معه كارثة
خطيرة، تمثلت هذه الكارثة فى أن السفينة مارى روز Mary Rose وهى واحدة من
أجمل سفن ليسيل Lisle كانت معرضة لنيران سفن الفرنسيين الشراعية الكبيرة ذات
المجاديف، فقد تركت نوافذ هذه السفينة مفتوحة، وعندما هبت الريح، جنحت وامتلات
بالمياه وغرقت، وكانت تحمل على ظهرها مائتين من الرجال، ورأها الفرنسيون وهى
تغرق، واعتقدوا أن مدفعيتهم هى التى فعلت بها ذلك، وأملوا فى مواصلة نجاحهم،
وبالليل، أرسلوا قواربهم لتتوغل فى الداخل لتكتشف الطريق إلى الميناء، وأخبرت تلك
القوارب بأن الحواجز الرملية جعلت الاقتراب أمرا مستحيلا، ولم يكن لدى الفرنسيين
خطة واضحة للعمل، وحاولوا الرسو فى الجزيرة، ولكن قواتهم كانت صغيرة، ففشلوا
فى تحقيق ذلك، ورفعوا مراسيهم، وتحركوا مرة ثانية إلى ما وراء سلسى بل Selsea
Bill حيث فكر ليسيل فى أن يعوقها عن العمل فى الظلام منتهزا بذلك المد والجزر .
ولكن كان أمام الفرنسيين عدو على ظهور سفنهم أسوأ بكثير من ليسيل نفسه، ويفسر

هذا حركتهم التي تدل على حيرتهم. وكان هذا العدو يتمثل فى مرض الدوسنتاريا الذى أصاب كافة من كان على ظهور السفن، نتيجة للطقس الحار، واللحم الرديء والمياه الفاسدة. وبعد ثلاثة أسابيع من إبحار غير فعال، كان عليهم الإسراع فى العودة الى هافر Havre ليتفرقوا. فلم يحقق أول أسطول عظيم - الذى كان عليه أن يسترد انجلترا إلى البابا - شيئا يذكر. ومرة أخرى، أظهر هنرى قوته، حيث ظل لا ينازعه أحد على البحار الضيقة.

وهكذا، فقد ظلت الأمور معلقة فى المدة المتبقية من عصر هنرى رغم ما بذله من جهد كبير، فقد حارب البابا، وجعل الكنسية تخضع لسيطرة القانون، وحتى ذلك الوقت سار الوطن كله معه، ولم يكن هناك تغييرات عنيفة فى شئون العقيدة. وعندما مات هنرى الفى الوصى العقيدة القديمة، وخلق بذلك صدعا جديدا وخطيرا بين البروتستانت والكاثوليك، فضلا عن تركه الأسطول العظيم الذى خلفه هنرى ينهار، فى وقت كانت فيه انجلترا فى مسيس الحاجة إلى أسطول أكثر من ذى قبل.

وتطورت روح المغامرة بنمو حركة الإصلاح الدينى. وفتحت الشركات التجارية مسالك للتجارة مع روسيا، ومع بلاد الشرق، وذهب قباطنة البحر المغامرين إلى غينيا من أجل الحصول على الذهب. وتتبع السير هيو ويلونجبى Sir Hugh Willoughby الطريق الشمالى الغربى المجهول، واتجه نحو الشرق مارا من حول الرأس الشمالى The North Cape وذلك للبحث عن هذا الطريق ولكنه مات بسبب الجليد. وكانت التجارة الانجليزية قد بدأت فى النمو رغم ممارسات الوصى.

ولكن كان هناك عنصر جديد وخطير للغاية قد بزغ يتمثل فى تحويل العقيدة إلى علاقات بين البحارة الانجليز والقوى الكاثوليكية، وبخاصة مع أسبانيا. وفى حماس لا يعباد الهرطقة، وضعت الحكومة الأسبانية موانئها تحت هيمنة محكمة التفتيش، بحيث كانت تصدر أية سفينة يوجد بها كتاب هرطقى (بروتستانتى)، ويحمل طاقمها إلى السجون ليحقق معهم. وقد بدأت هذه المحاكم فى عصر هنرى، وحاول القضاء أن يعاملوا المخالفين فى الرأى كمهرطقين، واعتقلت أسبانيا الانجليز فى موانئها. عندئذ واجه هنرى، تشارلس الخامس بحزم. وفى ذلك الوقت، كانت محاكم التفتيش قد أسست

للقضاء على الهرطقة. وفي ذلك الوقت أيضا كان كل شيء قد تغير. ولم يكن من الضروري أن يضبط أى بحار تعس وهو يلحق الهرطقة، بل يكفي أن يكون فى حوزته انجيلا انجليزيا أو كتابا للصلوات فى حقيبته، وكانت ترد قصص إلى دارتسموث Dartsmouth، أو إلى بليموث Plymouth، عن فلان وعلان - اللذين كان لهما أما زوجة أو أب أو أم - واللذين القى القبض عليهما بلا جريمة، والقا فى غياهب السجون، وعذبا وتركيا يتضوران جوعا، أو أرغما على العمل فى السفن أو أحرقوا بتهمة الهرطقة فى سيفيل Seville (أشبيلية).

والى حد ما Partly كان هدف محكمة التفتيش سياسيا، فكانت تهتم باعاقبة التجارة، وتجعل الناس نافذى الصبر من التغيرات التى نتج عنها مضايقات كثيرة مثل هذه. وعلى وجه الدقة، كان التأثير على العكس من ذلك، فقد سببت هذه القصص الغضب عندما وصلت إلى الوطن، فذب الاحساس بالكراهية لدى الأفراد الذين يسافرون بحرا، وتولدت لديهم رغبة عارمة فى الانتقام.

وأدى الانقسام فى العقائد الى زيادة فى انقسام الأمم، فكان لكل أمة حلفاء فى قلب الأمة الأخرى. فاذا رغبت انجلترا أن تشن الحرب على أسبانيا، فيمكن لأسبانيا فى هذه الحالة أن تشجع المتمردين من بين الكاثوليك فى (انجلترا). وإذا أعلنت أسبانيا أو فرنسا الحرب على انجلترا، فيمكن لانجلترا فى هذه الحالة أن تقدم المساعدة للبروتستانت (الفرنسيين) أو لاتباع كلفن فى هولندا (الأرض المنخفضة). وكانت كل الحكومات متشابهة فى خوفها من الحرب الدينية الشاملة، التى من المحتمل أن تهز أوروبا وتفتتها. وهكذا، ترك الأفراد إلى نزاعاتهم الطبيعية، وأحرقت محاكم التفتيش البروتستانت من الانجليز أو الفرنسيين أينما استطاعت اللحاق بهم. وانتقم البروتستانت للظلم الواقع عليهم بطرقهم الخاصة متحملين المخاطر فى سبيل ذلك.

وهكذا، ومنذ عهد ادوارد السادس، وحتى نهاية هذا القرن، أصبحت القرصنة المهنة الخاصة للرجال الأشراف الذين يحبون المخاطرة، ويريدون التفانى فى سبيل الله والوطن وأنفسهم، وذلك بمحاربة الكاثوليك فقد مسحت أساطيلهم المكونة من هذه السفن الخطيرة القنال، وتربصت فى سيلي Scilly أو حتى فى جزر الأزورس Azores،

وتبرأت الحكومات علنا من هذه السفن أو الأساطيل، بينما فى السر كانت هذه الحكومات تؤيدها لأنها كانت تشن حربا من تلقاء نفسها على من عرفوا بأعداء الله. وفى هذا المضمار كان من بينهم قراصنة لا يهتمون بالله ولا بالإنسان، وكانت وحشية محاكم التفتيش، هى التى أجبرت البروتستانت على ذلك، لأن هذه المحاكم كانت قد بدأت أعمالها بحرق كل من تثبت عليه الهرطقة.

وقد سلب القراصنة سفن الكاثوليك وأحرقوها وأغرقوها انتقاما منهم فكل عمل عنيف يرد عليه أو يواجه بآخر أعنف منه حتى يتوارى الصواب والخطأ، فى خضم الكراهية الدينية، وقد بقيت صورا حية من هذه الأعمال الوحشية فى الوثائق الحكومية الانجليزية والاسبانية. وكانت ايرلندا مأوى محببا للقراصنة، فعلى العموم كان هناك فوضى، ولكنها تقريبا لا تشكل مسألة ذات أهمية، فكان القباطنة من القراصنة سيئى السمعة يلتقون فى كورك Cork أو فى كنسال Kinsale، وهناك كانوا يجمعون الذخيرة فى مخازن، ويقومون بتصنيع المدافع، كما يقومون ببيع غنائمهم، فنجد هناك رجالا من كل الأنواع، من رجال الدين المتعصبين الى المتشردين من غير المتفكرين فهذه حادثة من كثير توضح لنا قمة ما وصلت اليه الأمزجة. ويقول شخص ما، مخاطبا المجلس الاستشارى فى بداية عهد الملكة اليزابيث "أن السلام الطويل قد أصبح أكثر ضررا من الحرب الصريحة، نتيجة لمحاكم التفتيش الاسبانية الغاشمة. وكانت أسبانيا تصر فى الخفاء على اتباع سياسة كان الهدف منها تدمير الأسطول الانجليزى بما فيه من مرشدين، وضباط وبحارة، بواسطة محاكم التفتيش. ويدعى الملك الاسبانى أنه لا يستطيع أن يتعدى على محاكم التفتيش، بينما نحن فى انجلترا، نقول اننا لا يمكن أن نعلن الحرب على أسبانيا انتقاما للمقتولين، ولم تمض مدة طويلة على اعدام محاكم التفتيش الاسبانية لستين شخصا من سنت مالو St. Malo رغم توسلهم الى الملك الاسبانى كى ينقذ حياتهم. وبعد ذلك قام الفرنسيون بتسليح سفنهم التى كانت تنتظر الأسبان، فأسرت هذه السفن مائة من الأسبان، وقطعت رؤسهم، وأرسلت هذه السفن الاسبانية إلى الشاطئ وهى محملة برؤسهم، وتركوا فى كل سفينة شخصا حيا كى يحكى للأسبان سبب الانتقام. ومنذ ذلك الوقت، فإن المحققين الاسبان تركوا سكان

سنت مالوروشاتهم.

وفى تلك الأثناء أسس اللاجئون الهجنوت مستعمرة على ساحل فلوريدا، فسمع عنها الاسبان فقدموا اليها من سنت دومنجو St. Domingo وأحرقوا المدينة وشنقوا كل رجل وامرأة وطفل وتركوا نقشا يوضح أن هؤلاء المخلوقين المتعساء قتلوا، لا كفرنسيين، ولكن كملحدين (مهرطقين). وقد سمع بهذا العمل التعصبى الكبير لومناك دى جورج أف روشيل Domenque de Gourgues of Rochelle الذى جهز سفينة وأبحر بها إلى هناك، والقى القبض على أفراد الحامية الأسبانية التى تركت تحتل المنطقة، وأعدمهم عند نفس الأشجار، وترك ملحوظة ثانية تقول "أنهم شنقوا هناك ليس لكونهم أسبانيين ولكن لكونهم قتلة".

وأغرت روح المغامرة رجالا من النبلاء، كى يكونوا من ضمن طبقة القراصنة. فكان السير توماس سيمور Sir Thomas Seymour - أخو الوصى، وعم الملك - قائدا للبحرية. وفى أثناء شغله لوظيفته هذه قدمت شكاوى كثيرة من جانب التجار الأجانب أصحاب السفن، الذين تم الاستيلاء على سفنهم وعلى ممتلكاتهم فى مصب نهر التيمس Thames فلم يعوضوا، ولم ترد اليهم ممتلكاتهم، ولم يعاقب أى قرصان. وقد رثى اتباع سيمور بطريقة مريبة، وهم مزينون بحلى أسبانية. واتضح فى النهاية، أن سيمور اشترى لنفسه جزر سيلى، Scilly Isles. وإذا لم يجد طريقه إلى البلاط فإن ذلك سيدفعه الى تنصيب نفسه رئيسا للقراصنة، وقد جلب الاضطهاد الدينى فى عهد مارى Mary متطوعين أكثر احتراما من سيمور. وبمرور الزمن، كبرت الأجيال الشابة فى الاسر الغربية، فلو لم يكونوا بروتستانت لاهوتونيين لكرهوا الطغيان، وكرهوا أن يتزوج فيليب من مارى فهذا يهدد استقلال بريطانيا. فكانوا فى الوطن عاجزين وضعافا، ولكن أبناء الاسر النبيلة - أسرة استرنجويث Strangways، وتريمينس Tremaynes، واستافوردس Staffords وهورسينز Horseys والكاريون Carews - اندفعوا نحو البحار كى ينتقموا لمذبحة سميث فيلد Smithfield ويحثوا عن أقل مساعدة يمكن أن توجد وفى ذلك الوقت كره هنرى الثانى ملك فرنسا الهرطقة، وكان يكره الاسبان أكثر. ولما كان يفضل أن يرى انجلترا وقد امتصتها الملكية الأسبانية، فقد

نسى سياساته التعصبيه. وقد أمد هؤلاء الشباب المتمردين بسفن ونقود، وخطابات مرور. وكان الهجنوت من أصدقائهم الطبيعيين. وباعداد روشيل كترسانة، تمكنوا من السيطرة على مدخل القناة، وعرقلوا المواصلات بين قادش Cadiz والانتويرب Antwerp. وكان هذا من الأعمال العنيفة. وقد أقر الدين، والكراهية للقسوة، القيام بمغامرات وقرصنة. وقد كانت هذه الأفكار مدرسة فريدة في المجال البحري، ومدرسة في بناء السفن التي يمكن أن تبحر في البحر أسرع من كل الأنواع الأخرى، وهي أيضا مدرسة لتدريب الرجال الأقوياء، الذين يجرى في دمهم الكره لمحاكم التفتيش ولرؤساء هذه المحاكم. وعرقلت مراكب القراصنة أى تجارة أخرى، لهذا تم تسليح المراكب التجارية، بحيث كانت مستعدة لأى عمل يطلب منها. وقد كف الأسطول الأيسلندي The Ice Land Fleet عن بحثه عن سمك الكود Cod، وتخلى البحارة في القتال عن الشباك والصنابير، بحيث تولوا أعمالا أكثر حيوية. وانشغلت مارى أيضا بحرق المهرطقين، ولم تهتم بأمن البحار. وقد تلفت سفن والدها الجميلة في الميناء، وهجرت حصونه الساحلية أو أصبحت عديمة النفع. فضلا عن أنها فقدت كاليه Caluis، وفقدت حب شعبها، وذلك بسبب إجبارهم على اتباع المذهب الكاثوليكي، وتخلت عن البحار لسفن القراصنة، ولم تكن هناك حرفة مزدهرة، سوى ما أسمته القوى الكاثوليكية بالقرصنة.

ولما جاءت اليزابيث الى العرش شرع كل الأسطول التجارى لانجلترا، في تجارة شرعية لا تزيد عن ٥٠ ألف طن. والآن تستطيع أن تراها أكثر وهي تمر كل يوم من مجرى الجول Gulstream. وكانت هناك في خدمة التاج سبع سفن حربية جاهزة تبلغ حمولة أكبرها ١٢٠ طن، وكان برفقتها ثمانية سفن صغيرة عدلت لتكون سفن حربية. ولا يزال يوجد في الميناء وفرة من السفن الضخمة، ولكنها كانت تالفة وعديمة النفع، وليس بها مدافع ملائمة للعمل في البحر. وكما قال السير وليام سيسل بأن هذه السفن لا يوجد لها بحارة. ولكن لكى تجهز أى سفن بدون رجال فلا بد من تزويدها بدروع وتشدد بلوتاد على السواحل البحرية. ولكن كان بحارة انجلترا مشغولين بغير ذلك، وبطريقة لم تدخل السرور في قلب سيسل، الذى كان من أقدر الوزراء في وزارة اليزابيث. وفي مرة

من ٣٠ مرة، رأى أن رخاء وحرية انجلترا لا يد وأن يعتمدا على الأسطول في النهاية. ولو أرادت انجلترا أن نظل بروتستنتية فإن ذلك لن يتأتى بمواد دينية أو بقوانين التناسق ولكن يتأتى بأسطول يقف من خلف اجلترا، وكان سيسل يؤمن بالقانون، لأنه كان من الطراز القديم. وقد ترك سيسل وثيقة دقيقة تبين الآراء الخاصة بالموقف. وكانت شركات السفن في عصر هنري الثالث تجمع من السفن الصغيرة، وكانت حركة الاصلاح الديني قد دمرت حرفة الصيد. وأضاف سيسل أن اللحم كان لا يؤكل في الأيام التي يؤكل فيها السمك فيما مضى. ولم يستطيع الملك نفسه منح تصاريح يكسر بها القانون الخاص بذلك، وكان أكل لحم البقر أو الضأن في الأيام التي يؤكل فيها السمك انما هو اختبار للمؤمن الصادق. وكانت مصايد الأسماك الانجليزية في أيسلندا تزود نورماندى وبريتاني إضافة الى انجلترا. والآن وصلت هذه الأسماك الى الفرنسيين. واعتاد رجال تشيفر أن يصطادوا في البحار الايرلندية، ولكن في ذلك الوقت تركوها (أي البحار) الى الاسكتلنديين. وفي تلك الأثناء ترك الصيادون مهنة الصيد، واتجهوا الى القرصنة، لأن الصيام الذي أوجبه الكنيسة قد أهمل، فرأى أن ذلك حقيقة، وقد دون سيسل رأيه الذي جاء فيه أن القرصنة وكما سماها كانت شيئا مكروها ولا يمكن أن يستمر.

ولكن وجد أنه من الممكن أن تلوم فيما بعد، وأنها يمكن أن تشكل نظاما خاصا للجيل الذي تكون مهمته محاربة الأسبان، وناضل سيسل بصلابة ضد الاستنتاج غير المقبول، وحاول أن ينشط التجارة الشرعية عن طريق قانون الملاحة، وحاول أيضا أن يستعيد مصايد الأسماك بواسطة قانون يصدر من البرلمان. وقدم مشروع قانون يقضى بالتقشف الديني كوسيلة للفضيلة، فقضى هذا القانون بأن أكل اللحم في أيام الجمع والسبت مخالفة، بالإضافة الى أنه خصص نصف يوم الأربعاء لكل السمك، ونتيجة ذلك ضحك مجلس العموم The House of Commons عليه، لأنه أحيا بذلك الممارسات الكاثوليكية، ولكي يرضى البروتستانت أدخل فقرة جديدة، كان مفادها أن القانون كان سياسيا وقصد به زيادة الصيادين والبحارة، ولم يقصد به أي خرافة خاصة باختيار اللحوم. وسمى هذا القانون بطريقة ساخرة "صيام سيسل"، ولابد وأن تنتظر مصايد

الأسماك بعد استعادتها حتى تنتعش الرغبة الطبيعية للبطن الانسانية من نفسها،
لأسماك الكود Cod والى أسماك البياض.

وأضاف سيسل فى قوله، ينبغى أن تأخذ الاحداث مجراها وينبغى أيضا أن
يجهز البحارة بوسائل أخرى مناسبة، وبحسب متطلبات الزمن وكانت القرصنة قد لامعت
اليزابيث وميولها، فهي تحب الجسارة والمغامرة، وتحب رجالا يؤدون لها أعمالا دون
مقابل، وتحب أيضا رجالا يمكن أن تتنكر اليهم عند الضرورة، رجالا يفهمونها ولا
يمتعضون من ذلك. وكانت اليزابيث على دراية بأن دورها سيأتى عندما يفرغ فيليب
ليتعامل معها اذا لم تستطع أن تؤمن نفسها أثناء ذلك. وكانت فى حاجة إلى الوقت كى
يستعيد الأسطول قوته.

وكان القراصنة مصدرا لمساعدتها فى تلك الفترة. ومن الممكن أن يسموا
بقراصنة عندما يوجد هناك سلام شكلى، ولم يكن هذا الاسم ذا أهمية. فكان القراصنة
يمثلون القوة المسلحة الحقيقية للوطن. وبعد نشوب الحرب فى الأراضى المنخفضة كان
لديهم السلطات من أمير الأورانج.

وهكذا، فإن هذه السلطات سوف لا تنتقم اذا استولت أسبانيا على الأراضى
المنخفضة، ولكن هذه السلطات مكنتهم من بيع غنائمهم، وفيما عدا ذلك، فقد اعتمدوا
على سرعتهم وبنادقهم لتحقيق ما يريدون. وعندما كانت اليزابيث فى حرب مع فرنسا
حول هافر Havre ضمت اليها غالبية القراصنة المشهورين، وذلك لخدمة التاج. وكان
منهم ند هورسى Ned Horsey الذى أصبح السير انوارد Sir Edward، والذى
أصبح حاكما لجزيرة هويت Isle White، ومنهم أيضا سترانج ويز Strangeways
الذى أطلق عليه القرصان الأحمر A red Roven، الذى كان مصدر فزع للأسبان، وقد
قتل أمام رويين Rouen، كما قتل تريمين Tremayne عند هافر، ونعتة اليزابيث وقتل
أيضا تشامبرنون - الذى كان واحدا من أعظم الجميع شجاعة فى ضاحية كولجنى فى
مون كونتور Mon Contour، وبعدئذ حل محل هؤلاء القراصنة القتل قراصنة آخرون.
وكان هؤلاء لقراصنة الشرسون كثيرين فى عددهم مثل الطيور البحرية التى تتألق فوق
الأمواج، وفى وسط الرياح الخفيفة أو العنيفة، وكانوا يضحكون أثناء المطاردة وهم فى

حالة شجاعة واستنهاز، فهم يهتلون خليطا غربيا من البحارة. فكان القراصنة الانجليز يأتون من خليجان ديفنشير Devonshire ومن كورنيش، وكان الهجنوت يأتون من روشيل Rochelle، وكان الجنود الايرلنديون - بخصلات شعرهم الطويلة - جنودا أقوياء وعنيدون وليس عندهم رحمة.

وكانت محاكم التفتيش تواصل عملها دون مبالاة، بل ويتصميم همجي. وكانت هذه المحاكم التي بدأت أعمالها هي التي تسببت في ذلك. وتقول ملحوظة كتبت بيد سيسل أنه في سنة واحدة هي سنة ١٥٦٢م، أحرق ٢٦ شخصا من الرعايا الانجليز على أوتاد في أجزاء مختلفة من أسبانيا. وفي عشرات المرات كان الكثير من هؤلاء المساجين يتضورون جوعا في السجون الأسبانية، وأحيانا كانت تنبعث صرخة تتبعها صرخات أخرى نتيجة حادث سعيد.

وفي عام ١٥٦١م، كتب تاجر انجليزى من الكناريز Canaries يقول: "أخذت بواسطة محاكم التفتيش الأسبانية، وبعد مرور عشرين شهرا وضعت في منزل صغير مظلم ومملق بالسلاسل الحديدية، دون رؤية الشمس أو القمر طوال هذه المدة. وكنت قد اتهمت بأننى قلت بأن قداسنا (أى قداس انجلترا) جيد مثل قداسهم (أى الأسبان)، واتهمت أيضا بأننى قلت اننى أفضل أن أعطى النقود للفقير ولا اشتري بها ثيران من روما. كما اتهمت لكونى من رعايا الملكة التى هي، وكما قالوا لى عدوة للعقيدة، وضد المسيح، اضافة إلى أنهم لصقوا بها أسماء حقيرة. ووقفت موقف المدافع عن صاحبة الجلالة مبرهنا على أن ما ألصقوه بها من سباب غير حقيقى. وعندئذ، وضعت فى سجن صغير مرة ثانية، محتجا على أن الدم البرىء يطالب به أمام قاضى ضد المسيح. ولم ينتظر الدم البرىء لهؤلاء الضحايا الفقراء لينتقم له يوم الحساب Jadjment بل قدم الحساب بعد وقت قصير، وفي الحال بفوهة المدفع.

الفصل الثاني

جون هوكنز وتجارة الرقيق

أبدأ هذه المحاضرة بالتماس موجه إلى الملكة اليزابيث، جاء فيه: "سمع توماس سيلي Thomas Seely - وهو تاجر من بريستول Bristol - أسباني في أحد الموانئ الأسبانية يتفوه بتهم بذيئة على شخص الملكة فركله. لذا كان من الممكن أن ينقضى هذا السلام، ولكن مع ذلك، فإنه لم يعتبر هرطقة بعد. وعندئذ أقت محكمة التفتيش القبض على سيلي، وزجت به في السجن، وتركته يتضور جوعاً لمدة ثلاث سنوات، وفي نهايتها وجد وسيلة تمكن بواسطتها من أن تعرف انجلترا ظروفه. وكتبت الملكة بنفسها احتجاجاً إلى فيليب، ولكنه مع ذلك لم يتدخل. وظل سيلي في السجن مقيداً بالسلاسل. وكان من نتيجة ذلك أن قدمت زوجته التماساً، كان من الممكن أن يقرأ فيه حدة الانفعال، وكان هذا الالتماس كالرسائل التي تتأجج ناراً.

وقد طلبت دورثي سيلي Dorothy Seely (أى زوجة سيلي) في ملتمسها هذا أنه عندما يسجن رعايا صاحبة الجلالة (اليزابيث) ويعذبون في أسبانيا، فإنه يكون من الواجب في هذه الحالة على أصدقائهم، الاستيلاء على السفن الأسبانية، بتهم مناسبة أو ملائمة. كما يقومون بالقضاء على الكاثوليك من رعايا ملك أسبانيا، سواء أكان ذلك في البر أم في البحر بحيث يحتجزونهم في السجون ويعرضونهم للعذاب والجوع، مثلما يتعرض له رعايا جلالة الملكة في أسبانيا. ويجب أيضاً أنه إذا تقدم الملك الأسباني بشكوى فإنه يتلقى نفس الإجابة التي كان يرد بها على شكوى الملكة الخاصة برعايا الذين كانوا يتعرضون للسجن من قبل محاكم التفتيش. وطلبت دورثي في التماسها هذا من الملكة أن تمنح كلاماً من رئيس كانتربري Canterbury، والاساقفة الآخرين التفويض في معاملة الكاثوليك بنفس الطريقة التي يعامل بها البروتستانت من قبل محاكم التفتيش في أسبانيا. لذا فمن الممكن للجميع أن يدركوا أن صاحبة الجلالة لا يمكن أن تتحمل أكثر من ذلك. فقد تعرض رعاياها للعذاب والخسائر، ومن الواجب ألا يخطر ببال الأسبان بأن هذه الملكة النبيلة لن تجرؤ على الانتقام لهذه المظالم غير المحتملة،

ومن الواجب أيضا الا يعتقد الأسبان بأن هذه الملكة سوف لا تنتقم لهذه المظالم غير المحتملة.

ولكن مع ذلك فلم تصدر صاحبة الجلالة تفويضا، على حسب ما طلبت دورثي، بل تركت رعاياها يبحثون عن الانتقام بوسائلهم الخاصة - وقد سعى رعاياها أحيانا الى ذلك بتهور.

ففى صيف عام ١٥٦٣م، رسى ثمان سفن انجليزية تجارية، عند جبل طارق - فى ذلك الوقت كانت انجلترا وفرنسا فى حرب - ومن بعدهم دخلت مركب شراعى فرنسى بساريتين، واقتربت منها (أى من السفن البريطانية) ولو كان فى امكان السفن البريطانية هذه الاستيلاء عليها (أى على السفينة الفرنسية) فان ذلك كان يعتبر غنيمة شرعية، لأن الأسبان كانوا لا يحترمون حياد الموانئ الانجليزية فى مثل تلك الظروف. وكان الانجليز يشكون فيما يجب أن يعملوه، بعد أن أوقفت محاكم التفتيش السفينة الفرنسية هذه. وعندما شاهد التجار الانجليز ما ألّفوه من تصرفات الأسبان المشينة استشاطوا غضبا، واندفع ثلاثة منهم (أى من الانجليز) الى السفينة الفرنسية قاصدين اغراقها. عندئذ قفز المحققون الى قاربهم وابتعدوا خوفا على حياتهم. وقد فتحت مدافع القلعة (الاسبانية) نيرانها، وخرج حرس الميناء (الاسبانى) كى يتدخل. وكان من الممكن للانجليز أن يستولوا على السفينة الفرنسية، الا أنه لسوء الحظ قدم الفاريز دى باكون Alvarez de Bacon الى داخل المضيق، وبرفقته فصيلة أسبانية. عندئذ، كانت المقاومة من جانب السفن الانجليزية مستحيلة، لذا تم أسر الثمانى سفن الانجليزية هذه بواسطة الأسبان، واقتيدت الى قادش. وقام باكون بجذب العلم البريطانى بمؤخرة سفينته. ووضع أطقم السفن الذين بلغ عددهم ٢٤٠ بحارا (بريطانيا) على متن سفن أسبانية شراعية كبيرة، ذات مجاديف. ولم يستطيعوا فى دفاعهم، الا القول بأن الفرنسى كان عدوا، وكان من الممكن أن يعاقب، ولكن يجب أن يكون هذا العقاب عقابا معتدلا، بسبب خرق قواعد الميناء، التى لم يأت بها الأسبان أنفسهم الا قليلا. وكانت محاكم التفتيش لا تعرف الرحمة فكانت تعامل الرجال بوحشية غريبة. فبعد تسعة شهور بقى على قيد الحياة تسعون شخصا من الأسرى الذين كان عددهم مائتين

وأربعين شخصا.

اصغى الى هذا، فقد رد على الوحشية بوحشية أخرى، ولقد كان سكان قلعة كويها مس أف كولنج The cobhams of couling ينحدرون من السلالة البروتستانتية. وكان اللورد كويها Lord Thoms cobham المشهور فى تاريخ شهداء لولارد Lollard .. مثل الكثير من أصدقائه - من أسرة ركبت البحر. ففى أثناء تجواله فى القتال وقع بصره على أسباني كان فى طريقه من أنتويرب Antwerp الى قادش Cadiz، وكان على ظهر سفينته أربعون سجيناً كان من المفروض أن يرسلوا الى محكمة التفتيش وكانوا بالطبع من المساجين الذين يحقق معهم، فضلا عن مجرمين آخرين، سوف يحقق معهم فى الحال أيضا، ولكن كويها تعقب هذه السفينة فى خليج بسكاي The Bay of Biscay واستولى عليها، وغرقها وأنقذ الأسرى. ولكن لم يكن ذلك كافيا، بل خلط الكابتن والطاقم فى شرايعهم، وقذفهم من على ظهر المركب فأنجرفوا مع التيار الى الشاطئ، وهم موتى ملفوفون فى كفنهم غير العادى.

وقد استدعى كويها ليعمل أسباب هذا العمل، ولكن فى الواقع يبدو أنه لم يعاقب. وبعد فترة قصيرة عاد مرة ثانية الى مكان العمل القديم. وكان معه هذه المرة وفرة فى العدد، وبعد عملية جبل طارق، لم يصبح رعايا فيليب يلقون الأمان فى الموانئ الانجليزية فى هذا الوقت. فقد طارد جاكس لكرك Leclerc - القرصان المشهور باسم بى دى بالو Pie de palo بسبب رجله الخشبية - سفينة أسبانية الى فالموث Falmouth. وهناك سمح له بالاستيلاء عليها تحت تهديد مدافع حصن بندس pendennis. وقال حاكم الحصن، أنه لم يستطيع التدخل لأن لوكرك كان لديه تفويضاً من أمير كوندى The Prince of Conde ، وذلك بأسر السفن الأسبانية. وفى صيف عام ١٥٦٣ م تجول فى القناة أربعمائة انجليزى، وعدد آخر من القراصنة الهجنوث، الذين قاموا بتوزيع ٧٠٠ غنيمة فيما بينهم. وكانت السفن الخاصة بالملكة تمارس نفس العمل. وكان الكابتن كوتون Captain Cotton، قد أسر فى فلشنج Flushing بسفينة الفيونكس، سفينة من أنتويرب، فاحتج مدير الميناء على ذلك. ولكن ضحك كوتون، وأبحر بغنيمة. وفى هذا الصدد كتبت مارجريت Regent Margaret نائبة الحاكم بغضب الى

اليزابيث تقول، ان مثل هذه الوقاحة لا يمكن أن تحدث، وأنها ستجعل الكابتن كوتون يتعرض للعقاب حتى يكون عبرة لكل الآخرين. ولكن اليزابيث قدرت الموقف بدقة أكثر من مارجريت. وفضلت أن تبين لفيليب أنها ليست خائفة منه، كما فضلت أيضا أن تدع رعاياها يكتشفون بأنفسهم بأن الأسباني المرعب، الذي يرتجف العالم أمامه، ما هو الا تمثال كبير الحجم محشو بالخرق. لهذا سمحت اليزابيث باطلاق ايدي رعاياها من القراصنة حتى يقيد فيليب محاكم التفتيش.

ومن حين لآخر، وفي حالة ما تستدعي الظروف، فان اليزابيث نفسها، كانت تسمح بممارسة القليل من أعمال القرصنة لحسابها. ففي القصة التالية، التي ينبغي على أن أقصها، تظهر فيها اليزابيث كرئيس، ويظهر وزيرها العظيم سيسل كشرريك. كان دوق الفا Duke of Alva قد خلف مارجريت كنائب للأراضي المنخفضة، وأغرق الهرطقة في دمانها. وكان أمير الأورانج Prince of Orange يخوض ضده معركة نبيلة، ولكن الأمور انعكست عليه، فانهزمت قواته (بمعنى أن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن) وقتل أخوه لويس Louis، عندما كان لا يزال يناضل بمساعدة نقود اليزابيث. وفي تلك الأثناء، كان الشجار Odds مزعجا بالنسبة لأمير الأورانج، وكان الأمل الوحيد أمامه هو استياء جنود الفا، الذين لم تدفع لهم أجورهم، فقد لا يحاربون بدونها. وفي نفس الوقت لم تكن الناحية المالية لفيليب مزدهرة لهذا اقترض (فيليب) نصف مليون من الدوكات من بيت تجارى فى جنوا من أجل أن يستخدمه الفا. وكان من المفروض أن تسلم النقود على هيئة سبائك فى انتويرب. وكان قراصنة القنال قد سمعوا بأن النقود فى الطريق فقاموا بمراقبتها والبحث عنها. واتخذت السفينة التى ارسلت بالنقود مأوى لها فى بليموث، ولكنها وجدت نفسها فى وكر للعدو. فقامت تسع عشر أو عشرين من سفن الهجنوث والسفن الحربية الانجليزية بمحاصرة هذه السفينة. وكان لدى هذه السفن - التى قامت بالمحاصرة - تفويض، من كوندى Conde بالاستيلاء على كل سفينة كاثوليكية يلتقون بها. وفكر أصدقاء اليزابيث المقربين لها، وقالوا صراحة يجب الا تؤول أية غنيمة ثمينة لأحد غير صاحبة الجلالة وفى الوقت نفسه، كانت اليزابيث تفكر فى نفس الشيء ولكن لسبب أكثر أهمية من هذا، هو أنه من المهم جدا ألا تصل

النقود الى دوق الفا، حتى أن سيسل Cecil قال ذلك، وأرسل الى أمير الأورانج يخبره بأن النقود سوف تمنع من الوصول الى الفا بأية طريقة.

ولكن كيف يستطيع عمل ذلك بطريقة سهلة؟ فبسبب هذا الموضوع كان القلق قد أصاب الملكة ولكن الأسقف جويل Jewel تمكن من اراحته نفسيا وبخاصة من الناحية الأخلاقية، فرأى الأسقف انه من الجدير بالاهتمام وبدرجة عالية، اعتراض هذه النقود التي تستخدم في اغتيال المسيحيين البروتستانت، ولكن كيف؟ فهذه هي المشكلة.

وأضاف في قوله انه اذا ترك القراصنة يتولون ذلك علنا في ميناء بليموث Plymouth، فسيكون ذلك فضيحة كبيرة، ولكن لما رأى السير آرثر تشامبرنون Sir Arther Champernowne - نائب الأدميرال البحرى فى الغرب - هذه المشكلة استعد لتقديم خدماته، فكان آرثر هذا يملك ثلاث سفن حربية تعمل جميعها ضمن أسطول قراصنة كوندى، الذى كان ابنه هنرى يقودها، ولما كان آرثر نائبا للأدميرال البحرى، فقد كان هو نفسه القائد الأعلى فى بليموث. وكانت السفينة التى تحمل السبائك، قد وضع على ظهرها حارس، وكان آرثر قد أخبر بأن هذه السفينة التى تحمل السبائك لو تعرضت لضرر فى المياه الانجليزية فأن ذلك سيكون فضيحة لحكومة الملكة. لهذا كتب آرثر، الى سيسل يقول: "اذا كان يبدو مناسباً لحضرتكم أن أقوم أنا مع الآخرين بالمحاولة، من أجل فائدة صاحبة الجلالة، التى لا يمكن أن تتم، بدون اراقة دماء، فأنا لن أتولى العملية فحسب، بل اننى مستعد أيضا أن أتحمل أى لوم ينجم عن ذلك بحيث تكون النتيجة المرجوة لهذا هى أن تؤل ملكية هذه السبائك الى صاحبة الجلالة، أملا أن أجد منها رعاية طيبة، علما باننى على استعداد تام لأن أتعرض لأية مخاطر من أجلها، وبخاصة أنها كانت قد سخطت سخطا مريرا وذلك لعدم اظهار الحقيقة على ما هى عليه، ويكون من المؤسف جدا عدم وصول هذه الغنيمة القيمة لجلالته، وأؤمن بكل تأكيد بأن أى شئ يؤخذ من الأمة الشريرة، يكون فى جملة ضروريا، ومفيدا لحكومتنا، وللبلاد التى تحت التاج البريطانى. واعتقد الكثير من الناس الطيبين، بأن كتابة مثل هذا الخطاب من جانب آرثر يمثل صدمة عنيفة لهم. وأمل فى أن يشعر هؤلاء الناس كذلك بصدمة لا تقل عن الصدمة التى يحدثها احراق الملك فيليب للبحارة الانجليز على

خوازيق، لكونهم مخلصين الى قوانين بلدهم. وأن فيليب كان يشعل نيران الحرب فى كل أوربا، كى يرضى البابا، ويدفع بذلك مبادئ مجلس ترنت The Council of Trent الى داخل حلق الجنس البشرى على أسنة السيوف The Sowrds Point وكان من المحتمل أن يسود السلام بين أسبانيا وانجلترا، مع أن الكاثوليكية والبروتستنتية كانتا فى حرب مميتة. ومن المعروف أن الحرب تعرقل التزامات الحياة العادية. ففى أثناء الحرب يعتبر ارتكاب أفظع الجرائم فضائل، وذلك دفاعا عن العقيدة الكاثوليكية. ولم يستطع الكاثوليك أن يستفيدوا من مثل هذا التساهل بدون متاعب، فكانت قضية البروتستانت فى أنحاء أوربا تتمثل فى أنهم كانوا يهاجمون بوحشية فظيعة، فلم يكن فى استطاعتهم الاعتدال، فى الوسائل التى يستخدمونها للدفاع عن أنفسهم. ولم يستدعى السير آرثر تشامبرنون كى يضخى بنفسه بهذا الأسلوب الغريب. وكانت قد وجدت طريقة مناسبة للحصول على نقود Alva's Money، تمثلت فى إنزال السبائك إلى البر، ثم إحضرت إلى لندن عن طريق البر أيضا، بحجة أن البحار كانت غير آمنة، ونقلت هذه السبائك إلى القلعة، ولما أصبحت فى داخل حوائطها، وجدت لتبقى ملكيتها للجنوبيين Genoese، حتى تسلم فى انتويرب.

وكان ممثل الجنوبيين فى لندن، على استعداد لأن يقرضها (السبائك) الى اليزابيث، كما كان على استعداد أيضا لأن يقرضها الى فيليب، وفى واقع الأمر فضل ممثل الجنوبيين هذا الجانب الذى يوفر له الضمان. وقالت اليزابيث بهدوء أن لديها نفسها سبب ملائم لاقتراضها هذه النقود، ولذا قبلت هذا العرض. وبعد ذلك أرسلت نصف هذه النقود إلى أمير الأورانج وأرسلت النصف الآخر الى أسطول الملكة.

وقد استشاط الفا غضبا. فقبض على كل سفينة انجليزية فى الأرض المنخفضة واعتقل أى انجليزى استطاع أن يمسك به، وصادر كل أملاك الانجليز. وتقاتلت اليزابيث ذلك بالمثل، فقد استولت على الأملاك الأسبانية والفلمنكية الموجودة فى انجلترا، وثبت أنها تساوى ضعف ما استولى عليه الفا. ولم يستطع فيليب اعلان الحرب، فقد أدى خروج الأراضي المنخفضة منه، الى ضعف موارده المالية. وبما أن اليزابيث كانت عدوا مباشرا لفيليب فان ثقل انجلترا كان من الممكن أن يبقى إلى جانب

أمير الأورانج. وكان الناس (في إنجلترا) يقولون ينبغي على اليزابيث نفسها أن تعلن الحرب، بدلا من النزول الى مثل هذا الخداع، فربما يكون ذلك، وربما لا يكون. وقد هزت هذه الالهانات - التي بقيت راسخة دون استياء - ثقة الانسانية، وبصفة خاصة البحارة الانجليز، في المارد الاسباني الذي لا يقهر.

والان أعود الى الجانب الآخر من الموضوع. فالقصص التي أخبرتكم بها تظهر مزاج العصر، والمناخ الذي كان الناس يتنفسونه، ولكنه من المفيد أن ننظر بدقة أكثر الى كل شخص على حدة فسأتناول في البداية جون هوكنز John Howkins (الذي عرف بعد ذلك بالسير جون) والذي عرف بشخصيته المتميزة.

وكانت أسرة هوكنز أسرة راسخة من الطبقة الوسطى، التي كانت تقيم في ديفونشير، Devonshire. فلمدة جيلين، هيمنت هذه الاسرة على تجارة المدينة ولايزال أفرادها يعيشون في مقاطعة أشينز Achins فلماذا اعتدنا أن نناديهم بهذا الاسم، قبل أن نتعلم النطق في المدرسة. وهكذا فقد وضع فيليب اسم جون في ذهنه عندما بدأ الأخير يقلق أحلامه. وقد تكلمت من قبل عن وليام هوكنز العجوز Old William Howkins والد جون هوكنز الذي كان هنري الثامن مغرما به، فقد استمال وليام هوكنز هذا "الملك البرازيلي، وقد تقاعد وليام المسن الآن، وترك مكانه وعمله إلى ابنه. ومن المحتمل أن جون هوكنز كان يبلغ من العمر ٣٠ عاما، عندما تولت اليزابيث العرش. فقد شاهد جون هوكنز هذا فترات حكم كل من إدوارد السادس، وماري اللذين تميزا عصرهما بالعنف. وكان جون هوكنز قد أخذ الكثير من أصدقائه الى أعمال القرصنة ويبدو أنه قد ابتعد عن أعمال القرصنة هذه، والتزم بالتجارة. وكان توماس ستكلي Thomas Stukely واحدا من أصدقاء جون هوكنز، ومعاصريه. وفي الحقيقة كان من أقربائه. ولكن بعد ذلك أصبح توماس ستكلي سىء السمعة. ومن الممكن أن يقال كلمة عن حياة توماس ستكلي التي كانت على النقيض من حياة جون هوكنز. كان ستكلي هذا ولدا شابا من الأسر المتميزة في المقاطعة، وكان قد ذهب إلى لندن كي يسعى من أجل مستقبله، وهناك أصبح ملازما للسير توماس سيمور Sir Thomas Seymour وبدون شك، فان توماس ستكلي كان على صلة بمشروع قرصنة سيمور في سيسلى

Scilly، فالتحق توماس ستكلي هذا بالقرصنة كمهنة مثل غيره من النبلاء الغربيين. وعندما أصبحت اليزابيث ملكة، قدم نفسه اليها فى البلاط الملكى، واستهواها غروره. وقد رغب أن يكون ملكا وليس بأقل من ملك. وقال انه سيذهب الى فلوريدا ويؤسس هناك امبراطورية ويكتب الى الملكة كأخت له.

وأخيرا أعطته الملكة أذنا ليقوم بمحاولته تلك، فاشتري توماس ستكلي سفينة بلغت حمولتها ٤٠٠ طن، وحصل على مائة جندي من الطوال القادمة لينضموا اليه، الى جانب طاقم سفينته. وفى عام ١٥٦٣م، أبحر من بليموث. وفى لحظة خروجه من الميناء، أعلن أن البحر سيكون ملكه الخاص مع فلوريدا، وفى تلك الأثناء، عاد الى ممارسة أعمال القرصنة، فسلب بحرية، مما أدى إلى ازعاج الخجان الايرلندية، وأقام صداقة مع بطل الأولستر The Ulster المدعو شان أونيل Shan Oneil. وأصبح كل من شان أونيل، وستكلي صديقين حميمين. وكتب شان أونيل الى اليزابيث يوصى بأنه ينبغي أن تتخلى عن ايرلندا الى ستكلي واليه نفسه، ليديرها معا، ووعد بأنه فى حالة موافقتها، فانهما سيجعلان من ايرلندا بلدا لم يشاهد لها مثيل من قبل، ومن الممكن أن يفعل ذلك. ولكن اليزابيث لم توافق فارتد توماس ستكلي الى الكاثوليكية ونقل خدماته الى البابا وفيليب، وبتوجيه من البابا أعد ستكلي حملة فى ايرلندا، ولما أغرى بالانضمام الى البعثة الافريقية، التى كانت تحت قيادة سبستيان البرتغالى، لقي حتفه هناك.

وبينما كان ستكلي نفسه من النوع الأحق من الرجال الشباب الذين يقطنون فى ديفومشير Devonshire، نجد أن جون هوكنز كان على النقيض منه تمام. فقد التصق جون هوكنز بالأعمال (التجارية)، وتجنب السياسات، فتاجر مع الموانئ الأسبانية، دون أن يسيء الى محاكم التفتيش، وكون صداقات، وبصفة خاصة مع جزر الكنارى، حيث يقال انه نسي حبه ورعايته مع السكان.

وفى جزر الكنارى هذه سمع بطبيعة الحال الكثير عن جزر الهند الغربية وكان هو بطبيعته مغامرا، وأخبره أصدقاؤه فى الكنارى، بأن الزنوج يمثلون سلعة عظيمة فى المستعمرات الأسبانية، وبصفة خاصة فى اسبانولا. وكان (جون هوكنز) على علم تام بساحل غينيا، وعرف الكيفية التى يمكن بها الحصول على شحنة من العبيد بسهولة.

ونحن نعلم إلى أى مدى تطورت تجارة العبيد. وتعلمنا أن نأسف على مشاركة انجلترا فى هذه التجارة، وأن نمقت كل شخص ثلوث يداه، عن طريق الاتصال بهذه التجارة الملعونة. ومن الممكن أن يؤخذ كل هذا على سبيل أنها قضية مسلم بها. ويجب أن ننظر الى هذا الأمر، كما لو كان يمثل فى الكتارى جون هوكنز نفسه.

وكانت أجناس الكاريبى الذين وجدهم الاسبان فى كوبا وسنت دومنجو St. Domingo قد تلاشوا أمامهم، كما لو كانوا قد أصابتهم كارثة، فمات الكثير منهم تحت وطأة سياط المشرفين الاسبان Over Seers، ومات الكثير أيضا وربما الغالبية العظمى منهم بأسباب غامضة، جعلت وجود المدينة مميتة بالنسبة للهندي الأحمر، وللسترالى وللماورى Maori أحد السكان الأصليين فى نيوزيلنده، فقد عومل الناس معاملة الحيوانات. وأما الأجناس التى وافقت أن تستأنس، تكاثرت وازدهرت. بينما الأجناس الأخرى التى لم تستطع أن تعيش بدون حرية، ذبلت كالنسر فى الأقفاص، أو اختفت كجاموس البرارى.

وعلى أية حال، فإن الوطنيين أبيدوا من جزر البحر الكاريبى، بسرعة أذهلت الغازين أنفسهم، وقد أشفق لاساكاساس Lass Casas المشهور، الذى حاول أن ينقذ البقية التى بقيت. عندئذ طلب المستوطنون الاسبان عمالا Labourers للمزارع. وفى قارة أفريقيا كان يوجد سلالة أخرى متبربرة، بحالتها الطبيعية التى كان من الممكن أن تستأنس أفرادها مثل الأغنام والثيران والتى كان فى الامكان أن تتعلم وتحسن بمباشرة الرجل الأبيض، ومع ذلك فلم ينهض الزنجى أبدا من بربريته، مثل أباؤه، لذا ظل على حالته من عصر لآخر. وعندما ترك حرا - كما حدث فى ليبيريا وفى هايتى - ارتد الى بربريته الأصلية، بينما عندما أخضع للرجل الأبيض، أظهر كما أظهر منذ ذلك الوقت، قدرات عالية فى الفكر والشخصية. تلك هى الحقيقة فى الحاضر والماضى، وقد تبادر الى ذهن لاس كاساس أنه اذا كان من الممكن ادخال الزنوج الى جزر الهند الغربية، فمن الممكن فى هذه الحالة أن يترك الهنود لحالهم. ومن الممكن أن يجد الزنوج فرصة ليخرجوا من بؤسهم، ويمكن لهم فى هذه الحالة أن يتحولوا الى نصارى، ومن الممكن أيضا أن ينقلوا على أسوأ تقدير من القدر المروع، الذى انتظر الكثير منهم فى

وطنهم (الأصلى).

وتنوعت السلالات السوداء، مثل الحيوانات الأخرى. فكان بعضها لطيفا وخجولا، وبعضها الآخر مؤذيا كالذئب. وقد استبد القوي منها بالضعيف. وجعل من سجنائها عبيدا، وأحيانا كانوا يأكلونهم. وأما هؤلاء الذين لا يأكلونهم، فكانوا يضحون بهم كعادتهم، أى كانوا يقدمونهم قرايين على مذابح أصدانهم بعد ذبحهم. وفى الغالب كانت هذه العادة تقاليد مقدسة، عند السلالة الزنجية. وقد أوقفت هذه التقاليد. وفى الوقت نفسه، أعطت تجارة الرقيق قيمة للسجناء. فقد انتعشوا عندما ألغيت هذه التجارة. وعندما دخل اللورد وولسلى Lord Wolseley، إقليم الاشانتى Ashantee قبل ذلك بعدة سنوات كان قد وجد هذه المذابح مغطاة بطبقة سميكة من دم مئات الأجناس البشرية البائسة، الذين كانوا قد ذبحوا حديثا هناك. وفيما بعد نقلت مشاهد مشابهة ومروعة من داهومى. فكان ريتشارد بيرتون Richard Burton الذى كان من معارفى القدامى قد مضى شهرين مع ملك داهومى، وأسهب لى فى عطف ووعى ذلك الملك الممتاز. وتسألت اذا كان هذا الملك عطوفا حقا، فلماذا لم يغير تلك العادات. فنظر الى بيرتون فى دهشة، وقال "يغير العادات"، وتسأل بيرتون بالقول: هل تتوقع من رئيس اساقفة كاتدربرى أن يغير الطقوس؟ عندئذ يجب الا يهتم لاسا كاساس، هؤلاء الذين كانوا على رأيه، باللائسانيين المشينين، اذا هم اقترحوا أن يشتروا هؤلاء المخلوقات البائسة، من أسريهم، وينقذوهم من الممبوجمبو Mumbo Jumbo، وينقلوهم الى البلاد، حيث يصبحون ملكية لها قيمتها، وعلى الأقل يهتم بهم جيدا، مثل الاهتمام بالبغال والخيول.

وبدأت التجربة، وبدا لها النجاح. وكان الزنوج الذين أنقذوا من التقاليد، ونقلوا الى الجزر الاسبانية، ثبت انهم قابلون للتعليم، وأنهم مفيدون. وقد أسست المحطات التجارية البرتغالية والاسبانية على ساحل غينيا. وكان الرؤساء السود مسرورين بسبب حصولهم، على كسب من ضحاياهم التمساء، وكانوا على استعداد لبيعهم. وأصبح النقل فى الاطلنطى يمثل فرعا منتظما من فروع التجارة. ووضعت القوانين الصارمة من أجل المعاملة الحسنة للعبيد الذين يعملون فى المزارع. وكانت هذه التجارة تنقل

بترخيص من الحكومة، وقدرت قيمة الرسوم الجمركية على التجارة الواردة بـ ٣٠ دوقية Ducats للرأس الزنجية الواحدة التى تنزل الى البر. وقد سُمى ذلك بتجربة. وكان لا يمكن التنبأ بالنتائج الإجمالية. ولم أستطع أن أرى أنها تجربة تستحق اللوم. ولكن فى النهاية أصبحت تستحق اللوم فى تطوراتها الأخيرة. وكان لاسا كاساس الذى وافق عليها واحدا من أعظم الرجال الممتازين. ولكن اسقفنا بتلر Buttler، لم يستطع أن يعطى رأياً محدداً ضد استرقاق الزنوج، عندما وجد هذا الاسترقاق فى عصره وأنه لمن المضحك أن نقول أن التجار العاديين، وقباطنة السفن كان ينبغى عليهم أن يروا هذا العمل المشين، الذى أشار به لاسا كاساس، ومع ذلك لم يستطع بتلر Buttler أن يشجبه. وطالبت كل من الحكومة الاسبانية والبرتغالية بالسيطرة على هذه التجارة (أى تجارة العبيد) واعترض المستوطنون الأسبان فى جزر الهند الغربية على أى قيد، يرفع السعر، أو يحد من الامدادات. واعتبروا أنهم ماداموا قد استقروا فى وطن جديد، فلهم الحق فى أن يدلوا بصوتهم فى شئون الاراضى التى يمتلكونها. وهكذا، فقد قدم الاسبان فى الكتارى المسألة الى جون هوكنز. وأخبروه انه اذا رغب فى القيام بمغامرة تهريب شحنة من غينيا فان رجالهم سيرحبون به ترحيبا حارا، وأنه لمن الواضح من القصة أنه لا هو ولا هم يتوقعون أن يؤخذ ذلك كمخالفة خطيرة فى مدريد. وفى هذا الوقت، كان هوكنز على علاقة طيبة تماما بالأسبان. وكان هذا يكفى، اذا اطمأن بأن المستعمرين سيسرون بالتعامل معه. فانا أقول أنه ليس لديه أغراض لاسا كاساس الخيرة، وفى نفس الوقت لم افترض أن هوكنز فكر كثيرا فى انتقاد أرواح الرجال السود.

ولكنه رأى فقط الفرصة فى توسيع تجارته، بين الناس الذين كان على علاقة كبيرة معهم من قبل، وأسست التجارة ونالت موافقة الكنيسة بحيث لم يوجه اليها أى اعتراض من الناحية الاخلاقية فى أى مكان. وكان الموضوع الوحيد الذى فرض نفسه على هوكنز، هو حق حكومة أسبانيا فى منع الأجانب من الحصول على حصة من هذه التجارة المربحة، لأن ذلك ضد رغبات رعاياها. وبكل تأكيد، فان أصدقاء هوكنز فى جزر الكتارى لم يجعلوه يتوقع أى معارضة حقيقية. ومن المؤسف أن يكون رجل

انجليزى مشهور على صلة بتجارة الرقيق، ولكن ليس لدينا الحق فى أن نحمله لوما عنيفا لأنه لم يكن أكثر استنارة من معاصريه حكمة.

وهكذا، فان جون هوكنز - بتشجيع من سانتا كروز Santa Cruz قد كون لدى عودته الى انجلترا شركة افريقية، من كبار مواطنى لندن. لهذا جهزت ثلاث سفن، كان هوكنز قائدا لها. وفى الوقت نفسه، كان يمتلك جزءا منها. وكانت هذه السفن من ذات الحجم الكبير. والأولى من هذه السفن، هى السفينة سولومون Solomon، وهى أضخم السفن، فبلغت حمولتها ١٢٠ طنا، وعرفت السفينة الثانية باسم سوالو Sallow وبلغت حمولتها مائة طن، وعرفت الثالثة بجوناس Jonas وبلغت حمولتها ٤٠ طنا. وهذا شيء صغير جدا. وحملت هذه السفن على ظهورها مائة من الرجال، حتى يتهيأ مكان لعبيد السود. وقد وجد هناك اختلاف فى معيار وزن حمولة السفينة بالاطنان. ونحن أنفسنا لدينا خمس مستويات من هذه المعايير، هى على النحو التالى: معيار السفينة التى يقوم بناءوا السفن ببنائها، معيار الزورق (اليخت)، مسافة الانتقال، منطقة الابحار، المعيار المسجل (تسجيل المعيار). وتكون الحمولة المسجلة مثلها كمثل الآخرين. فاليخت المسجل بـ ١٢٠ طنا يعتبر مسجلا بـ ٢٠٠ طن، فى قائمة الشحن. وكان رعايا اليزابيث يستخدمون سفنا من ذات الشراع الواحد والشراعين، فى كل الرحلات الخطيرة. وكانت هذه السفن مجرد قوارب اذا ما قورنت بالسفن التى تستخدم الآن، فى مثل هذه المهام. وكان نجاح هذه السفن يعتمد على السرعة وقوة الابحار. ولم يكن فن بناء السفن الضخمة - ذات الاشعة المربعة التى تعمل فى اتجاه الريح - قد اكتشف بعد بواسطة المستر فلتشر أف رى Mr. Fletcher of Rye فكان الشراعان الأمامى والخلفى يمكنان السفينة من تغيير اتجاهها. ويمكن أن يستخدم هذا فقط مع سفينة ذات حمولة متوسطة.

وفى أكتوبر من عام ١٥٦٢م أبحرت بعثة جون هوكنز، ووصلت الى الكنارى، وهناك احتفى بها بحرارة. وبعد ذلك وصلت السفن المسير الى سيراليون، وهناك حصلت على ٣٠٠ من الزنوج. وقد تجنبت بعثة هوكنز هذه، المحطات التجارية الحكومية، فكان أفراد البعثة قد جمعوا هذا العدد بقدر ما استطاعوا. فقد جمع بعضهم بالقوة،

وبعضهم الآخر بالمفاوضات مع الرؤساء المحليين، الذين كانوا على استعداد لبيع رعاياهم، مثلما فعل سانش بانزا Sancha Panza عندما قصد الحصول على جزيرته. وبعد ذلك عبر أفراد البعثة - دون أن يتعرضوا الى كارثة - الى سنت دومنجو St. Domingo وهناك ادعى هوكنز أنه كان فى رحلة كشفية، ولكنه ضل طريقه، وهو الآن يريد المواد الغذائية والنقود. وقال ان معه عددا معيناً من العبيد، وطلب اذناً بالسماح له بأن يبيعهم. وقد تأكد من أن كل ما سمعه فى الكنارى حقا تماما. وعلى قدر معرفة حاكم سنت دومنجو، فان أسبانيا وانجلترا كانتا فى سلام، حيث ان القراصنة لم يزعجوا أمن البحر الكاريبى، كما لم يكن هناك هراطة خطيرين يهددون العقيدة الكاثوليكية. وقد يعترى الشك المحققين، ولكن محاكم التفتيش لم تكن قد أسست بعد، فيما وراء الاطلنطى. وكانت ملكة انجلترا، شقيقة زوجة حاكم سنت دومنجو. ولذلك لم يجد الحاكم سببا لتفسير تعليماته العامة حرفيا. وفى الوقت نفسه كان المزارعون متشوقين لشراء العبيد، ولكن مع ذلك لم يرغب فى أن يكون هو غير محبوبا. ورغم ذلك، فقد سمح لهوكنز أن يبيع مائتين من الثلاثمائة زنجى على أساس أن يترك المائة المتبقية كتأمين، اذا ما أثير موضوع الرسوم الجمركية.

وكان كل ما يتوجسه الحاكم هو أنه، اذا كانت سلطات مدريد سوف تتقاضى من المستوردين الاجانب نسبة أعلى على العبيد أم غير ذلك، لأن الأمر كان جديدا، لهذا لم يحاول أى غريب أن يتاجر هناك. وكان كل شخص مقتنعا بما يحدث عدا الزنوج، الذين لم يسألوا عن رأيهم. وكانت الأرباح ضخمة. وهناك فى الميناء توجد سفينة واحدة، على وشك الابحار الى قادش. ومع ذلك استثمر هوكنز معظم ما لديه من جلود، وكما فهم فان الجلد كان مطلوبا فى أسبانيا، لذا أرسل جون هوكنز هذه الجلود على ظهر هذه السفينة، وتحت مسئولية أحد شركائه. ومنح الحاكم، جون هوكنز، شهادة تدل على سلوكه الطيب، أثناء مكوثه فى الميناء وبعد حصوله على هذه الشهادة، عاد الى انجلترا مع سفنه الثلاث ببطء. وقد تصور أنه نجح نجاحا عظيما، فكان عليه أن يشعر أنه لم يخدع بطريقة سيئة. وبعد أيام قليلة، وصل الى بليموث. وهناك قابل الرجل الذى أرسله الى قادش مع الجلود. وكان هذا الرجل فى حالة من البؤس، بل وخاوى

الوفاض. فقال لجون هوكنز أن محاكم التفتيش قد استولت على الشحنة وصادرتها، فضلا عن أنها أصدرت أمرا الى سنت دومنجو، وذلك لمصادرة العبيد المحجوزين فيها. وقد هرب هذا الشريك بنفسه، انقاذا لحياته وتبعه رفاقه.

ودهمش هوكنز، عندما سمع بهذه الاخبار، ولم يكن هناك شيء أكثر من هذه الدهشة. ويرجع ذلك الى قصور تفكيره، أو الى ضحالة تفكيره، من أن رحلته هذه، ستعتبر مخالفة في أسبانيا، فاحتج هوكنز، وكتب رسالة الى الملك فيليب، ولما وجد التوسلات غير مجدية أو عديمة الجدوى، أقسم هوكنز على الانتقام. ولكن مع ذلك، كانت تهديداته غير فعالة تماما. فلم يستطيع أن يسترد أى شيء لا من نقوده، ولا من جلوده. وقد فزعت الحكومة الاسبانية من اقتحام المغامرين الانجليز لفرديوسها الغربى، ولتعرض اسطولها المحمل بالذهب للخطر.

وأسوأ من هذا كله، تعريض طهارة العقيدة (الكاثوليكية) للخطر. لذا أصدرت أوامر أكثر حسما، وذلك بقلق الموانئ هناك أمام جميع الاجانب. وحذر فيليب بصفة شخصية السير توماس السفير الانجليزى (فى أسبانيا) - بأنه اذا تكررت مثل هذه الزيارات فان نتيجتها ستكون وخيمة العواقب. وقد توسل كل من سيسيل Cecil - الذى كره كل المشروعات التى تشبه أعمال القرصنة - وتشالونر Chaloner - الذى كان نصف أسباني ورفيقا قديما فى جيوش الملك تشارلس الخامس - الى ملكتيهما كى تمنع مثل هذه المشروعات.

ومع ذلك، كانت اليزابيث لها وجهة نظرها الخاصة فى مثل هذه الأمور، فهى أحبت النقود، وأحبت أيضا تشجيع حب المغامرة لدى رعاياها، الذين كانوا يحاربون معارك حكومية، وعلى مسئوليتهم، بل على نفقتهم الخاصة. ورأت فى غضب فيليب اعترافا بأن جزر الهند الغربية هى نقطة ضعفه، واذا رغبت أن ترعبه لكان ذلك فى امكانها، ولاضطر لتركها وشأنها، بل ولا بعد محاكم التفتيش عن حرق بحارتها. فهناك، المكان الذى يكون فيه فيليب أكثر تأثرا. ومن المحتمل أيضا أنها اعتقدت بأن جون هوكنز لم يرتكب شيئا يستحق عليه اللوم، فقد تاجر فى سنت دومنجو بموافقة الحاكم، لذلك كانت المصادرة فى ذلك الوقت اجراء عنيفا.

وبوضوح، فقد كان هذا هو وجهة نظر جون هوكنز فى المسألة. فهو لم يؤذ أحداً، ولم يسيء الى أذان رجل تقى باستعراض بروتستنتيته، كما أنه لم يكن من رعايا فيليب، فمن المتوقع كذلك أنه لم يكن ملماً بالتعليمات التى أصدرتها الحكومة الأسبانية فى الجهات الناشئة من أراضيها. فلو كان هناك أى شخص يستحق العقاب، فلم يكن هذا الشخص هو جون هوكنز، بل يكون الحاكم. واعتقد هوكنز بأنه سلب. وكان من حقه أن يعرض على حساب الملك نظير الضرر الذى لحق به، لهذا قرر أنه سيذهب مرة ثانية. وكان متأكداً من أن الزراع سيستقبلونه بود. فكان بينه وبينهم أقوى الصداقات والتفاهم، وكان صراعه مع فيليب، وفيليب فقط. وكان هوكنز قد قصد أن يبيع شحنة جديدة من العبيد. لهذا كان ينبغي على حكومة أسبانية ألا تحصل الرسم الجمركى البالغ قيمته ٣٠٪ على هذه الشحنة.

ووافقت اليزابيث، وقد فتح هوكنز الطريق الى جزر الهند الغربية وقد أوضح هوكنز كيف كان من السهل تهريب العبيد، وكيف أنها كانت وسيلة مربحة، وكيف كان من الممكن أيضاً للانجليز أن يقيموا علاقات ودية مع المستوطنين الأسبان فى جزر الهند الغربية، سواء أراد فيليب أم لم يرد. وعلى أثر ذلك تكونت شركة أخرى من أجل محاولة ثانية.، وكان لاليزابيث أسهما فيها، كما كان للورد بمبروك Lord Pembroke، وكذلك كان للأعضاء الآخرين فى مجلس ادارة هذه الشركة أسهما. وأقرضت الملكة هوكنز السفينة المسيح Jesus، وهى سفينة كبيرة تبلغ حمولتها ٧٠٠ طن. وأصدرت تعليمات رسمية، بالأى يوجه الى ملك أسبانيا أى اساءة أو ضرر، أو يمس بسوء ولكن اذا لزم الأمر، فيترك ذلك الى حكمة القائد. وبما أن الزارع كان لديهم الرغبة فى الشراء، فان وسائل التجارة يمكن أن تكتشف بون التصادم مع السلطان. وفى هذه المرة أعدت الحملة على نطاق واسع، بحيث ضمت على ظهر سفنها مائة جندي، وذلك لمواجهة الطوارئ. وبعد أن أعد هذا، بدأ جون هوكنز رحلته الثانية فى أكتوبر عام ١٥٦٤م. واختارت البعثة فصل الخريف لتبدأ الرحلة ولكى تتجنب أعلى درجات الحرارة فى المنطقة الاستوائية. وفى البداية رغب هوكنز، أن يرى أصدقاءه فى الكنارى. وبعد ذلك واصل المسير الى ريو جراند Riogrand، وهناك التقى مع المغامرين السيئيين

والجديد على حد سواء، كما وجد رئيس قبيلة فى حرب مع قبيلة مجاورة، فساعد أحدهما فى الاستيلاء على مدينة، وأسر أبنائها، كما قام جون هوكنز بإجراء مشتريات من المحطة التجارية البرتغالية، وبهذه الطريقة حصل فى ذلك على ٤٠٠ من القطيع الانسانى. وبعد ذلك، أبحر هوكنز فى الاتجاه القديم مع هؤلاء بمستقبل أفضل عما كانوا عليه فى أوطانهم. وبالقرب من خط الاستواء، دخل هوكنز فى منطقة تخلو من الرياح، وكان لديه نقص فى مياه الشرب، وخشى أن يفقد بعضا من العبيد. ولكن، وكما ورد فى سجل الرحلة "فإن قدرة الله أن تعرض مختاريه للهلاك" فأرسل الله نسيما حمله بأمان الى الدومنيكان. وفى تلك الجزر الممطرة (الدومنيكان) وجد هوكنز المياه بوفرة. وعندئذ، كان عليه أن يفكر فيما يفعله بعد ذلك.

واعتقد بأن سنت دومنجو لم تعد مكانا آمنا بالنسبة له، لهذا انطلق عبر المنطقة الاسبانية الى مكان يسمى بربوروتا Burboroata حيث أمل بالآ يعرف أحد عنه شيئا. ولكن كان هو مخطئا فى هذا فقد وصلت أوامر فيليب التى تقول: "لا يسمح لأى انجليزى من أى عقيدة أو جنس، بالاتجار فى الاراضى التى تخضع لسيادته فى جزر الهند الغربية". ومع ذلك، فقد تعمد المستوطنون أن يتاجروا، وتظاهروا فقط بالقوة وبالانصياع للأوامر المفروضة عليهم. وكانت هناك حاجة الى استعراض قوة الملك، وقص هوكنز قصته القديمة التى قال فيها "أنه كان فى الخارج فى خدمة ملكة انجلترا. وفى تلك الأثناء، ضل طريقه بسبب سوء الأحوال الجوية. فضلا عن أنه، كان لديه نقص فى الامدادات. مع العلم بأنه كان برفقته على ظهر سفنه كثير من الرجال الذين كان فى امكانهم أن يصيبوا المدينة ببعض الأذى، اذا لم يسمح لهم بالنزول فيها بسلام، لشراء وبيع كل ما يريدونه. وبدا على الحاكم التردد. عندئذ، وضع هوكنز ١٢٠ من رجاله على الشاطئ، وأحضر مدافعه ليضعها فى القلعة. فاستسلم الحاكم محتجا، وسمح لجون هوكنز بأن يبيع نصف عبيده. وبعد ذلك، قال هوكنز أنه بسبب عدم معاملته معاملة كريمة فلن يدفع له ٣٠٪، بل سيحصل الملك الاسبانى فقط على ٥ ٪، وليس أكثر من ذلك، مع العلم بأنه لم يكن لدى المستوطنين أية معارضة، لأن السعر كان قليلا. وبهذا التخفيض فى السعر أنهى هوكنز عملياته التجارية بسرعة. ونتيجة لذلك، فلم

يحضر جلودا بعد ذلك، وكان قد قبض أثمان سلعه التجارية بالسبائك الفضية. وبعد ذلك، واصل هوكنز السير من بربروتا الى ريو دى لاماشا Rio de Lahacha حيث تكرر نفس المشهد. وفى هذا الوقت كان قد تخلص بسهولة، وبنجاح من كل الـ ٤٠٠ أربعمئة عبد، ومع ذلك كان الموسم لايزال أمامه. وقد أنهى هوكنز أعماله، ومسح جزءا كبيرا من البحر الكاريبى، ورصد الأحوال الجوية، وكتب ملاحظات عن التيارات، ورسم خرائط عن السواحل والجزر. وبعد أن قام بكل هذا، اتجه الى الوطن متتبعا الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية، حتى نيوفونلاند New Found Land وهناك قدم لطاقيه غذاء مختلفا يحتوى على سمك الكود الطازج، الذى حصل عليه من الشواطىء. وبعد غياب دام ١١ إحدى عشر شهرا، أبحر الى اليادستو Padstow بعد أن كان قد فقد ٢٠ من الرجال فقط أثناء هذه المغامرة ومعهم ٦٠٪ (من الأموال) التى تخص الملكة والمساهمين.

ويأتى النجاح بنجاح آخر، فقد انتهت الثناءات على هوكنز من كل لسان، ففى لندن، كان هوكنز بطل الساعة، فاستقبلته اليزابيث فى القصر، كما قابله السفير الأسباني دى سيلفا De Silva على حفل عشاء. فتحدث هوكنز بصراحة عن الأماكن التى زارها، وعن الأعمال التى أنجزها، ولكنه لم يصرح بالقسوة الخفيفة التى استخدمها. فاعتبر ذلك مسرحية هزلية، لأنه لم يصب أى شخص من الجانبين هناك. وتفاخر هوكنز، بأنه قد أرضى الأسبان الذين تعاملوا معه رضاء لا مثيل له. ولم يملك دى سيلفا الا أن ينحنى (الى هوكنز)، ويقدم تقريرا الى سيده، يطلب منه التعليمات الخاصة بكيفية التصرف وانزعج فيليب بصورة كبيرة من هذا التقرير، ورأى أنه من المتوقع أن يتحالف الغربيين مع الانجليز، وأن تزحف الهرطقة بينهم أو أن تنتشر الهرطقة بينهم وأن يتعرض الاسطول الذى يحمل الذهب للخطر، فضلا عن أى شيء آخر فى متناول اليزابيث تزعجه به. لهذا قرأ وأعاد قراءة خطابات دى سيلفا، وأمام اسم الاشينز Achines، كتب على الهامش عبارات تعجبية مروعة هى "أوجوا! أوجو! Ojo! Ojo".

وكان الأفق السياسى مؤيدا لاليزابيث، فكانت ملكة اسكتلندا فى ذلك الوقت، سجنينة فى لوك ليفن Loch Leven. وكانت الاراضى المنخفضة فى ثورة. وكان الهجنوت يتجهون بأنظارهم الى فرنسا. لهذا اقترح هوكنز اعداد حملة ثالثة، واعتقد أنها (أى اليزابيث) يمكن أن تسمح له بها بأمان. وبالفعل وافقت الملكة على ارسال هذه الحملة، وخولت له استخدام السفينة المسيح Jesus مرة ثانية، اضافة الى سفينة أخرى أصغر منها، كانت تمتلكها الملكة، هى السفينة مينون Minon. وفى ذلك الوقت كان لايزال لدى هوكنز سفينتان مهيئتان للعمل، وأما السفينة الخامسة Judth، فقد أحضرها اليه ابن عمه الشاب المدعو فرانسيس دريك Francis Drake الذى ظهر لأول مرة على المسرح. وسأخبرك باختصار عن ما هو دريك ويكفى القول، أنه كان من أقرباء هوكنز، وكان يملك مركبة صغيرة أنيقة، ذات ساريتين، وكان لديه طموح فى المشاركة فى تجارة مثيرة أو فى عمل مثير.

وفى هذا الوقت، كان بحارة بليموث Plymouth يضمرون احتقارا خطيرا لفيليب. وفى الوقت الذى كانت فيه بعثة هوكنز تجهز، أتت سفينة الملك (فيليب) الى الكات ووتر Cat Water، وكان على متنها كثير من المساجين الفلمنكيين. وكان يرفرف عليها العلم القشتالى. وكما قيل فان هذا كان ضد القواعد المعمول بها فى الموانئ الانجليزية. ولم يغفر الانجليز الطريقة التى عومل بها العلم الانجليزى فى جبل طارق، لذا أمر هوكنز الريان الاسبانى بانزال علمه، ولكن هذا الريان الاسبانى رفض، فأطلق هوكنز عليه النيران فى الحال. وفى أثناء هذه الفوضى، هرب المساجين الى ظهر السفينة Jesus، وتركوا يهربون. عندئذ أرسل الكابتن الاسبانى شكوى الى لندن، والى سيسل الذى رفض تصرفات هوكنز، واجراءاته، وأرسل سيسل ضابطا ليحقق فيما حدث. ولكن هوكنز الذى كان واثقا من حماية اليزابيث أجاب بهدوء، بأن الاسبانى قد خالف قوانين الميناء، وأنه من الضرورى تأكيد سلطة المملكة.

وقال دى سيلفا للملكة "ان بحارتك يسلبون رعايانا فى البحر، ويتاجرون فى الأماكن الممنوع الذهاب اليها، ويطلقون النيران على سفننا فى موانئك، كما أن وعاظك يهينون سيدى من فوق منابرهم Pulpits، وعندما نعترض على ذلك يرد علينا بالتهديد.

وقد تحملنا الكثير من مظالمهم. هذه المظالم أو الامانات التي كانت ترجع بصورة كبيرة الى المزاج، والى السلوك السيء. ولكن لأننا لا نتوقع الحصول على أى تعويض يمكن الحصول عليه، ولأن نفس هذه المعاملة لنا سوف تستمر، فمن الواجب أن نتشاور مع جلالة الملكة فى المدة الزمنية الماضية كنت قد طلبت من جلالته أن تعاقبى القائمين بهذا الاعتداء فى بليموث، وأن تحافظى على السلام بين المملكتين".

ولن يكون هناك اعتبار لأى اعتراض أو احتجاج، حتى يرى ماذا يفعله الجانب الآخر، المتمثل فى البابا، والقوى الكاثوليكية الأخرى، التى أخذت على عاتقها اجبار البروتستانت فى فرنسا، وكذلك الفلمنكيين (فى الاراضى المنخفضة) على العودة الى سيطرة البابوية، وذلك باستخدام النار والسيف ولم يكن هناك سر بأن دور إنجلترا سوف يلى ذلك، اذا ما أطلقت أيدى فيليب فى تلك الأثناء، كان الملك يتآمر مع ملكة اسكتلندا، كما كان يشجع ايرلندا على الثورة، وكان أيضا يضطهد التجار الانجليز والبحارة فكان يتركهم جائعين حتى الموت، فى زنانات محاكم التفتيش، أو يحرقهم على خوازيق. وكانت مساوىء سميث فيلد Smithfield، لاتزال عالقة فى ذاكرة البروتستانت، واذا استطاعت القوى الكاثوليكية أن تفعل ما تريد، فلا يستطيع أى انسان أن يتنبأ بالسرعة التى سيتم بها أى رد فعل فظيع فى الوطن.

ولو سمح ملك أسبانيا، وقداسة البابا فى روما، الى أمم أخرى أن تعمل قوانين خاصة بها، لاختفى القراصنة، ومراكبهم من المحيط. ومن الممكن ترك جزر الهند الغربية دون ازعاج. ومن الممكن أيضا أن تعيش كل من أسبانيا وبريطانيا وفرنسا والفلمنك فى سلام جنباً الى جنب، كما هو الحال الآن. ولكن الحكومة الاستبدادية الدينية (الاسبانية) لم تكن قد استوعبت درسها بعد، فتركت "شحاذين البحر" وهم زبانية فيليب يمارسون عملهم بدون نظام، ولكن بطريقة مؤثرة. واستمعت اليزابيث بأدب أو بذوق الى ما قاله دى سيلفا، ووعدت بدراسة شكاياته. ومع ذلك سمحت لهوكنز بالابحار. فماذا حدث له. هذا ما سيقال فى المحاضرة التالية.

الفصل الثالث

السير جون هوكنز وفيليب الثانى

انهيت محاضرتى السابقة، عندما كان هوكنز يعد لرحلته الثالثة، وهى كما ثبت كانت من أكثر الرحلات أهمية. وذكرت أن شابا من أقربائه، كان قد انضم اليه، ومن الواجب على أن أذكر عنه بعض الكلمات التمهيدية. كان هذا الشاب هو فرانسيس دريك Francis Drake أحد أبناء ديفونشير Devonshire الذى كان شأنه شأن هوكنز نفسه، ورالى Raleigh، وديفيس Devis، وجلبرت Gilbert، وآخرين أيضا من الرجال المشهورين فى تلك الأيام. وكان فرانسيس دريك هذا، قد ولد فى حوالى عام ١٥٤٠م، فى مكان ما من تافستوك Tavistock. وقد أخبر دريك كامدن Camden بأنه (أى دريك) كان من أصل عادى، وكان يقصد من وراء ذلك فقط أنه فخور بوالديه، ولم يقصد الادعاء بأنه شريف المولد.

وكان والده من مستأجرى (الأرض) من الأيرل أف بدفورد The earl of Bedford فلابد وأنه كان قد ساند، لأن فرانسيس راسل Francis Russell - وريث لقب الأيرل - كان أباً روحياً للولد (لفرانسيس دريك). فمن فرانس راسل أخذ دريك اسمه الأول.

وفى وقت مبكر، تحول آل دريك Drakes الى المذهب البروتستانتى Protestantism. وبعد ذلك رحلوا الى كنت Kent بسبب التمرد الذى وقع فى تافستوك Tavastock، نتيجة للقانون ذى الستة بنود Six Articles Bill.

ومن المحتمل أن الوالد قد عين فى وظيفة فى أسطول هنرى الثامن فى تشاثام Chatham، وذلك بواسطة نفوذ اللورد بدفورد.

وفى فترة حكمه التالية، وعندما كان البروتستانت فى أوجهم، رسم والد فرانسيس دريك ليصبح قسيسا، لأبنور Upnor فى الميدوى On Medway. وفى وقت مبكر، بدأ الشاب فرانسيس يعمل فى البحر وهناك تعرف على قبطان سفينة، كان يعمل بالتجارة فى موانئ القتال. فهو الذى أخذ فرانسيس دريك على ظهر سفينته، ودربه كى يكون

بحارا. وقد أظهر الولد نبوغا فى هذا المضمار حتى أن صاحب السفينة عندما مات أوصى بها لدريك. ولعدة سنين، التصق دريك بكل رسوخ، بعمله فى الساحل وجمع نقودا، وحقق شهرة واسعة. ونمى طموحه بنمو نجاحه.

وفى نفس الوقت، كان الانجليز الذين يسافرون بالبحر معجبين تماما بهوكنز وباستغلاله لجزر الهند الغربية. وقد عرف بأن آل هوكنز، وآل دريك كان أقارب من الدرجة الأولى. ولما سمع فرانسيس دريك بأن هناك رحلة أخرى تعد، حصل على موافقة عمه، وباع سفينته ذات الساريتين، واشترى السفينة جودث Judth، فهى سفينة ملائمة للاستعمال وسريعة. ورحل دريك الى بليموث مع عدد قليل من البحارة الشجعان، الذين كانوا يعملون فى النهر، والذين تجمعوا هناك.

وفى تلك الأثناء، أرسل دى سيلفا خطابا الى فيليب جاء فيه، أن هوكنز رحل مرة ثانية، وقد اتخذت الاستعدادات لاستقباله. وكما سبق وبدون أن يساوره أدنى شك أبحر (هوكنز) وبرفقته أربع سفن Consorts فى شهر أكتوبر عام ١٥٦٧م. وكانت البداية شؤما عليه، فقد صادفته أزمة فى خليج بسكاي The Bay of Biscay، نتيجة لاختلاف الفصول فقد، فقد مراكبه وتمزقت السفينة Jesus، وتسرب الماء من خلال الواحها الخشبية. لهذا لم يسترح هوكنز لمجريات الأمور، حتى أنه فكر فى العودة، والتخلى عن الرحلة فى هذا الفصل. وعلى كل، فقد تحسن الطقس. وفى الكنارى، أسلح أعضاء بعثة هوكنز من أنفسهم، والتقطوا أنفاسهم، وواصلوا السير بعد ذلك. وفى نفس الوقت، كانت عملية أسر العبيد تدار أو تنفذ بنجاح، مع أنها كانت تواجه بصعوبات متزايدة، وكان التجار يتخلصون من أى شحنة فى المستعمرات الاسبانية، بنفس النجاح، وفى أثناء الليل، وفى مكان ما، كان يصل الزراع فى قواربهم، ليشتروا (العبيد). وفى ريو دى لاهاشا Rio de la Hacha، أرسلت أوامر اجبارية للغاية لمنع دخوله. ولكن هوكنز أنزل على البر قوة، كما فعل من قبل، واستولى على المدينة وبالطبع تغاضى المستوطنون عن ذلك. وفى كارثا جينا Carthagera أمر مرة ثانية بالابتعاد. وبما أن كارثا جينا هذه كانت محصنة، تحصينا قويا فانه لم يغامر بالدخول اليها، ولكنه وجد فى مكان آخر أسواقا فسيحة لتصريف سلعه. فهناك باع كل عبيده

وبواسطة ذلك، وأيضا بواسطة الصفقات الأخرى، جمع ما وصف بثروة وفيرة من الذهب والفضة والمجوهرات. وفي هذا الوقت، اقترب فصل الأعاصير، فاتخذ أفضل الطرق نحو الوطن ومعه غنائمه، خوفا من أن تلحقه هذه الأعاصير. وأساء حظه، فإنه قد تباطأ طويلا. فقد مر بالنقطة الغربية من كوبا. وعندما كان يتقدم ببطء من خلف الجزيرة صدمه الأعاصير. وقد استمرت هذه العاصفة أربعة أيام، بحيث أصبحت قيعان السفن موحلة لدرجة لم يستطع معها البحارة، أن يشقوا طريقهم، وقد فقدت ساريات المراكب، وقذفت العاصفة أيضا بحبال تثبيت أشرعتها بعيدا. فالسفينة المسيح التي لم تكن صالحة للإبحار منذ البدء زاد تدفق الماء إليها أكثر من ذي قبل، بحيث فقدت دفنها. وعندئذ بحث هوكنز عن ميناء، في فلوريدا، ولكنه وجد الساحل ضحلا وخطيرا. وفي النهاية اضطر إلى أن يتجه إلى سان جوان دي أولوا San Juan de Ulloa الواقعة في نهاية خليج المكسيك.

وتقع سان جوان دي أولوا هذه على مسافة أميال قليلة فقط من فيراكروز Vera Cruz. وكانت فيراكروز هذه في ذلك الوقت الميناء الرئيسى لمكسيكو، التى من خلالها، كانت تمر كل التجارة بين المستعمرة والوطن الأم. وهكذا، فقد كانت مكانا ذا أهمية إلى حد ما. فهي تقع على خليج صغير في اتجاه الشمال، ويوجد على مدخل هذا الخليج حافة ضيقة من الرمل والحصى - بطول نصف ميل - كانت تعمل كحاجز مائى طبيعى، وفي الوقت نفسه، كانت تكون ميناء، فهذه الحافة أو الجزيرة (التي تسمى بذلك) كانت غير مسكونة. وكان يواجه المواجهة الداخلية منها حائط. وكان الميناء على جانب (هذا الحائط) عميقا، وكان في امكان السفن أن تكمن فيه في سرية تامة، بحيث تؤمن بربط حبالها في حلقات مثبتة في البناء. وكانت الريح السائدة تهب من الشمال، وتأتى معها الأمواج العنيفة، التى كانت تلاطم الجزء الخلفى من الجزيرة. وكان يوجد بها فتحة عند كل من نهايتى هذه الجزيرة، ولكن كان المتاح للسفن من ذات الغاطس الكبير، فتحة واحدة فقط. وفي هذه القناة كان مجرى الماء ضيقا، وكانت بطارية المدفعية المنصوبة عند نهاية الحاجز تسيطر عليها تماما. وكان في امكان هذه البطارية فرض السيطرة الكاملة على الميناء. وكانت المدينة تقع على الجانب المواجه للخليج ودخل هوكنز

بأسطوله المزود بالدفعية، الى هذا الميناء المنشأ هكذا، فى ١٦ من شهر سبتمبر سنة ١٥٦٨م.

ولم يستطع هوكنز أن يشعر بالراحة، ولكن لاعتقاده فى أنه ليس لديه نية سيئة، فانه لم يخف من السكان بصفة عامة، كما أن السلطات الأسبانية، لم تكن من القوة بحيث تعترض سبيله فى هذا الوقت. وفى هذا الوقت أيضا، جلب عليه سوء طالع قدم الفاريز دى باكان، فهو نفسه الضابط الذى كان قد دمر السفن الانجليزية فى جبل طارق، فكان متوقعا وصوله يوميا من أسبانيا - من طرف فيليب - خصيصا للبحث عن هوكنز، كما ثبت ذلك فيما بعد. ولما ظهر هوكنز (عند مدخل الميناء) ظن خطأ بأنه هو الأدميرال الأسباني، وتحت هذا الانطباع سمح له (أى لهوكنز) بالدخول الى الميناء، ولكن سرعان ما اكتشف الجانبان خطأهما.

وعلى الرغم من أن هوكنز كان لا يزال يجهل أنه هو نفسه الهدف الخاص لباكان Bacan فحتى ذلك الحين كان دى باكان هو الضابط الأخير، الذى كانت ظروفه تقعه عن الصراع (مع هوكنز). وفى هذا الميناء، كان يوجد العديد من السفن الأسبانية المحملة بشحنات وفيرة. وبالطبع لم يستطع هوكنز الاشتباك معها، مع أنه كان فى امكان هذه السفن أن تشتبك معه، اذا زودت بالامدادات اللازمة. وكأفضل ملاذ له (أى لهوكنز) أرسل رسولا - على وجه السرعة - الى مكسيكو ليعلم (ليخبر) نائب الملك هناك بوصوله، ويقول لهذا النائب أن لديه (أى هوكنز) أسطولا انجليزيا، قد أجبر على الدخول (فى هذا الميناء) نتيجة للطقس، ونتيجة لحاجته للاصلاح. وفى ذلك الوقت كانت الملكة حليفة لملك أسبانيا.

ولما علم هوكنز باحتمال وصول أسطول أسباني، توصل لنائب الملك بأن يقوم بعمل ترتيبات من شأنها منع العراك بينه وبين قائد الأسطول الأسباني القادم. وكما قلت فى المحاضرة السابقة، أنه لم يكن يوجد هناك، محكمة تفتيش فى مكسيكو، ولكن بعد ثلاث سنوات أسست محاكم خصصت للانجليز. وحتى هذا الوقت لم يكن هناك نية سيئة تجاه الانجليز، انما كان على العكس من ذلك، فلم يؤذ هوكنز أى أحد، كما أن تجارة الرقيق كانت منتشرة بشكل واضح. ومن المحتمل أن يتفاضى نائب

الملك عن هروب هوكنز، ولكن لسوء الحظ وللمرة الثانية كان هذا الحاكم نفسه لديه أوامر بالاستدعاء أو بالعودة الى أسبانيا حيث كان خليفته قادما فى الاسطول الخاص بـ دى باكان. وحتى لو كان هو (أى هوكنز) جيد التنظيم، ومقدرا لمصائر الأمور، وحر فى العمل، لما استطاع أيضا أن يفعل شيئا، لأنه فى الصباح التالى - أى فى ١٧ سبتمبر من نفس العام - تحرك دى باكان الى مدخل الميناء، ومعه ١٢ سفينة شراعية مسلحة تسليحا كثيفا، فضلا عن وجود سفن شراعية حربية أخرى.

وكان من المحتمل أن تكون حمولة أصغر ما فى هذه السفن ٢٠٠ من الرجال اذن كان الفارق بينهما فى ذلك الوقت (أى بين الجانبين) كبيرا. وكانت سفن هوكنز تصطف على طول الشاطئ، أو الحائط الداخلى للجزيرة، واحتل (هوكنز) على الفور الجزيرة نفسها، ونصب المدافع على نقطة تغطى الطريق اليها (أى الى الجزيرة). وبعد ذلك أرسل (هوكنز) قاربا الى دى باكان لتقول له، أن الرجل الموجود فى الجزيرة (يعنى هوكنز) هو رجل انجليزى وأنه يمتلك الميناء، ومن الواجب عليه (أى على هوكنز) أن يمنع دخول الاسطول الاسبانى حتى يتأكد (هوكنز) من عدم استخدام العنف من جانب دى باكان هذا. وقد كان هذا اجراء شديدا لمنع أدميرال أسبانى من الدخول الى ميناء أسبانى، فى وقت كان السلام يسود فيه. ورغم ذلك كان الطريق الى الميناء صعبا، ولا يمكن اقتحامه بسهولة، اذ كان هناك تصميم على الدفاع عنه (عن الميناء) (من جانب هوكنز). وفى تلك الأثناء بدأت الرياح الشمالية تهب، ولو تحولت هذه الرياح الى عاصفة، فان الاسبان سيلجئون الى ملجأ فى الشاطئ. وفى ظل ظروف يائسة كهذه، يمكن ارتكاب أعمال تتسم بالتهور والاستماتة. وهكذا، فقد شرح هوكنز وروطته هذه فى تقرير لاحق جاء فيه ما يلى:

"كنت أواجه صعوبتين، فكان هناك خيار واحد من اثنتين، أما الأول فهو أن أجعلهم (الاسبان) خارج الميناء - ويقدره من الله استطيع فى هذه الحالة فعل ذلك بسهولة - فى هذه الحالة - ومع هبوب الرياح الشمالية - يكون من الممكن أن تتحطم سفنهم، وأكون أنا المسئول عن ذلك. وأما الخيار الثانى، فهو أننى أخاطر بخداعهم، وهذا ما فعلت أن أقوم به".

وقد بدا أن الرياح الشمالية لم تهب "عندئذ" لم يختر القائد الانجليزى البديل الأول (لهذه المشكلة). وانقضت ثلاثة أيام فى مفاوضات. وكان كل من دى باكان ودون انريكويز Donenriquez - نائب الملك الجديد - تواقين بطبيعة الحال الى الحصول على مأوى بعيدا عن الموقف الخطير، ولم يكن لهما الرغبة فى تقديم أى تعهد أكثر مما تقتضيه الظروف الضرورية. وكان الاتفاق النهائى يقضى بأن باكان والأسطول يدخلان دون مقاومة. وفى هذه الحالة يمكن لهوكنز أن يمكث حتى يصلح الاضرار التى لحقت به، ويشترى ويبيع ما يريد. والأكثر من ذلك فانه كان فى امكان الانجليز الاحتفاظ بملكية هذه الجزيرة طوال مدة بقائهم فيها. ويضيف هوكنز فى قوله ما نصه "لقد تعرضت هذه الفقرة للاعتراض طويلا، ولكن، ووفق عليها فى النهاية. وانه كان من الضرورى تماما - ومع وجود الجزيرة فى أيديهم (أى فى أيدي الانجليز) - على الأسبان أن يقطعوا مراسى الانجليز، لتندفع سفنهم عبر الميناء الى الشاطئ".

وقد وقعت المعاهدة بهذا الشكل وبطريقة رسمية. وتبدلت الرهائن بين الجانبين ودخل باكان، ورسى الاسطولان، كل منهما على حدة، بحيث يفصل بين كل منهما مسافة تقدر بالحجم الذى يسمح به الميناء.

وتبدلت أيضا المجاملات، وانقضى يومان على ما يرام. وكان من المحتمل أن نائب الملك، والادميرال (دى باكان) لم يعرفا فى أول الأمر أن الرجل (هوكنز) الذى أرسلوا من أجله كل من نائب الملك والادميرال لاغراقه أو لأسره، يقبع على مقربة منهما. ولما عرفا الحقيقة، كان من الممكن لهما أن يعتبراه قرصانا، عندئذ لم يعد لهما حاجة فى المحافظة على وعدهما معه، مثلما يفعلان مع الهراطقة وعلى أية حال، كان القار فى المصيدة، ولم يسمح دى باكان بأن يدعه يخرج. وفى ذلك الوقت، كانت السفينة المسيح ترسو بعيدا، ومن خلفها من جهة المدخل رست السفينة مينون، وقد ربطت السفينة الثانية مينون فى حلقة فى الرصيف، ولكن كان من الممكن أن تتحرك بحرية. وأما السفينة جودت Judth قد رست بنفس الطريقة، وعلى مسافة أبعد. ولم يذكر شيئا عن السفينتين الصغيرتين الباقيتين.

وقام دى باكان بعمل استعداداته فى صمت، بحيث تكتمته المدينة وكان لدى باكان هذا وفرة فى الرجال المستعدين، لأن يفعلوا ما يؤمرون به، وفى اليوم الثالث الموافق العشرين من شهر سبتمبر، وعند الظهر، كان طاقم السفينة مينون، قد ذهب لتناول الغذاء، وفى تلك الأثناء، رأوا سفينة ضخمة وبطيئة حمولتها ٩٠٠ طن، تسير ببطء جنباً الى جنب منهم، ولما كانوا لا يشعرون بحد تجاه هذا الجار، أعدوا المرسى للتحرك (الانجليز)، وبدأوا فى فرد أشرعتهم. وفجأة سمع اطلاق النيران والعيول من المدينة فقد هوجم الأشخاص الانجليز الذين كانوا على البر بعنف، وقتل الكثير منهم، وشوهت البقية منهم وهم يلقون بأنفسهم فى الماء، ويسبحون فى اتجاه السفن. وفى نفس اللحظة اطلقت مدافع السفن الشراعية، الحربية الضخمة نيرانها، وكذا اطلقت مدفعية الشاطئ النار على السفينة المسيح، ورفاقها، واندفع ٣٠٠ من الاسبان من سفينتهم الحربية الضخمة، وبأعداد كبيرة - تحت ستار الدخان والهرج - الى ظهر السفينة مينون، وعلى الفور صد بحارة السفينة مينون هؤلاء (المهاجمين الأسبان) وطردوهم من فوق ظهرها، ورفعوا أشرعتهم، واقتحموا طريقهم خارج الميناء، وتبعتهم السفينة جدث، بينما تركت السفينة المسيح وحيدة غير قادرة على التحرك، ولكنها دافعت عن نفسها باستماتة. ولم يحدث مثل هذه القسوة وهذه الشجاعة فى المعارك التى وقعت بين الانجليز والاسبان وقد غرقت سفينة دى باكان، واشتعلت النيران فى سفينة نائب الادميرال. وكان الاسبانيون يتميزون بالعدد الضخم، لذلك استطاعوا انزال قوة على الجزيرة للاستيلاء على بطارية المدفعية الانجليزية الموجودة هناك، واعدموا أفرادها وصوبوا المدافع على السفينة المسيح.

ومع ذلك استمرت السفينة المسيح، تحارب وتحبط كل محاولة للوصول الى ظهرها. وأخيراً، أرسل دى باكان السفن الحربية نحوها (أى نحو السفينة المسيح) عندئذ جاءت النهاية. وكان كل ما حققه هوكنز فى رحلته - من نقود وسبائك ذهبية وحتى السفينة نفسها - تركه ومصيره. ولجأ هوكنز نفسه، ومن تبقى معه من أفراد أطلق أسفنه على قيد الحياة الى قواربهم، واندفعوا فى وسط الاعداء، الذين حاولوا عبثاً الامساك بهم (أى بالقوارب) ولكن هذه القوارب، ناضلت بهم كى تشق طريقها

وأما الاسبان الذين كانت لديهم سمعة سيئة بين المسافرين بالبحر فقد اتهموا بالخيانة البغيضة. وأما الحرب العظيمة التي خاضها هوكنز فقد جعلت منه بطلا قوميا. وعلى الرغم من أنه كان يعاني من ضائقة مالية، إلا أنه عوض عن خسارته بالشهرة والسلطان.

وكان كل قرصان في الغرب شغوفاً للخدمة تحت قيادة بطل سان جوان دى أولوا (أى تحت قيادة هوكنز)، وبسرعة وجد نفسه، يقود أسطولاً كبير وغير نظامي، حتى أن سيسل اعترف بأهمية هوكنز. ومع ذلك، كان قلق هوكنز الأساسى والدائم ينصب على رفاقه الذين تركهم من خلفه، لهذا تحدث عن حملة جديدة، لاستعادتهم أو للانتقام لهم، إذا كانوا قد قتلوا، ولكن كان عليه أن ينتظر حتى تتضح الأمور لأنهم ربما يجنون وسيلة للاتصال به، طالما أنه لا توجد هناك محاكم تفتيش فى مكسيكو. وربما أنه قد علم بأنه لا يوجد هناك فرصة لعمل سريع.

وقد أخفت الملكة اليزابيث استياعها بقناع من الشجاعة، مع أنها عرفت أنها مطلوبة بالخيانة، ولكنها عرفت أيضا أن أجراً أسلوب هو الأكثر أماناً. فقد استولت على نقود الفاء، الذى لم يكن لديه الرغبة الملحة فى استعادتها. وقد حققت (اليزابيث) أحسن الصفقات الرابعة بسبب الاستيلاء على السفن الانجليزية والاسبانية وعلى شحناتها أيضاً. ولم يشجع الفاء فيليب على اعلان الحرب على انجلترا، حتى تخضع الاراضى المنخفضة تماماً، وكان فيليب بخطواته الوئيدة، يفضل الصبر والتأمر. واعتقد (فيليب) أن نفسه والوقت والبابا ثلاث سلطات ستبرهن فى النهاية على أنها لا تقاوم. وفى الواقع، وبعد عودة هوكنز، بدت وكما لو أن فيليب ثبت أنه كان على حق. وثار النبلاء الكاثوليك بسبب حضور ملكة اسكتلندا الى انجلترا (يبدو أن مارى ستيوارت قد سجنّت فى لندن فى تلك الاثناء). وقد اعتصر الفاء الاقاليم البائسة، كى يدفع أجور (رواتب) قواته. فكان قد سحق التمرد بقدراته العالية وتصميمه العنيد، حتى أصبح كل ميناء فى هولندا، وفى نيوزيلندا فى أيدي الفاء.

وقد ضعف عرش اليزابيث بمؤامرة رييدولفى Ridolfi فهمى من أخطر المؤمرات التى قابلتها على الإطلاق. وكانت القوة الحربية البروتستانتية الوحيدة التى بقيت فى

البحر، والتي يمكن الاعتماد عليها اعتمادا كليا، تتمثل في اسطول القراصنة. الذي كان معظمه تحت أمرة أمير الاورانج. وكان هذا الاسطول أغرب ظاهرة في تاريخ البحرية فكان نصفه من الهولنديين والنصف الآخر من الانجليز، فضلا عن تطعيمه بالهجنوت. وقد كان على رأس هذا الاسطول نبيل فلكمى هو كونت دى لا مارك Cont de la Mark وكانت مراكز قيادته فى الدونز Downs أو فى مراسى دوفر Dover حيث كان فى اماكن مراكز هذه القيادات مراقبة البحار الضيقة، والاستيلاء على كل سفينة أسبانية تمر، بحيث لا تكون هذه السفينة قوية لدرجة لا يمكن معها اعتراضها. وكان يتم الاستيلاء على الشحنات، بحيث تباع علنا فى سوق دوفر. وإذا وجه السفير الاسباني أى شكوى الى سيسل، فإن الرجال الاسبان سيؤخذون سجناء، ويعرضون فى مزاد علنى من أجل دفع الفدية عنهم والتي كانت تبلغ قيمتها بالنسبة لكل شخص ١٠٠ مائة جنيه. وإذا أرسل ألفا سفنا حربية من أنتويرب لانقاذ هؤلاء الأسبان عن طريق حرق مكان تجمعهم بهدف اجبار الانجليز على الهرب منه، تطلق مدافع دوفير نيرانها على سفنه فتجبرها على التقهقر والانسحاب.

وكانت بعض الاساطيل الانجليزية التي تتجول فى (المحيط) تندفع الى السواحل الاسبانية، فينهب أفرادها الكنائس، وتحمل كنوزها. وفى الوقت نفسه، كان القباطنة يشربون نخب نجاح هذه القرصنة فى كنوس القربان، وذلك أثناء تناول الولائم التي كانوا يقيمونها عندئذ. وقد قدر التجار الاسبان الممتلكات التي دمرت بـ ٣ مليون من الدوكات. وقالوا اذا لم يستطع علمهم حمايتهم فسيرفضون توقيع المزيد من العقود، لامداد جيش الاراضى المنخفضة بالمؤن. وبالنسبة لاليزابيث فكانت المسألة حياة أو موت. فقد كانت مؤامرة ريديلفى مؤامرة ذكية وفوق التصور. وكان الهدف منها اجبار اليزابيث على التنازل عن عرشها، والقضاء على الهرطقة. اذن كانت هذه المؤامرة متكاملة ومحكمة. وقد وافق عليها كل من البابا، وفيليب، وكان على الفا عملية الغزو، كما كان على دوق أف نورفولك Duke of Norfolk أن يتزعم التمرد الذي يحدث فى المقاطعات الشرقية ولم تتعرض اليزابيث لخطر من قبل أكبر من ذلك فهي نفسها كانت ستقتال، وكان الهدف من وراء ذلك معروفا. وقد بقيت تفاصيل المؤامرة سرية، حتى لا

يتوفر لديها الدليل الكافى لاتخاذ الاجراءات الخاصة بحماية نفسها، وفى الوقت نفسه، كانت مراكب القرصنة فى دوفر تمثل نوعا من الحماية، وعلى الاقل كانت هذه المراكب ستجعل عبور الفا أكثر صعوبة، ومع ذلك كان من الضرورة القصوى الكشف عن تفاصيل هذه الخيانة، فأى تهاون من جانب اليزابيث لم يؤد الى نتيجة، بل كان الخلاص الوحيد فى هذه الحالة يكمن فى الجراءة.

وفى انتويرب، كان يوجد هناك على وجه التحديد، دكتور ستورى Dr. Story الذى كلفه الفا بمراقبة المهترطين الانجليز. وكان ستورى هذا أداة تعذيب تحت حكم مارى Mary، ومع ذلك دافع هذا الرجل عن حرق المهترطين فى أول برلمان وجد فى عهد اليزابيث. وفى تلك الأثناء رفض ستورى هذا أن يقسم يمين الولاء (للملكة)، لهذا ترك الوطن (أى انجلترا) وأجأ الى استخدام أسلوب الخيانة. ولكن سيسل رغب فى الحصول على دليل يؤكد صدق خيانة هذا الرجل، الذى من الممكن أن يكون هو الدليل بعينه، (ويبدو أن سيسل قد أعد خطة لاغتيال ستورى) تتمثل فى ارسال كلمة اليه عن طريق مخبر مزيف. وقد جاء فى هذه الكلمة أنه توجد سفينة انجليزية فى تشلدت Scheldt، ويعتقد أنه من الجدير فحصها. وقد أغرى ستورى هذا بذلك، فصعد الى ظهر هذه السفينة، عندئذ، أغلقت المنافذ عليه. وبعد يومين سلم ستورى فى القلعة، وهناك انتزعت منه الاسرار بأداة تعذيب. وبعد ذلك أعدم. وكان سيسل قد علم، أو ألم ببعض الأشياء، التى كانت فى الواقع قليلة، عما يحتاج اليه لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بحماية الملكة.

والآن، ولرة أخرى، كان علينا أن نقابل هوكنز فى شخصية جديدة فلقد مرت ثلاث سنوات على كارثة سان جوان دى أولوا، التى فى أثنائها علم هوكنز بكل أسف بأن رفاقه التعساء قد وقعوا فى أيدي محكمة التفتيش مؤخرا، فأما أحرقوا أو جلدوا بالسياط وإما ماتوا جوعا فى السجون، أو أنهم عملوا وهم مقيدون بالسلاسل فى أحواض سيفيل (أشبيلية). لهذا كان قلب هوكنز الذى لا يعرف الرقة يدمى بمجرد أن يفكر فيهم. وفى هذه الأيام، كانت أجمل سمة للبحارة هى تفانى كل منهم للآخر. ومن هذا المنطلق صمم هوكنز على انقاذ حياة أصدقائه القدامى بطريقة أو بأخرى علما بأن

التوسلات كانت عديمة الجدوى كما كانت القوة مستحيلة. ولكن فى هذا الوقت نفسه، كانت لاتزال هناك فرصة سانحة للدهاء. فهو (هوكنز) يمكن أن يخاطر بأى شىء حتى ولو فقد حياته من أجل انقاذ حياتهم.

وقد غادر سيلفا انجلترا، وفى ذلك الوقت وقع على كامل السفير الأسباني دون جيوارو أوجيرالدى أسبس Donguerauor Gerald de Espes مهمة مراقبة وإدارة المؤامرة فكان على فيليب أن يعطيه الإشارة، وكان على دوق أف نورفوك والنبل Peers الكاثوليك الآخرين أن يثوروا، وعلنا تولى ملكة اسكتلندا العرش (بدلا من اليزابيث) وفى هذه الحالة يمكن أن يعتمد النجاح على اتساع مجال التمرد فى انجلترا نفسها، وكان من مهام السفير الأسباني العمل على تشجيع كل بواذر الاستياء والترحيب بأهلها وعلى وجه العموم كان هوكنز قد عرف ما الذى كان يدور فى الخفاء؟ ورأى فى الوقت نفسه أن الفرصة سانحة للتعامل مع فيليب عن طريق استغلال جانبه الضعيف. ومن المحتمل أن هوكنز هذا كان يتحدث الاسبانية بطلاقة، وذلك لأنه أمضى مدة طويلة فى جزر الكنارى. فقد زار هوكنز، دون جيورو، وببرود وجسارة شرح له أنه هو والعديد من أصدقائه غير راضين عن البقاء فى خدمة الملكة، لأنه وجدها غير مخرصة. وجاحدة، ويسرهم أن ينقلوا ولاهم الى ملك أسبانيا، اذا قبلهم هذا الملك. وأما هو نفسه فانه سيتعهد باستمالة كل اسطول قراصنة الغرب، ولم يطلب شيئا فى مقابل ذلك، الا اطلاق سراح العدد القليل من البحارة الانجليز التعساء الذين يوجدون فى سجن سيفيل (أشبيلية). وكان دون جيورو واثقا بأن الأمة كلها مستعدة للثورة، وبشغف بلع جيورو الطعم الذى ألقاه له هوكنز. فكتب الى ألفا، وكتب الى وزير فيليب كياس Cayas، يهيب بهما على أهمية هذه الاضافة الى صفهم، وأنه من المسلم به أن هوكنز فى الواقع كان قرصانا، ولكن أعمال القرصنة كانت خطأ شائعا بين الانجليز، ولا عجب عندما رضى الأسبان لهذا السلب بكل خنوع. وهذا الرجل (يعنى هوكنز) الذى قدم خدماته كان جسورا، وذا عزيمة قوية، وقدرة، فضلا عن أنه كان لديه نفوذ كبير على البحارة الانجليز فانه كان ينصح بكل قوة تشجيع مثل هذا الضم الى صفهم (أى الى الأسبان).

ولم يهتم الفا بذلك. ولم يصدق فيليب ذلك الذى كان يرتجف عند سماع هوكنز، لذا أخبر دون جيورو السير جون هوكنز بأن الملك فى القوت الحاضر كان لا يرغب فى تنفيذ هدفه (أى هدف هوكنز) أى أنه رفضه.

لذا نصح دون جيورو هوكنز بأن يذهب بنفسه الى مدريد، أو أن يرسل بعضا من أصدقائه الموثوق بهم ومعه التاكيدات والتفسيرات. والآن يظهر شخص آخر على المسرح، كان هذا الشخص هو جورج فترزوليام George Fitzwilliam فانا لا أعرف من كان هو؟ ولماذا اختاره لهذا الغرض؟ وفى ذلك الوقت كان دوق فيريا Duke Feria واحدا من أعظم وزراء فيليب الموثوق فيهم. فقد تزوج هذا الوزير (دوق فيريا) من سيدة انجليزية كانت تعمل وصيفة شرف للملكة ماري. ومن الممكن أن يكون فترزوليام على معرفة بشخصية بها أو بأسرتها. وعلى أية حال، ذهب فترزوليام الى البلاط الاسباني، وتوجه بنفسه الى أسرة فيريا وكسب ثقتها، فبواسطتها سمح له بمقابلة فيليب، وأخبره عن هوكنز، بأنه كاثوليكي مخلصا، وساخطا على انتشار الهرطقة فى انجلترا، وهو مستعد أن يقدم المساعدة فى الاطاحة باليزابيث، وأن يساهم فى تولية ملكة اسكتلندا مكانها كما أن له القدرة والرغبة على نقل أسطول القراصنة الغربى العظيم معه والذي يظن فيه الأسبان بأنه مرعب. استمع فيليب الى فترزوليام، وكان مهتما بذلك، على حد رأى فيليب ومن الطبيعى فقط، أن المهرطقين كانوا لصوصا وقراصنة. ولو كان فى الامكان عودتهم الى الكنيسة فانهم فى هذه الحالة سيتركون عاداتهم السيئة. وكان الاسطول الانجليزى يمثل بالنسبة للغزو المنشود العقبة الخطيرة. وكان هوكنز يمثل (الاشينزى) مصدر للكوابيس وهذا لا يمكن أن يكون أو يحدث. وسأل فيليب فترزوليام عما اذا كان صديقه على معرفة بملكة اسكتلندا أو دوق نورفولك، واضطر فترزوليام أن يقول لم يكن هوكنز على علاقة معهما. وكان قبول فيليب لهوكنز أهم شىء عند فترزوليام. وقدم فترزوليام للملك عرضا رائعا، تمثل فى أسطول مكون من أجمل السفن فى العالم، وربما لم يكن هذا الاسطول فى حالة ممتازة بسبب بخل الملكة، ولكن كان من الممكن أن يصلح مرة ثانية، اذا دفع الملك بعض الأموال اللازمة، لاصلاح سفن هذا الاسطول، فضلا عن دفعه لأجور البحارة. ويعتبر اطلاق سراح عدد قليل من المساجين التمساء

فتزوليام كانوا فى السجن فى أسبانيا، فاذا تشفعت ملكة اسكتلندا من أجلهم لدى فيليب، فانه من المحتمل أن يقتنع، ويطلق سراحهم" لهذا سمح لفتزوليام بمقابلة خاصة مع تلك الملكة.

وهكذا، عاد فتزوليام، مسلحا بهذه التوصيات الى شفيلد Sheffield حيث التقى بالملكة ماري، وبدأ فى تقديم خطابات التحية اليها التى كان قد أحضرها من آل الفيرياس Ferias والتى أدخلت الى قلبها السرور فى الحال، وكان من المستحيل بالنسبة لها أن تشك فى صديق لكل من الدوق والدوقة. فكانت مسرورة جدا عند استقبالتها لزائر من البلاط الاسبانى. وكانت أيضا حذرة لدرجة أنها تجنبت اعطاء أى ثقة يترتب عليها أية مخاطر، وقالت أنها دائما تسر عندما تستطيع أن تقدم خدمة الى رجال انجليز، فمن كل قلبها ستتشفع من أجل المساجين. فكتبت الى فيليب، وكتبت كذلك الى الدوق والدوقة، وأعطت الخطابات الى فتزوليام كى يسلمها اليهم، ولكن فيتزوليام أخذها الى لندن، وهناك زار دون جيرالد Don Gerald - السفير الاسبانى فى لندن - وأخبره بنجاحه. وبعد ذلك، كتب الدون جيرالد الى سيده (فيليب) بدون تحفظ، وأوكل الى فتزوليام تسليم هذه الرسالة الى الملك فيليب.

وأخذت مجموعة الرسائل المختلفة هذه الى سيسل أولا، ومن بعده عرضت على الملكة، ثم أعيدت بعد ذلك الى فتزوليام، الذى سافر بها مرة ثانية الى مدريد. فإذا أتت هذه الخطابات بالنتائج المتوقعة فإن سلعا سوف تتبع ذلك، وقد لاحظ سيسل ذلك بهدوء. وسوف يتحرر البحارة الانجليز وسفنهم من محكمة التفتيش، وسوف تتكشف أهداف العدو. واذا اقتنع ملك أسبانيا بعمل ما، اقترحه عليه فيتزوليام - كالمساعدة الخاصة بإصلاحات السفن فى بليموث - فإنهم (فيتزوليام وسيسل وهوكنز) بذلك سيحصلون على مبلغ من المال يستخدمونه فى تدميره (أى فى تدمير فيليب). واذا حاول الفا أن يقوم بالغزو المتفق عليه، ففى هذه الحالة يمكن لهوكنز أن يأخذ سفن القراصنة كما لو كانت تقوم بحراسة الفا. عندئذ يقوم هوكنز بعمل استغلالي مثير فى منتصف القناة.

ويلاحظ الاتجاه الواضح لكل من سيسل وهوكنز، وكذلك للأطراف الأخرى المشاركة في الامر. فنوياً لم تغلف بعبارات رنانة، ولم تكن هناك استعراضات لأى تبرير، انما اتجهوا مباشرة الى لب الموضوع. وكان هذا من خصائص الانجليز في مثل هذه الأوقات العصيبة. فهم يواجهون الحقائق ويفعلون ما تتطلبه الأمور. وفي الواقع، فإن كل هذا قد حدث تمام، كما شرحت. فلقد سردت القصة من الخطابات والوثائق التى لا يوجد أى ظلال من الشك فى صحتها.

بعد ذلك سنعود الى فيتزوليام، الذى كان قد وصل الى البلاط الاسباني فى نفس اللحظة التى أحضر فيها رينولفى Rridolfi من روما موافقة البابا على المؤامرة. وأضيفت اللمسات الأخيرة بواسطة مجلس الدولة الأسباني. وكان الجميع مفعمين بالأم، وكانت تملؤهم الحماسة الصادقة. وقد أقنعت خطابات مارى ستيوارت فيليب، فأطلق سراح المساجين، وكان فى جيب كل واحد منهم عشرة من الدولارات. ووقعت إتفاقية رسمية فى الاسكوريال Escural والتى فيها منح فيليب عفوا لهوكنز عن كل أعماله الشريرة فى جزر الهند الغربية، كما منحه براءة النبالة الأسبانية وخطاب إيثمان بمبلغ ٤٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، وذلك لإصلاح سفن القراصنة من أجل إعدادها للخدمة. وفي الواقع، فإن هذا المبلغ قد دفع عن طريق وكيل فيليب فى لندن. وكان فيتزوليام الذى منح كل الثقة، قد علم بكافة تفاصيل هذه المؤامرة الكبرى فكانت هذه القصة أشبه بفصل من فصول قصة مونت كريستو Mont Cristo ولكنها كانت فى الحقيقة قصة واقعية.

وانتهت هذه القصة بالخطاب الذى سأقرأه لكم من هوكنز الى سيسل، وقد جاء فيه ما يلى:

"سيدى العظيم لعله يسر معاليكم أحاطتكم علما بأن فيتزوليام قد عاد من أسبانيا بعد أن سلم الرسالة التى قام بحملها، والتى حازت على الرضا من جانب كل من الملك فيليب نفسه، ودوق فيريا، وكذلك من جانب بعض الاشخاص الآخرين فى المجلس الخاص. وكان الملك قد رد عليها بسرعة فائقة وبتأييد كبير وبمساعدة منه، ورعاية.

وقد أرسلت البنود مع الأوامر إلى السفير (الاسباني) وذلك لدفع النقود حتى يسير المشروع بكل اجتهاد. وكان من التظاهر أن تنضم قواتي دوق الفا التي سيعدها سرا في الفلنדרز، وإلى القوات التي ستأتي مع دوق مدينة سيلى Duke of Medine Celi من أسبانيا، لكي تغزو هذه المملكة (مملكة أسبانيا) ويعدن، تنصب ملكة اسكتلندا على عرش انجلترا، وقد تدربت هذه القوات معا على حرق سفن صاحبة الجلالة، لذلك كان ينبغي أن يكون هناك حرصا شديدا، ولكن دون أن يبدو أن أى شيء قد اكتشف. وقد أرسل الملك فيليب ياقوتة غالية الثمن إلى ملكة اسكتلندا، ومعها أيضا خطابات كانت في تصوري جيدة، كي تسلم (إلى ماري)، ومع ذلك فلم يكن لهذه الخطابات أهمية، ولكن كانت رسالته الشفهية (فيليب) مريحة لها، وتقول رسالته الشفهية هذه ما نصه: "أنه (أى فيليب) ليس لديه الآن أى اهتمام آخر سوى وضعها (أى وضع ماري ستيوارت) في مكانها. وكان من الأشياء الطيبة أن فيتزوليام استطاع مقابلة ملكة اسكتلندا، ليقدّم لها الشكر على انقاذها للمساجين، الذين هم الآن في حرية تامة. ولو أنك تشاورت معه باستفاضة، فإن ذلك سيكون من الأمور الطيبة.

وقد أرسلت إلى معاليك نسخة من العفو عنى والممنوحة إلى من ملك أسبانيا بالترتيب والطريقة التي تسلمتها مع الألقاب العظيمة، ودرجات الشرف التي حصلت عليها من الملك (فيليب) والتي أنقذنى الله منها. ومن المعروف أن سلوك الاسبان كان مشينا، لهذا لم يركنوا إلى الكسل. فأطلب من الله أن يدمرهم، وأن يرد مكائدهم إلى نحورهم".

تحياتي وإخلاصى إلى معاليك.

جون هوكنز

وسأنهى هذه القصة العجيبة ببعض كلمات أخرى، إذ أنه بمساعدة مفتاح اللغز الذي تم الحصول عليه من فيتزوليام، ومن الاعترافات التي انتزعت من بعض الشهود الذين أدلوا بأقوالهم رغما عنهم، قد تكشف مؤامرة ريدولفى قبل أن تبدأ عملها. وأعدم نورفوك وأيضا أعدم الأوغاد اللثام. وكانت فرصة الهروب بالنسبة لملكة اسكتلندا ضئيلة. وفي الوقت نفسه كان البرلمان الانجليزي قد أكد الشخصية البروتستانتية في

كنيسة انجلترا، وذلك بتضمينه البنود الـ ٣٩ فى تشريع. ومنذ البداية لم يثق الفا فى ريدولفى، ولم يعد يرغب فى تشجيع التمرد، ورفض أن يهتم أكثر من ذلك فى القيام بالمزيد من المؤتمرات الأنجلو كاثوليكية بنفسه. والآن تستطيع اليزابيث وسيسل أن يتنفسا الصعداء بحرية، ويعطيا فيليب درسا بسبب عمليات التآمر الخطيرة التى كان يرتكبها ضد حياة الملوك.

وفى هذا الوقت كان وجود دى لامارك De la Mark وقراصنته فى الدونز Downs غير ملائم، طالما كان هناك سلام اسميا بين انجلترا وأسبانيا. وفى تلك الأثناء، أعلنت لجنة من التجار فى البروجز* Bruges، بأن خسائرهم (كما قلت) بلغت ما قيمته ٣ مليون من الدوكات. والآن أصبحت اليزابيث فى أمن نسبيا، ومالت الى الاستماع الى الاحتجاجات، عندئذ أرسلت الأوامر الى دى لا مارك، التى جاء فيها ما نصه "أنه من الواجب عليه أن يعد نفسه للرحيل". فمن المحتمل أنه هو والملكة كانا يفهمان كل منهما الآخر كما أن دى لا مارك عرف جيدا أين يذهب؟ وماذا عليه أن يفعل. وفى ذلك الوقت، كان الفا قد استولى على كل حصن فى الأراضى المنخفضة سواء فى الداخل أو على الساحل، فضلا عن قيامه بسحق الشعب فى هذه المناطق وبعد ذلك انتصب تمثال اللوق (أى تمثال الفا) فى ميدان فى أنتويرب وكأنه رمز على إلغاء الحريات القديمة للمقاطعات.

وفى الوقت نفسه، كان أمير الأورانج لا يزال يواصل الصراع البحرى غير المتكافئ بمفرده (ضد الفا) ولكن اذا كان عليه أن يحافظ على نفسه كقوة بحرية فى أى مكان، فإنه فى هذه الحالة يحتاج الى ميناء خاص به فى وطنه. وقد استخدمت دوفر، والتمس فترة من الزمن كمقاعدتين للعمليات، ولكنهما لم يستمرا طويلا، فبدون حصوله على موطئ قدم فى هولندا نفسها، فإن النجاح سيكون أمرا مستحيلا فى النهاية. وفى ذلك الوقت، كان العالم البروتستنتى مهتما بمصيره (أى بمصير الأورانج). وكان دى لا مارك، وما برفقته من تجمعات مختلفة، ضمت القراصنة الهجنوت والانجليز والهولنديين على استعداد تام للقيام بأى عمل بطولى مستमित.

* البروجز: ولاية صغيرة تقع فى الشمال الغربى من بلجيكا وغرب الفلندرز (المترجم)

وقد عم انجلترا الفرع عندما أتت الأخبار التي تفيد بأنه قد تم الاستيلاء على مدينة برييل. فجلجلت أجراس الكنائس، وتوهجت المشاعل وتدفقت النقود بكثرة، وعادت الاسر المنفية الى أوطانها (التي كانت قد فقدتها من قبل) لتكون أوطانهم مرة أخرى. وتحصن سكان الأراضي المنخفضة، والهولنديون في خنادقهم، واستعدوا لصراع برمائى ضد أعظم قوة فى ذلك الوقت على الأرض.

(الفصل الرابع)

رحلة دريك حول العالم

أظن أن بعض الأشخاص المعاصرين قد سمعوا عن اسم لوب دى فيجا Lope de vega الشاعر الأسباني، الذي عاصر فترة حكم فيليب الثاني. فقد يعرف القليل منكم عنه أكثر مما يعرف عن اسمه، ومع ذلك ينبغي أن يحوز على بعض اهتمامنا، لأنه كان واحدا من كثيرين من الأسبان الشبان المتحمسين الذين أبحروا في الأرمادا العظيمة (أى الاسطول الأسباني). وقد فشل لوب دى فيجا في بعض غرامياته، فهو كاثوليكي جاء مع ذلك، فقد رغب اللجوء ولا داعى هنا للقول بأنه قد وجد قدرا كافيا من اللجوء في القنال الإنجليزي، يكفى لابعاد متاعب غرامياته عن تفكيره. و بحياة بينت مغامراته (أى لوب دى فيجا) شخصية الأمة التي كانت دولته مشتبكة معها في حرب مميتة، أى بينت له على وجه الخصوص شخصية البحار الإنجليزي العظيم الذى عزا الأسبان اليه بصفة عامة هزيمتهم. وقد درس لوب الأعمال الجريئة لفرانسيس دريك، منذ ظهر وحتى نهايته، وقد تغنى لوب بهذه الأعمال الجريئة بحيث جعله (أى جعل دريك) بطلا للمحمة شعرية، بينما انجلترا نفسها لم تعتقد أنه يستحق ذلك. وعرفت ملحمة لوب دى فيجا باسم دراجونتي Dragontea (الذئب). فكان دريك نفسه هو الذئب في الملحمة، وكان هو أيضا الأفعى القديمة للأبوكاليز Apocalypse. وقد سمع لنا نحن الانجليز بأن نثنى ثناءا محددا واكيدا على دريك. واعترفنا نحن الانجليز أيضا بأنه كان بحارا جسورا بارعا، حيث أنه قام بعمل خدمة جليلة لوطنه عند الغزو. فنحن نوافق على أنه كان بحارا مشهورا، فقد أبحر حول العالم، بحيث لم يبحر شخص آخر قبله. ومع ذلك فقد كان لصا وقرصانا. والعزاء الوحيد له ، أنه لم يكن أسوأ من معظم معاصريه. فكان لوب دى فيجا هذا أسوأ منه بدرجة كبيرة، فكان الشيطان بعينه، بل كان تجسيدا لعبقرية الشر. وكان زعيم أعداء كنيسة الله.

وأنه لمن الجدير بالذكر، أن ننظر كثيرا وبصفة خاصة الى الرجل الذى ظهر الي الاسبان بصورة مربعة كهذه، فانا من ناحيتي اعتقد بأن الوقت سيأتى، ويمكن أن نرى أفضل مانراه الآن، وماذا كانت حركة الاصلاح، وماذا نحن مدينين لها. فسوف يشكل

قبطانه البحر فى عصر اليزابيث موضوع ملمحى قومى انجليزى عظيم فى عظمة الأودسا.

وبعد ذلك وبأسلوبى المتواضع، سأحاول من خلال هذه المحاضرات أن أرسم لكم رسم تخطيطى أو صورة لدريك وأعماله، كما تبدو هذه الأعمال لنفسى، فالיום أستطيع أن أعطيكم جزءا من القصة المتنوعة والثرية، اذا سارت كل الأمور على مايرام، ففى هذه الحالة أمل أن أتمكن من مواصلتها فى الزمن المستقبل.

وأنتى لم أنته بعد من السيرجون هو كتز، فسوف نسمع عنه مرة ثانية. فقد أصبح السيرجون هو كتز هذا مديرا لقرسات الزابيث. فهو الذى أعد السفن التى حاربت أسطول فيليب فى القناة، وفى ظل حالة كتك لم يسترب الماء الى أى منها، ولم تقتلع صاريا واحدا، ولم يفصل حبل فى غير وقته. وكان كل ذلك بأقل التكاليف. وقد خدم السيرجون هو كتز بنفسه فى الأسطول الذى جهزه، فكان هو كتز واحدا من مجموعة صغيرة من الأميراليات التى التقت فى يوم الأحد بعد الظهر فى كابينة السفينة رالى Raleigh وأرسلت السفن الحربية لدفع السفينة مدينا سيدونا Medina Sidona للخروج من مرساها فى كاليه.

وكان هو كتز ابن البحر، وفى البحر مات، وفى النهاية لفظ أنفاسه، فى أحضان إمه (البحر). ولكن بعدئذ يجب أن أتحدث الان على قريبه الذى لا يزال أكثر شهرة " هو فرانسس دريك". وبعامه، فقد أخبرتكم فى يوم سابق، من هودريك، ومن أى جهة قدم، وكيف ذهب الى البحر عندما كان صبيا، فقد لاقى عطا من سيده، وأصبح فى عهد مبكر يملك سفينة خاصة به وفى تلك الأثناء التصق بالتجارة التصاقا قويا، وأظنكم لم نسمعوا عنه شيئا، ولا عن صلته بقراصنة القنال. فانه لم يكمل حتى سن ال ٢٥ سنة، الا وكان هو كتز قد أغراه بالعمل فى صيد العبيد، والاتجار فيهم، وكانت هذه تجربة واحدة كافية. فهو لم يحاولها مرة أخرى.

وفى الواقع، فان صورته تختلف كثيرا، وانه لمن الطبيعى أن تكون كذلك لأن معظم هذه الصور التى قصد منها دريك لم تكن لدريك على الإطلاق، فان هذا هو النمط الذى كان سائدا فى هذا القطر، فهو نمط ردىء للغاية، فعندما نجد صورة شهيرة، وليس

لها اسم رسمى، يطلق عليها بطريقة عشوائية اسم رجل مشهور، وبهذا تظل مصدرا للحيرة والتضليل، وأحسن صورة أعرفها لدريك تلك الموجودة فى مجموعة السير وليام استرلنج ماكسويل Sir William Stirling Maxwell's الخاصة بمشاهير القرن السادس عشر، وهى تمثله بشكل واضح فى سن الـ ٤٣ سنة، كما تقول الكتابة الموجودة فى أسفل هذه الصورة فقد ظهر فيها دريك بوجه مستدير، وبجبهة عريضة مكتنزة، ويتدلى من على جانبيها شعر بنى قصير ومجدد، وكانت حواجبه مقوسة بشكل واضح، وأعينه حادة، ولامعة وواسعة، ولم يكن فى امكانى تحديد لونها، ولكن أستطيع أن أحكم بأنه يمكن أن تكون رمادية داكنة كعيون النسر، وكان أنفه قصيرا سميكاً، وكان الفم والذقن يختفيان تحت شارب كث، فوق الشفاة العلوية، و ظهر بلحية متساوية منتشرة فوق ذقنه وخديه. وتدل سمته على المزاج الطيب، ولكن دون لين فى العريكة، ودون أن تبدو عليه أى سمة للضعف، وكان دريك متوسط الطول قوى البنية، ولا يبدو للرحمة مكانا فى قوته. وقد تكون السترة المطرزة التى البسه اياها الفنان قد بالغت فى عرضه. ولقد رأيت له صورة أخرى، وزعم أنها أصلية، ويظهر فيها دريك بقوام أكثر نحافة، وبعيون سوداء منتفخة، عميقة التفكير وحازمة، ومن حول رقبتة وضع حبل البحار، والمتصل به صفارة، كما دفعت دبلة معدنية دون عناية فى الأبهام، الذى ارتكزت عليه ذراعيه بثقلها فى وضع مميز وبوضوح فإن هذه صورة مرسومة بعناية لبحار جدير بالاهتمام فى زمنه.

وأحب أن أصدق أنها لدريك، ولكننى لست متأكدا من ذلك.

وكنا قد تركناه (أى دريك) وهو عائد الى الوطن فى السفينة جودث من سان جوان دى أولوا وهو محطم. فهو لم يؤذ الاسبان أبدا. فكان قد رحل مع ابن عمه ليتاجر فقط، وقد تلقى استقبالا حارا من المستوطنين فى أى مكان يتواجد فيه. وقد غدر به أدميرال اسبانى وهاجمه هو وأقرانه، ودمر نصف سفنهم، و سلبهم كل مالديهم. وقد تركوا من خلفهم مائة من زملانهم الذين خشوا على مصيرهم ومنذ ذلك الحين، فصاعدا اعتبر دريك بأن الممتلكات الاسبانية حق خالص له الى أن يعوض خسارته. وانتظر فى هدوء لمدة أربع سنوات حتى أعاد بناء نفسه، وبعدئذ، بدأ يجرب حظله مرة ثانية بصورة

أكثر جسارة.

وقد تناقلت الألسنة السائبة سوء الحظ هذا، الذي أصاب دريك فى سان جوان دى أولوا. فقد كان هناك حديث كثير عن ذلك، وتورطت فيها أطراف كثيرة. ومن المعروف أنه كان لدى الحكومة الإسبانية علم بذلك، فاستعدت لذلك. وقد عقد دريك العزم على أن يعمل لحساب نفسه، دون أن يكون معه شريك، وأن يحافظ على سره. وقد وجد أناسا يثقون فيه، ويعطونه أموالهم له دون أن يطلبوا منه أية إيضاحات. وكان بحارة بليموث حريصين على أن يأخذوا فرصتهم معه. وكانت قوته صغيرة بشكل مضحك، فكانت تتكون من مركب شراعى وحيد الصارى، أو من مركب شراعى بصاريين. وتبلغ حمولتها مائة طن وقد أطلق على هذه السفينة اسم دراجون Dragon (ربما مثل اسم ملحمة لوب دى فيجا، أى مستغلا فى ذلك اسم دى فيجا) علاوة على مركبين شرعيين صغيرين. وفى نهاية فصل صيف عام ١٥٧٢م، غادر دريك بليموث على رأس هذه الحملة. وقد تحقق دريك بأن ذهب وفضة فيليب القادمة من مناجم بيرو Peru Vianmines قد أنزلت فى بنما Panama بعد ذلك حملت عبر البرزخ، على ظهور البغال، وعبر مجرى قناة دالسييس، وأعيد شحنها فى نومبردى دوا NombredeDois الواقعة عند مصب نهر تشاجر Chagre Rive .

لم يخبر دريك أى شخص عن الوجهة التى يتجه إليها، حتى أنه لم يتفوه بعد عودته بأكثر من الضرورى. وما يمكن معرفته بالتأكيد هو نتائج مغامراته لا تفاصيلها، وقد دفعته حكمته أن يحتفظ بمشورته، وقد احتفظ بها.

وفى منتصف القرن التالى، نشرت أسرة دريك تقريرا عن هذه الرحلة، ولكن كان من الواضح أنه حرا فى أجزاء منه، لأنها كانت مزيفة ولا يمكن الاعتماد عليها، فى أى مكان، ويمكن اثبات أنه ذهب الى نومبر، وأنه وجد طريقة الى المدينة، ورأى مخازن السبائك الذهبية هناك، التى كان يجب أن يحملها معه عند عودته، ولكنه لم يستطع. وأنا لا أصدق قصة معركة خيالية فى المدينة. فأولا، لأن عدد حملته كان صغيرا، فأى محاولة لاستخدام القوة ستكون مضحكة، وثانيا: لو كان هناك حقا شئ مثل معركة، لانذرت المناطق المجاورة. ومن الواضح أنه لم يعط أى انذار. وكان يوجد فى الغابات

جماعات من العبيد الهاريين الذين عرفوا باسم سيمارونز Cimarons. وقد قدم دريك نفسه لهؤلاء الذين تطوعوا (من السمارونز) لارشاده الى المكان الذى يستطيع منه أن يفاجئ قافلة الكنز (الاسبانية)، وهى فى طريقها من بنما. وكانت تحركاته تتم بسرعة، وفى صمت. وقد وقعت حادثة عرضية خطيرة، وهى حقيقية موثوق بها، فقد أخذه السيمارونز عبر الغابة الى مكان تجمع المياه التى منها تتدفق المجارى المائية الى المحيطين. وكان لا يمكن رؤية أى شئ عبر غابة من الحشائش الطويلة، ولكن دريك تسلق شجرة طويلة، ورأى من قمته المحيط الهادئ يتألق من أسفله، وقد أقسم أنه فى أحد الأيام سيبحر بنفسه فى سفينة فى تلك المياه.

وفى ذلك الوقت، كان أمامه عمل عاجل، واحترم المرشدون كلمتهم معه، فقادوه الى الطريق القادم من بنما، ولم ينتظر طويلا، قبل أن يسمع طنين أجراس البغال عندما كانت قادمة عبر هذا المعر. فلم يكن هناك شك فى الخطر، حتى فى أقل ما يمكن أن يحدث منه. وكان لقافلة البغال حارسها العادى، هذا الحارس الذى هرب عند أول مفاجئة. وسقطت كل غنائم القافلة فى أيدي دريك، من ذهب ومجوهرات، وقضبان فضية، فبسهولة حصل على الكثير، كما قال أمير هول Prince of Hall فى جاد شيل Gadshill وقد دفن دريك الفضة فى الأرض، لأنها كانت ثقيلة فى نقلها. وحمل أتباعه الذهب واللؤلؤ، والياقوت والماس والزمرد مباشرة الى سفينتهم. وكانت رحلة العودة الى الوطن ناجحة. وقد قسمت الغنائم المسلوقة فيما بين المغامرين، بحيث لم يكن لديهم ما يدعوا للشكوى. وكانوا من الحكمة أن أمسكوا بأستنتهم فكان دريك فى وضع يتفحص فيه ماحوله، ويستعد للقيام بمغامرة أكبر.

ورغم هذا التكتم، فقد راجت اشاعات فى الخارج. عندئذ، طارت التخييلات فى الأفاق، واعتقد الهواة المتهورون بأن فى استطاعتهم أن يحققوا ثروات بنفس الطريقة، وحاولوا ولكن دون جدوى.

ومن الممكن أن نتلمس نوعا من الغرور، أصاب تفكير البحارة الانجليز عندما اتسعت اعمالهم. حتى أن آل هوكنز - المستنيرين منهم والعلميين - قد أصابتهم العدة. ولم يكن هذا فى أسلوب دريك الذى التزم بالواقع والحقيقة فدرس الكرة الأرضية.

وتفحص كل الخرائط التي استطاع الحصول عليها، بحيث أنه أصبح معروفا لمجلس شورى الملك والملكة، عندئذ أعد لمغامرة ستشهر اسمه، وترعب فيليب بصورة حادة. وكانت السفن التي استخدمها الاسبان في المحيط الهادى، تبنى في الحال ولكن عرف أن ماجلان قد ذهب عن طريق القرن، فأينما ذهب البرتغاليون ذهب الانجليز، وقد اقترح دريك أن يحاول ذلك، وكان هناك مجموعة في مجلس اليزابيث ضد هذه المغامرات كما كانت في نفس الوقت تعمل لصالح السلام مع أسبانيا وكانت اليزابيث تؤيد المشاريع المهمة والسريعة، فكان لها الرغبة في تقديم المساعدة (لدريك)، وكان لبعض الأعضاء الآخرين نفس الرغبة بشرط عدم ذكر اسمائهم، ولكن كانت المسئولية تقع كاملة على كاهل دريك. ومرة ثانية فإن السفن التي كان يعدها ليحرب بها حظه كانت بليكان Pelican أو السفينة جولدن هند Golden Hind ، التي كانت خاصة بدريك نفسه، والتي كانت حمولتها تبلغ ١٢٠ طنا، فهي لم تكن أكبر من مركب شراعى حديث ذي مجاديف.

ورغم أنه لا يوجد مركب شراعى سريع ذو مجاديف قد تم بناؤه في ترسانة هويت White's Yard، إلا أن السفينة بليكان هي التي كان من الممكن أن تؤدي هذا العمل. وكانت المركب التالية تتمثل في السفينة ' اليزابيث'، التي كانت قد قدمت من لندن، ويقال بأن حمولتها بلغت ٨٠ طنا، فضلا عن وجود مركب شراعى صغير تبلغ حمولته ١٢ طنا. وينبغى علينا أن نخاطر بهم جميعا في جولة صعبة حول الأرض، وسترافقنا سفينتان حربيتان تبلغ حمولة احدهما ٥٠ طنا، وتبلغ حمولة الأخرى ٣٠ طنا، وهما يمثلان بقية الأسطول. وكانت السفينة اليزابيث تحت قيادة الكابتن ونتر Captain winter ضابط الملكة، ومن المحتمل أنه كان ابنا لأمير بحر عجوز.

وكان لدريك الفخر بأنه كان على علم بما كان سيقوم به، فهو وزملاؤه، كانوا يحملون حياتهم على أيدهم، فلو تم أسرهم، فأنهم في هذه الحالة سيصبحون لا محالة، وأن سلامتهم في هذه الحالة أيضا تعتمد على سرعة الإبحار، وبخاصة على قوة العمل السريع، وذلك بمساعدة الريح. فالسفن المسطحة الثقيلة لا تستطيع القيام بمثل هذا العمل. وبلغ عدد أطقم هذه السفن - على حد ما علم به - ١٦٠ شخصا من الرجال

والصبيان. وكان برفقة دريك شقيقة جون، وكان من بين ضباطه أيضا قسيسا يدعى المستر فلتشر Fletcher ، علاوة على كاهن آخر من النوع الذى يتحدث الأسبانية. كما كان يوجد ضمن أفراد البعثة المستر دوتى Mr. Doughty الذى كان فى إحدى سفن دريك، والذى كان غامضا، وغير مفهوم. فمن هو المستر دوتى هذا، ولماذا أرسل. هذا لم يكن مؤكدا أو معروفا. فعندما كانت أية بعثة هامة، جاهزة لبدء مهمتها، فإن المجموعة الموالية للأسبان فى مجلس الوزراء (البريطانى) كانت فى العادة تلحق بها (أى بهذه البعثة) شخصا يكون بمثابة الرجل الثانى فى القيادة، وتكون مهمته تعطيل هدف البعثة. وبعد سنوات، وعندما ذهب دريك الى قادش ليشذب لحية فيليب، كان قد أرسل معه (أى مع دريك) زميلا له، فهذا الزميل هو الذى كان عليه أن يحبس فى داخل الكيكة (أى كابينة سفينة دريك) قبل أن يبدأ (دريك) عمله. وعلى قدر تصورى فأنا المستر دوتى كانت له نفس المهمة. وبهذه المناسبة كانت السرية مستحيلة. وكان من المعروف فى العادة أن دريك كان عليه أن يذهب الى المحيط الهادى، عن طريق مضائق ماجلان، كى يعمل بعدئذ، أو فيما بعد بما تمليه عليه حكيمته. وفى ذلك الوقت كان السفير الاسبانى (فى إنجلترا) هو دون برناردينو دى ماندوزا Don Bena'rdino de Mondoza الذى أخبر فيليب بما هو مقصود ، ونصحه (أى نصح فيليب) أن يصدر الأوامر من أجل اغراق كل سفينة انجليزية على الفور، كما كان عليه أن يعدم كل بحار انجليزى يظهر على أى جانب من جوانب البرزخ فى مياه جزر الهند الغربية. وبالفعل أرسلت الأوامر على وجه السرعة ويبدو أنه كامن المستحيل على أى قرصان انجليزى أن يتمكن من الوصول الى المحيط الهادى لدرجة أن كل اهتماماتهم تركزت على البحر الكاريبى، ولم ترسل أى إشارة بانذار الى الجانب الآخر.

وفى ١٥ من شهر نوفمبر عام ١٥٧٧ م ، أبحرت السفينة بليكان ورفيقاتها من ميناء بليموث سوند Plymouth sound ، وقد عبست لهم الاقدار عند بدء الرحلة، ففى اليوم الثانى، فاجأتهم عاصفة شتوية هوجاء عندما رفعت السفينة بليكان ساريتها الرئيسية. ثم بعد ذلك، عادوا لاعادة التجهيزات، واصلاح ماتلف. ولكن دريك تحدى تنبؤات العرافة، فقبل منتصف شهر ديسمبر كان كل شئ على مايرام مرة ثانية، فمع

تحسن الطقس والرياح الجميل والمياه الهادئة، بدأوا رحلتهم على وجه السرعة ، عبر خليج بسكاي، وهبطوا مع الساحل الى جزر الكيب دى فيرد The cape de verd Island وهناك شرع دريك فى استغلال الرياح التجارية التى تهب من الشمال الشرقى. وبعد ذلك، نفنوا الى المحيط الاطلنطى، وعبروا خط الاستواء، واستقروا جنوب خط عرض ٣٣° فى قارة أمريكا الجنوبية. وبعد ذلك، مروا من مصب نهر البليت Plate. R واندھشوا عندمات وجنوا فى النهر المياه العذبة بجانب السفينة وهى على عمق ٣٢٤ قدما.

ويبدو أن كل شىء كان يسير على مايرام ، عندما اختفت سفينة المستر دوتى فى صباح أحد الأيام، وكان هو على متنها. وقد بدا أن دريك كان لديه سبباً من قبل فى عدم ثقته فى دوتى، فقد خمن فى الجهة التى اتجه اليها وأرسلت السفينة مارى جولد فى أثره، فلحقته وأعادته. ولنع تكرار ماحدث فأن دريك استولى على مخزون السفينة وأحرقها، ووزع طاقمها على السفن الأخرى، وأخذ المستر دوتى تحت رقابته. وفى ٢٠ من شهر يونيو، وصلوا الى ميناء سنت جولين، الواقعة على الساحل باتا جونيا Patagonia واستغرق سيرهم فى الطريق وقتاً طويلاً، وكان الشتاء الجنوبى قد أقبل، وكان عليهم أن يتأخروا مدة أكثر ، لكى يقوموا بعمل استقصاء معين، بسبب ترك دوتى لهم فى أثناء الرحلة، وعندما دخلوا الميناء، وقعت عيونهم على منظر عجيب وغريب، بعث هذا المنظر على التشاؤم. ففى تلك البقعة المنعزلة أو المهجورة تماماً كان هناك هيكل عظمى يتأرجح على مشنقة، وقد أنت الطيور الجارحة على لحمه حتى أصبح هذا الهيكل نظيفاً تماماً. وكان هذا الهيكل لأحد أفراد بحارة ماجلان الذى أعدم هناك بسبب التمرد، قبل خمسين عاماً. وكان هذا المصير قد وقع لرجل انجليزى تعس، كان قد ارتكب ذنباً لنفس الخطأ. فبدون نظام صارم، فانه كان من المستحيل للمشروع أن ينجح. وقد كان دوتى هذا مذنباً ، بما هو أسوأ من التمرد. وقد أخبرنا بأختصار بأن سلوكه كان يميل الى النزاع وتهديد نجاح الرحلة. وقد قيل انه اعترف، وقيل أيضاً أنه قد ثبتت ضده أشياء، ولكن لا نعرف نحن شيئاً عما حدث. وشكلت محكمة لدوتى من أفراد الطاقم، وحوكم على حسب ما سمحت به الظروف ، وعلى حسب العرف الانجليزى

صار مذنب !!!، وحكم عليه بالأعدام، ولم يقدم دوتى أى شكوى أو على الأقل لم يحفظ أى منها فى سجل. وقبل الاعدام، طلب القربان المقدس، وبالطبع سمح له بذلك، وقام دريك بدور قسيس الوعظ.. وبعدئذ، قبل كل منهما الآخر، وأستاذن هذا التعس - سىء الحظ - من رفاقه، ووضعت رأسه على وضع، وبعد ذلك، فصلت عن جسمه. ويمكن التخمين فقط فى الذنب أو الأساءة التى ارتكبها ولكن الريبة، والفضول حول مصيره، الذى ظهر بعد ذلك بواسطة مندوزا، فقد قيل أنه من المحتمل كان مأجورا من الأسبان. بوضوح، وعلى وجه الخصوص فقد سأل السفير الاسبانى الكابتن ونتر Winter بشأن (دوتى)، وعلمنا بحقيقة ملفته للنظر، من خطابات مندوزا، الذى لم يذكرها أى كاتب انجليزى وهو أن دريك نفسه الجلال اختار أن يتحمل المسؤولية كاملة.

وقد كتب شاهد عيان يقول " فبعد أن تم ذلك (أى الاعدام) ألقى الجنرال دريك خطبا مختلفة الى كل مجموعتنا، وحثنا على الوحدة والطاعة والاحترام لرحلتنا. ولتأكيد ذلك بطريقة أفضل سمح لكل رجل منا فى يوم الأحد التالى أن يقوم بقداش، كما ينبغي أن يقوم به أخوة وأصدقاء مسيحيون، وقد تم ذلك بطريقة مهيبة. وبعد ذلك، مارس كل رجل منا عمله برضا تام ويجب عليكم أن تتناولوا هذه الحادثة الأخيرة بتصوركم لشخصية دريك، وفكروا فيها كيفما تشاءوا.

وفى ذلك الوقت كان يصادف منتصف فصل الشتاء، وهو أكثر فصول السنة عواصف، عندئذ ظلوا ستة أسابيع فى ميناء سنت جوليان St. Julian وهناك أحرقوا قاربا شرايعا حمولته ١٢ طنا، لأنه كان صغيرا، ولا يتناسب مع العمل الموجود أمامهم، ولكن فى نفس الوقت، بقيت السفينة بليكان فقط و السفينة اليزابيث، والسفينة مارى جولد. وبعد ذلك رفعوا مرساهم فى جو عاصف وبارد. وفى ٢٠ من شهر أغسطس دخلوا مضائق ماجلان التى بلغ طولها ٧٠ ميلا، والتى كانت متعرجة وخطيرة، وفى نفس الوقت، لم يكن لديهم خرائط. وعند تقدمهم. تقدمتهم قوارب السفن التى أجرت رسدا للأحوال الجوية أثناء هذا التقدم، ومن كل جانب تدلت من فوقهم الجبال الجليدية، وتساقط الجليد الثقيل. وأحيانا كانوا يقفون من وقت لآخر، عند جزيرة لينعم الرجال ببعض الراحة وليقتلوا القليل من عجول البحر (الفقمة)، ومن طيور البطريق لكى

يحصلوا منها علي طعام طازج. فكل شئ، كانوا قد رأوه ، كان جديداً ، وقفراً ومدهشاً .
 ولما كان عليهم أن يتلمسوا طريقهم ، فقد ظلوا ثلاثة أسابيع فى السير، وقد
 اعتمدوا فى وصولهم الى المحيط الهادئ، على الانتهاء من أسوأ واجب (القى على
 عاتقهم)، واستطاعوا أن يدخلوا فى الحال الى خطوط عرض أكثر دفئاً، وأكثر هدوءاً.
 وعندما دخلوا الى المحيط الهادئ تاركوا من أنه أعنف محيط هم أبحروا فيه. وفى تلك
 الأثناء، هبت عليهم عاصفة غربية هوجاء عنيفة، دفعتهم ٦٠٠ ميل الى الجنوب الشرقى
 من مخرج القرن. وحتى هذا الوقت، كان يظن بأن تيرا دل فيوجو Tierra del fuego
 كانت أرضاً صلبة، تقع فى منطقة القطب الجنوبي. وكانت المضائق هى وسيلة الاتصال
 الوحيدة، بين المحيط الأطلنطى والمحيط الهادئ. وفى ذلك الوقت كانوا قد عرفوا الشكل
 الحقيقى، وخاصة القارة الغربية. وعند خط طول رأس الهورن Cape Horn تهب
 عاصفة غربية دائمة هوجاء، حول الكرة الأرضية ، وتكون أمواجها أعلى من أى أمواج
 فى أى مكان آخر معروف. وقد واصلت السفينة مارى السير فى هذه المواجهة الهائجة.
 وأما الكابتن ونتر ، فقد عاد بسفينته اليزابيث الى مضائق ماجلان، وهناك رسى لمدة
 ثلاثة أسابيع، وكان خلالها يشعل النيران ليلاكى يوضح لدريك أين هو، ولكن مع ذلك،
 فلم يظهر دريك، مع انهما كانا قد اتفقا، على أنهما اذا افترقا، فانهما سيلتقيان على
 الساحل فى خط عرض فالبريسو Valparaiso ، ولكن كان ونتر جباناً، أو أنه كان
 خائناً مثل دوتى، ومن المحزن، أننا أخبرنا " أنه كان على عكس رغبة البحارة، فقد
 أبحر بعد انتهاء الثلاثة أسابيع الى إنجلترا، وهناك أبلغ أن كافة السفن قد فقدت عدا
 بليكان، وحتى بليكان ربما كانت قد فقدت أيضاً. وكان دريك حسن الظن فى ونتر، فلم
 يتوقع أن يهجره هكذا. وكان دريك نفسه قد اتخذ ملاذاً بين الجزر التى تكون الرأس،
 منتظراً فصل الربيع بل أنه أنتظر جواً أكثر اعتدالاً. واستغل دريك الوقت فى عمل
 مسح للأراضى، كما راقب عادات المواطنين الباتا جونيين، الذين وجدهم سلالة عنيفة،
 والذين كانوا يسيرون عراة وسط الجليد والثلج. وطالت الأيام بدريك، وفى النهاية، أصبح
 البحر ساكناً. عندئذ، أبحر دريك الى فالبا ريسو، أملاً أن يلتقى بونتر هناك على حسب
 اتفاقهما السابق، ولكن ونتر لم يظهر هناك، وبدلاً من ذلك ، وجد فى الميناء سفينة

شراعية ضخمة، كانت قد أتت من بيرو. وظن طاقمها أن دريك كان أسبانيا، فرفعوا أعلامهم، ودقوا طبولهم. و أطلقت السفينة بنيرانها من الجنب، وقفز البحارة الانجليز وهم فى روح معنوية عالية على ظهر السفينة الشراعية. واستطاع غلام من بليموث - يتحدث اللغة الأسبانية - أن يطرح أرضا أول رجل قالبه، صائحا بالقول Abago Perro Down you dog down.

ولم يقتل أحد ، ولم يؤذ دريك أى أنسان كلما استطاع ذلك. وباركوا أنفسهم برسم الصليب على صدورهم. وقفزوا من على ظهر السفينة الى البحر، وسبحوا الى الشاطئ، وتفحصوا الغنيمة، ووجدوا فى السفينة ما تقدر قيمته بـ ٤٠٠ رطل من الذهب، بالإضافة الى الغنائم الأخرى وبعد أن نهب دريك ورجاله السفينة، اتجهوا الى الشاطئ ليلقوا نظرة على المدينة. وفى تلك الأثناء، هرب كل السكان، وفى الكابينة وجدوا كأس القربان وابريقين زجاجين، وأعطية المذبح التى حوت ملكيتها الى القسيس المرافق (لهم) كى يحسن أدوات قداسه. واكمل نهبيهم، بالاستيلاء على المرشد اليونانى الذى عرف الطريق الى ليما - وعلى بضعة براميل كبيرة من النبيذ.

ومن المحتمل أنك ستقول أن هذه قرصنة فظيعة، ولكن كان من الممكن أن يكون ما فعله دريك صحيحا، وخدمة جيدة، لو كانت الحرب قد أعلنت. ومن المعروف أن جوهر الأشياء لا يغير من شكلها. جوهرها كانت هناك حرب مميتة بين فيليب واليزابيث. وحتى فيما بعد، وعندما أبحرت الأرمادا، فلم تكن هناك حرب معلنة بشكل رسمى. وتكمن الحقيقة فى الجزء الهام من المسألة فقد كان خربة بضربة، وقد برهن الذراع الانجليزى على أنه هو الأقوى.

ولا يزال دريك يأمل فى ايجاد وتتر امامه، فواصل دريك السير بالتالى الى تاراباكا Tarapaca، حيث شحنت الفضة من مناجم الأنديز Andes الى بنما. وفى تاراباكا ، كان يوجد هناك خطر غير معروف (مجهول الابعاد). فقد كومت قضبان الفضة على الرصيف، وكان سائقوا البغال الذين أحضروا هذه القضبان نائمين بجانبها باطمئنان تحت أشعة الشمس. وترك سائقوا هذه البغال فى نومهم العميق. ونقلت تلك القضبان الفضية الى القوارب الانجليزية وفى نفس اللحظة، أتت قافلة من البغال، أو

من حيوانات اللاما، وهي محملة بشحنة ثانية ذات قيمة كأولى. فكل هذا شحن فى السفينة بليكان. فالسباك التي أخذت فى تاراباكا قدرت بنصف مليون من الدوكات. ولم تصل أخبار عن ونتر بعد. وبدأ دريك يتحقق من أنه أصبح وحيدا تماما لذا نجده يعتمد على نفسه أولا، ثم على طاقمه فقط. وكان لا يوجد شئ يعمل إلا أن يواصل مهمته الخطره. وكانت أريكا Arica (مدينة تقع شمال شيلي)، وهى النقطة التالية التى زارها. فقد حصل منها على ٥٠ كتلة من الفضة. وبعد أريكا، وصل الى ليما، التى كانت المحطة الرئيسية للجميع، حيث تم البحث فيها عن أكبر غنيمة، وفى ليما، يالاحسرة! تأخروا تمام. ورسى هناك اثنتا عشرة سفينة ثقيلة وبطيئة. وبقيت الأشربة مشرعة، وكان الرجال على الشاطئ (أى أطلق هذه السفن) ولم تحتو هذه السفن على أى شئ، إلا على بعض صناديق من قطع العملة، وقليل من بالات الحرير والكتان. ولكن السفينة الثالثة عشرة من هذه السفن، التى أطلق عليها الآلهة اسم "سيدة التصور" أو الفهم، والتى أطلق عليها الرجال اسم كاكافيجو Cacafuego - وهو اسم صعب ترجمته - كانت قد أبحرت منذ أيام قليلة الى البرزخ، وعليها كل انتاج مناجم ليما Lima لهذا الموسم. وكان ثقلها من الفضة، وشحنتها من الذهب والزمرد والياقوت.

ويتمادى، قطع دريك حبال السفن التى تربطها بالمرساة، حتى تندفع الى الشاطئ، فلا يستطيع البحارة الأسباب اللاحق بها، ونشرت السفينة بليكان أشربتها جميعا، واقتفت أثر السفينة الثالثة عشر. وكان فى الاستطاعة التعرف على تلك السفينة (كاكافيجو)، وذلك بواسطة شكل أشربتها الغريبة، كما علم دريك بذلك فى ليما. وقد وعد أول رجل يراها بسلسلة من الذهب كمكافأة له. وفى اليوم الثانى رأى شراع، ولكنه لم يكن شراع السفينة المقصودة بل كان من الجدير التوقف من أجلها. ووجد عليها ما قيمته ٨٠ رطلا من الذهب، كما وجد عليها أيضا صليباً من الذهب، مرصعا بالزمرد، ويقال أن هذا الزمرد كان كبيرا فى حجم بيض الحمامة، فاستولى دريك وجماعته على حمولتها، وبعد ذلك تركوها وشأنها. وبعدئذ واصلوا السير، وقد علمنا من القصص الأسبانية أن نائب الملك فى ليما بمجرد أن أفاق من دهشته أرسل

سفينة فى مطاردة (دريك ورفاقه). وقد لحقت سفن نائب الملك فى ليما بأخر سفينة مسلوبة، وسمعوا قصصا مرعبة عن قوة سفن القراصنة. لذا عادوا للحصول على قوة أكبر ، وفى تلك الأثناء، تقدمت بليكان فى مسارها مسافة ٨٠٠ ميل. وعندما وصلت الى خط عرض كويتو Quito ، رؤيت الأشرعة الغربية لكাকা فيوجو. عندئذ طلب المرشد حقه فى السلسلة الذهبية. وهناك رأوا السفينة محملة بثمار حدائق علاء الدين Aladin . وكانت هذه السفينة تتهاذى على بعد أميال قليلة أمامهم. وهناك كانت الحاجة ماسة الى الحرص الشديد عند الاقتراب منها، فلو عرفت السفينة كাকা فيوجو هوية السفينة بليكان، فلربما تندفع نحو اليايسة، وبذلك يفقدها دريك. وكان ذلك بعد الظهر وكانت الشمس لا تزال فوق الأفق، ولكن دريك عقد العزم على أن ينتظر حتى الليل، وحتى يهب النسيم من البر الى البحر، كما كان يحدث دائما فى المناطق الاستوائية.

وأبحرت السفينة بليكان بسرعة تبلغ ضعف سرعة كাকা فيوجو، عندئذ ملأ دريك قرب نبيذه الفارغة بالماء، وعلقها فى مؤخرة السفينة كى يوقفها. وظلت السفينة الطريدة كাকা فيوجو، بأن سفينة تجارية - عليها حمولة ثقيلة - تتبعها ، وترغب فى صحبتها، فى رحلة موحشة مثل هذه الرحلة. عندئذ ، تباطأت السفينة كাকা فيوجو فى سرعتها، و انتظرت حتى تلتحق بها الأخيرة. و أخيرا غربت الشمس فى المحيط، وتلاشى الضوء الوردى من على ثلوج الأنديز. وعندما اختفت السفينتان عن الأنظار من الشاطئ سحبت القرب، وهب نسيم الليل وبدأ الماء يتموج تحت مقدمة السفينة بليكان، وبسرعة تم اللحاق بالسفينة كাকা فيوجو، وعلى مسافة بطول حبل، ارتفع صوت من السفينة بليكان ينادى بوضع مقدمة السفينة كাকা فيوجو فى مواجهة الريح. ولم يفهم القائد الاسبانى هذا الأمر الغريب، لذلك واصل طريقه. وبعدئذ، اسقطت طلقة قائم الشراع هذه السفينة أيضا، فجرح القائد الأسبانى نفسه، وأصبحت السفينة " سيدة الفهم" وحمولاتها الثمينة تحت سيطرة القرصان دريك. ونقل على الفور كل ما فى هذه السفينة (كাকা فيوجو) حتى البحارة الأسبان أنفسهم الى سفينة القرصان (دريك). ووجهت كل السفينتين مقدمتهما الى البحر. وعند الفجر لم يكن هناك أثر لليابسة، وبدأ دريك فى فحص الغنائم، و لم يستطع التوصل الى معرفة القيمة الكاملة للشحنة، فاذا

كان هناك قائمة بهذه الأشياء الثمينة فقد اتلفت ، ومع ذلك فقد كانت الأرقام الدقيقة معروفة فقط لدريك والملكة اليزابيث. ونشر جدول أو قائمة تعترف بوجود عشرين طنا من السبائك الفضية و١٣ صندوقا من قطع النقود الفضية، ومائة رطل (١٠٠ رطل) من الذهب على ظهر السفينة كاكا فيوجو، علاوة على وجود كتل رخام من الذهب غير محددة الكمية، ومخزون كبير من اللؤلؤ Pearls والزمرد Emeralds والماس Diamonds وأثبتت الحكومة الإسبانية أن خسارتها بلغت مليوناً ونصف المليون من اللوكات، هذا بخلاف المتعلقات الشخصية، ولا يمكن حصر مجموع ماتم الاستيلاء عليه. وكان دريك - كما قيل لنا - راضياً تماماً. واعتقد أنه لا يعد من الحصافة ولا من الضروري المكوث في المناطق المجاورة أكثر من اللازم، فاتجه شمالاً وكانت جميع أشرعته مشرعة، وبهرفته غنيمة، والقبطان والإسباني المدعو سان جوان دي أنتون Sanjuan de Anton، الذي نقل إلى ظهر السفينة بليكان للعناية بجراحة. وبقي كضيف لدى دريك لمدة أسبوع، وأرسل هذا القبطان تقريراً عما لاحظته إلى الحكومة الإسبانية. وفي الوقت نفسه، كان هناك واحد من جماعة دريك (بحارة دريك) على الأقل يتحدث اللغة الإسبانية بطلاقة، فأخذ القبطان الإسباني سان جوان دي أنتون في جولة في أنحاء السفينة بليكان. وقال سان جوان دي أنتون أن هذه السفينة يبدو عليها علامات الخدمة الشاقة، ولكنها مازالت في حالة جيدة، وبها أسلحة وفيرة، ولديها مخزون من الحبال، والمعاول، وأبوات نجارة من كل نوع. وهناك كان يوجد ٨٥ من الرجال على ظهر هذه السفينة. كان خمسون منهم من رجال الحرب وكان الباقي من الشباب الصغير السن الذين كانوا يمثلون بحارة السفينة وكان دريك نفسه، يعامل باحترام كبير من قبل هؤلاء الأشخاص جميعاً. فدائماً كان يقف حارس عند باب كابينته. وكان دريك دائماً يتناول غذاءه على أنغام الموسيقى بمفرده، ولم يحط أي غموض بمغامرات بليكان، و أظهر القس إلى سان جوان الصليب المرصع بالزمرد، وسأله إذا كان هو يؤمن بجدية بأن هذا هو الله. وسأل سان جوان دريك كيف قرر أن يعود إلى أرض الوطن. عندئذ عرض دريك على هذا القائد الإسباني الكرة الأرضية، وعليها ثلاثة مسارات ممتدة فكان هناك الطريق الذي أتى منه. وهناك أيضاً الطريق الذي يمر بالصين ورأس الرجاء

الصالح. وهناك كذلك طريق ثالث لم يوضحه بعد. وتساءل سان جوان بالقول، هل كانت إنجلترا وأسبانيا فى حرب ؟ فأجاب دريك، بأن لديه تفويض من الملكة يقضى بأن كل مايضع يده عليه يكون ملكا للملكة، وليس ملكا له. وعندئذ، أضاف دريك بأن نائب الملك فى المكسيك قد سلبه وقريبه غنائمهما، وهو الآن يقوم بتعويض خسارته الجسيمة. وقال دريك واضعا على موطن الداء " أنا أعرف أن نائب الملك سيرسل اليك لتخبره عن خطواتى، فأخبره بأن من الأفضل له الا يقتل مزيدا من الانجليز، وأن يصفح عن هؤلاء الذين وقعوا فى قبضته فاذا هو أعدمهم (أى المغامرين الانجليز) فأنا سأعدم ٢٠٠٠ الفين من الأسبانيين، وأرسل له ريسهم.

وبعد تأخير دام أسبوعا، عاد سان جوان، ورجاله بالسفينة كاكافيو، وهى فارغة.، وقد سمح لهم بالعودة. وفى طريق عودتهم قابلوا (دريك وجماعته) سفينتين، كانتا قد ارسلتا من ليما لمطاردتهم، ودعمتا بسفينة ثالثة من بنما. وهى جميعها مسلحة تسليحا كاملا، وطبقا لرواية هذه السفن، فقد جاؤا خلف بليكان، ولكنهم كانوا يخشون دريك كشيطان مثلما خشاه لوب دى فيجا. واعترفوا بأنهم لم يجرؤا على مهاجمته. ومرة ثانية عادوا ليطالبوا المزيد من المساعدة، وقد نعتهم نائب الملك الأسباني فى المكسيك بالجبن، واعتقل الضباط ، وارسل آخرون بأوامر حاسمة، تقضى بالقبض على دريك، حتى ولو كان ابليس.

ولكن فى ذلك الوقت، فان زائرهم (أى دريك) - موضوع الحديث كان قد هرب فلم يعرفوا عنه شيئا، وربما قد انتابهم السرور عندما فشلوا فى ايجاد شئ عنه. وعلى الفور، أرسلت بعثة مستعجلة عبر الأطلنطى الى فيليب، وأرسل أسطول من قادش كى يراقب مضائق ماجلان، وأرسل اسطول آخر كى يراقب البحر الكاريبى. وكان من المعتقد أن الطريق الثالث الذى سيأخذه دريك ليس طريقا بحريا بالمرة، حيث أنه قصد أن يغادر السفينة بليكان فى دارين Darien ويحمل أسلابه عبر الجبال، ثم يقوم ببناء سفينة فى هندوراس، كى تنقله الى أرض الوطن. وكانت فكرته الواقعية، أنه من الممكن أن يحدد الطريق الواقع الى الشمال من المدخل الشرقى، الذى اعتقد كل من فروبيشر Frobisher، وديفس Davis بأنهما قد وجداه. ووقف فى اتجاه كاليفورنيا

ملتقطا من وقت لآخر، السلع الصينية التجارية، المتمثلة في الحرير والخزف، والذهب والزمرد، وكانت المياه العذبة ضرورية في هذا الوقت، فقد حصل عليها من جوتولكو Guatulco.

وكانت خطواته سريعة ومبهجة. وفي جوتولكو هذه، (مدينة أسبانية) كان كل من المدير والقاضي عاقدين جلسة محاكمة فوج من الزنوج. وفي نفس تلك اللحظة ظهر طاقم أحد القوارب الانجليزية في المحكمة. فقد قام هذا الطاقم الانجليزي بتقييد أيدي وأقدام كل من المدير والقاضي، وبعد ذلك تم نقلها الى السفينة بليكان، حيث بقوا بها كرهائن حتى يتم ملئ قرب المياه (اللزجة للإنجليز).

ومرة أخرى، وفي اتجاه الشمال، قابل دريك سفينة حربية شرعية كانت تحمل حاكما جديدا للفلبين، فقام دريك باراحة الحاكم من صناديقه ومن مجواه رته. وعندئذ، قال أحد أفراد المجموعة "أن قائدنا لا يفكر الا من جانب الأضرار الخاصة التي تلحقها من الأسبان، وكذلك الأهانات والاحتقارات التي وجهها لوطنتنا وأميرنا. وهو بذلك يشعر بالرضا والرغبة في الانتقام، وحيث إنه يعتقد بأنه جلاله الملكة ستكون راضية عن خدماته، فانه بدأ يفكر في أفضل الطريق الى الوطن". وكانت الضرورة الأولى هي الفحص الشامل للسفينة بليكان. وقبل أيام التغليف بالنحاس، كانت النباتات المائية تنمو بكثافة تحت الماء، وكانت الحيوانات البحرية والقشرية تتجمع في مجموعات كبيرة، وتعوق السرعة، وكانت الديدان البحرية تنفذ الى الألواح الخشبية وكانت المسافة بين السفينة بليكان وبين بليموث سوند ٢٠ ألف ميل في ذلك الوقت.

ولم يكن دريك بالرجل المتكاسل، فقد استمر في سيره متتبعا طريقه الشمالي حتى ترك أبعد مستوطنة أسبانية جهة الجنوب، وبعد ذلك دخل خليج كانايوس في كاليفورنيا، وهناك القى بليكان بمراسيها على الشاطئ وأقام دريك ورشة حدادة، كان بها كير. وبعد ذلك عاود رحلته في ١٦ من شهر أبريل عام ١٥٧٩ م، بعد أن زودت سفينته بحبال وأشرطة جديدة. وسار بمحاذاة الساحل حتى أوريجون Oregon. وأصبح الهواء باردا مع أن الرحلة كانت في فصل الصيف. وقد شعر الرجال به لبقائهم مدة طويلة في المناطق الاستوائية، حتى وهنت صحتهم. ولكن لم تبد أية علامات أو دلائل

لطريق. وإذا كان هناك طريق، فإن دريك لاحظ بأنه من الممكن أن يكون طريقا طويلا. وضمن بأن مضايق ماجلان مراقبة من أجله. لذا قرر اتخاذ طريق رأس الرجاء الصالح فى الوصول الى أرض الوطن. وكان قد وجد على السفينة الفلبينية خريطة لجزر الأرخبيل الهندى Indian Archipelago وبمساعدة هذه الخريطة وبمهارته، أمل فى إيجاد طريقه. ومرة أخرى، هبط الى سان فرانسيسكو San Francisco ونزل هناك، ووجد التربة مليئة بالذهب. وهناك أقام معرفة شخصية مع الملك الهندى الذى كره الاسبان، والذى رغب أن يصبح من ضمن أفراد الرعية الانجليزية. ولكن دريك لم يكن لديه وقتا ليضم أراض جديدة. ولكى يتجنب الطريق من مكسيكو الى الفلبين، اتخذ طريقا مباشرا الى ملقا Moluccas. ومرة ثانية، ظهر عند جزيرة سيليبس Celebes وهنا، للمرة الثانية، دخلت السفينة بليكان الى الحوض ونظفت. وقد أمضى طاقمها شهرا للراحة بين الحشرات القاتلة Fireflies وبين خفافيش Vampires الغابة الاستوائية. وبعد ذلك، غادر دريك ومن معه سيليبس، ودخلوا الى أكثر أجزاء الرحلة خطورة، فقد شقوا طريقهم بين الشعب المرجانية، وبين الجزر المنخفضة التى ترى بالكاد فوق سطح الماء. ووضح فى خريطةهم المخرج الوحيد الذى يؤدي الى المحيط الهندى، والذى يتمثل فى مضايق ملقا. ولكن ضمن دريك بحق أنه لابد وأن تكون هناك فتحة أكثر قربا، وتلمس طريقه، بحثا عن هذه الفتحة التى تقع فى منطقة على طول ساحل جاوا Java. وعلى الرغم من كل هذا الحرص، إلا أنه وجد نفسه على حافة الدمار. وفى أحد الأمسيات أدركه الظلام، فسمع صوت احتكاك أسفل بليكان. وفى لحظة أخرى، اندفعت السفينة بشدة وبسرعة على سلسلة من الصخور.

وكان نسيم البحر خفيفا، والمياه هادئة. وكان من الممكن الايسمع العالم المزيد عن فرانسس دريك. وبقيت السفينة بليكان دون حراك حتى الفجر. وعند الفجر، كان الوضع لا يدعو الى فقدان الأمل تماما، فإن دريك نفسه، أظهر كل الصفات الخاصة بالقائد العظيم، فقد تخلص من المدفع والحمولة التى لم يكن فى حاجة اليها. وبعد الظهر، تغيرت الرياح، وارتفعت السفينة التى خف حملها، من على الصخور وانقذت. ولم يصب هيكل السفينة بأى تلف وذلك بسبب الاصلاحات التى تمت فى كاليفورنيا، فكل من كان

على ظهرها قد تصرفوا تصرفا جيدا، باستثناء المستر فلتشر Mr.Fletcher القسيس.
فالمستر فلتشر هذا بدلا من أن يعمل كرجل دين، نجده لا يكف عن الكلام عن العقوبة الالهية بسبب اعدام دوتى Doughty.

وتغاضى دريك عن ذلك مؤقتا. وبعد مرور أيام قليلة مروا من مضائق سندا Sunda، حيث التقوا بالمحيط الكبير الواسع، عندئذ عرفوا بأن كل شيء أصبح على مايرام. وهناك كان يوجد متسع من الوقت لمناداة المستر فلتشر لمحاسبته، فلم يكن من عمل القسيس أن يثبط من عزم وهمة الرجال وقت الخطر، لذا شكلت محكمة كى يمثل فلتشر أمامها لمحاكمته. وكان على ظهر سفينته قبو دان انجليزى يمثل الملك، وهو فى نفس الوقت يمثل رأس الكنيسة، بل ويمثل أيضا رأس الدولة، وأحضر المستر فلتشر الى أعلى نقطة فى مقدمة السفينة حيث كان يجلس دريك على صندوق، توضع فيه مهمات بحرية، وهو ممسك فى يديه من البانتوفلس Pantoufles (الخف)، وقررت المحكمة طرده من كنيسة الله. وأنه سوف يسلم الى الشيطان كعقاب لجسده، وتركه مقيدا من أحد، أرجله فى حلقة مثبتة ليندم على جنبه.

وعلى وجه العموم، فلم يكن فى الامكان أن يستمر هذا العقاب الهزلى مدة طويلة. ففى اليوم التالى، نال القس التعس غفرانه (أى غفران دريك) وعاد ليمارس عمله وواجبه. وبعد ذلك، واجهت السفينة بليكان المزيذ من المغامرات فكانت تسير فى طقس صاف وجميل حول رأس الرجاء الصالح. وفى سيراليون، توقفت للحصول على المياه. وأخيرا، أبحرت وهى منتصرة الى ميناء بليموث، حيث ظن أنها قد فقدت. فكانت أول سفينة شقت طريقها حول الكرة الأرضية. وكان الكابتن ونت قد وصل الى الوطن الأم قبل ذلك بثمانية عشر شهرا، ولكن لم يبلغ شيئا. وكانت أخبار الأحداث فى الساحل الأمريكى قد وصلت الي انجلترا بواسطة مدريد. وكان السفير الأسباني (فى انجلترا) غاضبا. لأنه من المعروف أن الأسطول الأسباني قد أرسل للبحث (عن دريك) وستنشأ التعقيدات والمشاكل، اذا عاد دريك الى الوطن، معه غناثمه أو اسلابه، فقد أمل السياسيون الجبناء أن يكون دريك قد غرق فى قاع المحيط. ولكن ها هو الآن، قد وصل بالفعل الي انجلترا، ومعه فدية الملك.

ان التعاطف الانجليزى مع مغامرات غير عادية، كان من الدائم لايقاومها. وقد دوى التصفيق الحار فى أنحاء الوطن، فاليزابيث - بكل احساس فيها - كأمرأة انجليزية، تعاطفت مع رعاياها، وأرسلت فى طلب دريك الى لندن، وجعلته يقص عليها قصته أكثر من مرة.

ولم تمل اليزابيث من السماع اليه، ونتيجة للالهانة التى وجهت الى أسبانيا، فان فيليب قد أشعل عصيانا جديدا فى ايرلندا، هذا العصيان الذى كلف الملكة الكثير من الأرواح والأموال، وإن طلب فيليب تعويضا من انجلترا من أجل العدل، كان يضحك الالهة.

وهكذا فكرت الملكة. ولكن لسوء الحظ، لم يفكر هكذا بعض أعضاء مجلسها، وبخاصة اللورد بورلى Burghley، الذى كان من بين هؤلاء الاعضاء. وقد صمم منظورا، أنه يعاقب دريك، وأن يتخلى عن أسلابه، والاسوف يعلن للعالم بأن اليزابيث حامية للقراصنة، بل معترفة بها. وكما هو الحال لفان بولى اعتقد أنه لابد من تقديم بعض التسهيلات. فكانت (اليزابيث) تكره أن ترد من كل قلبها (باخلاص) مثل فلستاف* Falstaff، كما لم يكن لديها أدنى غرض من أن تلتقى برجل انجليزى شجاع الى الذئاب، هذا الرجل الذى دوى العالم بالتصفيق له بسبب انجازاته. واضطرت اليزابيث الى السماح للكنز بأن يسجل عن طريق موظف مسئول. وكان منظورا قد حكى هذه الرواية، ولكن رغم ذلك، فانها (اليزابيث) قررت أن تحتفظ لنفسها بنصيب من هذه الغنائم، كما قررت كذلك بالايحرم دريك ورجاله الشجعان من مكافأة أيضا.

وكان ينبغي على دريك أن يحصل لنفسه على عشرة آلاف جنيه على الأقل وكان عملها (اليزابيث) هذا ينبع من مميزاتا البارزة، ومن الانصاف، القول بأنه لم يكن هناك شك على الاطلاق فى مجريات الأمور بينها، وبين فيليب، الذى حاول انتزاع عرشها وقتلها.

ولاتزال السفينة بليكان رأسية فى بليموث وعلى ظهرها السبائك الذهبية والمجوهرات التى لم تمس بعد، وتقرر أن تنقل الشحنة إلى البروتسجل. وأولت الملكة هذا

* فلستاف يعنى شخصية فى احدى قصص شكسبير (المترجم).

العمل الى أدموند تريميان أن تنقل الشحنة إلى Edmund Tremayne من سيدنهام Sydenham، الذى كان قاضيا فى المنطقة المجاورة وكانت اليزابيث قد اعتمدت عليه. وأخبرته بالايكون فضوليا وسمحت الملكة لدريك أن يعود وينظم الشحنة قبل أن يتم فحصها، ودعى الآن أقرأ لك خطابا من تريميان نفسه الى السير فرانسيس ولسنجهام Sir Francis Walsingham، وقد جاء فيه: " لكى أوضح لك، كيف بدأت أنا مع المستر دريك، فأنا لم أحاول الدخول فى تفاصيل لمعرفة المزيد عن قيمة الكنز أكثر مما علمنى اياه. وفى الحقيقة أقنعتة بعدم الافصاح أكثر من الضرورى ورأيتة مأمورا من لدن الملكة بالآ يفشى الحقيقة الى أى شخص حى. وأنا دونت ما أقشاه لى فقط، ووزنت وسجلت وحزمت مارأيتة. وأما بخصوص أمر الملكة عن العشرة آلاف جنيه، فقد وافقنا على أن يأخذها من الجزء الذى أنزل الى البرسرا، على أن ينقل من مكانه قبل أن أحضر أنا وأبنى هنرى، لوزن وتسجيل ما تبقى. وهكذا فقد أنجز هذا العمل، ولم يعرف أى مخلوق أى شىء عن ذلك سوى. وكما تدرك أنه لم يؤتمن على هذا السر الاسواى (الأنا).

وأنا لم أجد شيئا اتهم به المستر دريك، حيث أنه لم يكن لديه شىء يتهم به. ويجب أن أقول أيضا، بأن دريك كان ميالا الى تقديم شىء نفيس الى صاحبة الجلالة. فضلا عن ذلك، وفى واقع الأمر فانه قد سعى للحصول على مكافأة لكل الرجال الذين كانوا يتعاملون معه. واستطيع أن أقسم بأن دريك فضل أن يقلل من نصيبه، على ألا يترك هؤلاء الرجال غير راضين. وأما بخصوص بحارته، وأتباعه فقد رأيت بأعينى، وسمعت بأذنى علامات النية الطيبة هذه، حتى اننى لأستطيع أن أرى، أن أيا منهم سيترك الجماعة فكل طريق سار فيه ظهر، بأنه رجل شجاع بدرجة كبيرة، ولكن حدث أن رأيت بعض التفضيلات، الخاصة باطلاق سراح جماعته. وهذا يؤكد لى بأنه رجل ذا حكم سديد، وأنه يلتزم بأحكام الله وكتابه. ولذا فان ممارساته على مثل هذه الاسس لن تكون الا ناجحة.

ونتيجة لذلك كله فقد استقطع من الاسلاب ما يساوى ما كان يمتلكه كل من دريك وهوكنز، التى سلبت منهما غدرا فى سان جوان دى ألوا، بالإضافة إل بعض الانصبة

الآخرى السخية، نظير تكاليف استعادة ما خسراه. وأعطى جزءا مما تبقى الى مندوزاً فهذا الجزء لم يذهب اليه (أى الى مندوزا أو الى فيليب)، ولكنه وضع فى القلعة حتى تستقر مطالب فيليب، والملكة، لدى كل منهما الآخر. وكان ذلك يعنى بالنسبة الى اليزابيث ثمن شىء واحد، هو ثمن الثورة فى ايرلندا. والتقى المندوون، وتناقشوا، وجلسوا معا، ولكن دون جدوى، ومع ذلك استمروا فى المناقشة حتى مجيء الارمادا. بعد ذلك انتهت المناقشة، وانتهى كل حديث عن التعويض. وفى غضون ذلك اختلفت الآراء حول أعمال دريك، وتنوعت، فكانت الملكة اليزابيث قد استمعت الى مغامراته بطريقة فيها سحر، وكانت قد أرسلت فى طلبه الى لندن، مرة ثانية، ومشت معه علانية فى أنحاء الحدائق والبساتين، وأعطته عشرة آلاف جنيه ثانية. وأرسلت السفينة - بليكان الى دبتفورد Deptford وأعد على ظهرها مأدبة طعام ملكية، وحضرتها اليزابيث، ورقى دريك الى مرتبة فارس، وتذمر مندوزا بسبب الكنز الموجود فى القلعة، وطلب أن يعطى اليه، ورغب وولسنجهام فى منح هذا الكنز الى أمير الأورانج. ورأى ليستر Leicester وجماعته فى المجلس - الذين كانوا قد ساعدوا فى تجهيز دريك - أنه ينبغي أن يقسم هذا الكنز فيما بينهم. وإذا صدق مندوزا، فإنهم سيعرضون عليه أن يقتسموا الكنز معه اذا انضم اليهم فى اتفاق خاص. ويقول مندوزا انه ليس لديه مانع من أن يعطى ضعف هذا المبلغ فى مقابل معاقبة هذا الص دريك. وفكرن اليزابيث أنه ينبغي أن يظل هذا الكنز كضمان يحتفظ به فى (لعبة الصراع بينها وبين فيليب). وفى الواقع، ان الكنز ظل بعد الاستقطاعات التى رأيناها قد حدثت.

وكان دريك كريما فى اغداقه فى هداياه، فكان قد أهدى الى الملكة صليباً من الماس، وتاجاً مرصعاً بالزمرد الساطع، ومنح بروملى Bromley قاضى القضاة Chancellor طبقاً من الفضة يساوى ٨٠٠ دولار، كما منح الكثير والكثير الى الاعضاء الآخرين فى المجلس. وكانت الملكة قد ارتدت تاجها فى عيد رأس السنة New Year's day وكان قاضى القضاة هذا، راضياً بأن يزخرف البوفيه الخاص به على حساب الملك الكاثوليكي. ولكن مع ذلك، فقد رفض كل من بروملى، وسوسكس Sussex الهدايا التى قدمت لهما، وقالوا: انهما لا يستطيعان أن يقبلا هدايا نفيسة كهذه، من رجل صنع ثروته

من السلب.

وعاش برولى ليعرف أكثر عن القيمة التى كان عليها دريك. وما الذى نحن عليه فى تلك الأثناء. فنحن ننظر الى تاريخنا الماضى، لتتكلّم عن هذه الاشياء، القرصنة فى القنال، الاستيلاء على أموال جيش ألفا، تجرية هوكنز الجادة مع ملكة اسكتلندا، ومع الملك فيليب، أو العمل المدهش الذى قام به السير فرانسيس دريك فى سفينة لا تزيد عن كونها يخت من الدرجة الثانية.

وقد وصف جميع المؤرخون، هؤلاء الرجال بالعزم والجسارة، والمعارة المحترفة، ولكن برولى على سبيل المثال، اعتبر كل مايفعله هؤلاء أعمال قرصنة، وليست بأفضل من الاعمال التى قام بها مرجان، وكيد Margan and Kid وهكذا، فقد صاح بذلك الكاثوليك الذين رغبوا فى تدمير اليزابيث، وكذلك صاح لوب دى فيجا، والملك فيليب، وبلغه أكثر دقة يكرر الفيلسوف المعاصر هذا الرأى غير الملائم. ويبتهج بأنه يعيش فى عصر أصبحت فيه ممارسة مثل هذه الأعمال مستحيلة. ويعتذر بخفة عن تجاوزات هذا العصر الناقص. وهل لى أن أذكر الفيلسوف بأننا نعيش فى عصر فيه أشياء أخرى، أصبحت لحسن الحظ مستحيلة، فلو هو وأصدقائه كانوا معرضين لمثل هذه الأعمال عندما يذهبون فى رحلات صيفية، ويختطفون بواسطة أفراد محاكم التفتيش، ويجلدون، ويحرقون وهم أحياء، أو يرسلون على ظهور سفن كبيرة للعمل عليها. عندئذ، قد يفكر بطريقة أكثر رفقا فى التدابير التى قد تدفع هذه المؤسسة المحترمة، وسادتها الى أن تعامل الفلاسفة باعتبار أعظم.

ومرة أخرى، نتذكر تحذير دكتور جونسون Dr.Johnson الذى قال فيه كن حذرا من الرياء، لأنه فى ذلك القرن الجاد جدا كان الناس فيه أكثر انشغالا بالحقائق عن الاشكال الخارجية للأشياء، وفى هذا القرن كان الملك (الاسبانى) يشجع التمرد فى انجلترا، وايرلندا، ويحرق أعدادا كبيرة من البحارة، والتجار الانجليز التعساء فى اشبيلية، فانه بهذا كله قد أعطى، اليزابيث مائة فرصة كى تعلن عليه الحرب.

وهكذا فإنه فى ذلك الوقت، كان هناك كثير من الرعايا الكاثوليك متمردين. لذلك، وفى حالة كتلك، لم يكن فى استطاعة اليزابيث أن تبدأ صراعا كهذا. بل كان عليها أن

تستخدم كل ماتملكه من موارد، وكان من أفضل هذه الموارد سلالة من الرجال الذين لم يخشوا أن يعملوا من أجلها - مخاطرين في سبيل ذلك بحياتهم - فهم يفعلون مايفعله الضباط عند اعلان حرب رسمية. فهؤلاء الرجال هم الذين هزموا عدو الوطن، بمراد استولوا عليها من العدو نفسه، وهم الذين كرسوا أنفسهم (لخدمتها)، واستغنوا في سبيل ذلك عن أمنهم الشخصى الذى منحه الملكة اياهم. وقد يصل بهم الأمر الى أن يصبحوا أسرى حرب، وبكل تأكيد، فانهم سيواجهون الاعدام شنقا، اذا هم وقعوا فى الاسر، فبدون شك وبحرفية قانون الأمم، فان كلا من دريك وهوكنز كانا قراصنة من نفس نوعية قراصنة أوليسزس Ulysses، وهم كذلك كانا من نفس قراصنة النرويج. ولكن أوربا بحسن ادراكها نفذت من الشكل الى الجوهر، الذى يخفيه هذا الشكل، كما أن غريزة أبنائها (أوربا) أعطتهم مكانا بين الأبطال المحاربين من أجل انجلترا، التى لا أعتقد أن الحكم النهائى للتاريخ سيبيدهم عن هذه المكانة.

الفصل الخامس

اطراف النزاع فى الدولة

فى ٢١ من شهر ديسمبر ١٥٨٥، حدث مشهد ملفت للنظر فى مجلس العموم البريطانى The English House of Commons. فبعد محاولات عدة فاشلة أمكن التخلص بنجاح من أمير الأورانج فى (الأراضى المنخفضة) وعلى وجه التحديد، كانت هناك مؤامرة جديدة، قد اكتشفت، كان الهدف منها القيام بعصيان كاثوليكي فى إنجلترا، هذا العصيان الذى كان مدعوما بغزو خارجى، كان الهدف منه أيضا خلع إليزابيث عن عرشها، ومنح تاجها الى مارى ستيوارت. وقد أشار دوق القافى زمن مؤامرة ريد ولفى Ridolfi، بأن اغتيال ملكة إنجلترا، يمثل خطوة أولية مرغوب فيها. اذا تم هذا الغزو بنجاح. ولما كان موضع وراثة العرش لم يتحدد بعد، فقد ظن بأن الارتباك سيسهل حركة المقاومة وأن تأييد حزب انجليزى قوى لادعاءات مارى ستيوارت سوف يضمن لها نصرا سهلا اذا ازيحت إليزابيث. وكان هذا شرطا لا مفر منه.

وفى النهاية، أصبح من الواضح أنه طالما كانت الملكة إليزابيث على قيد الحياة، فإن فيليب لن يوافق عن طيب خاطر على نزول جيش اسباني على الشواطئ الانجليزية. وفى ذلك الوقت انتشر بين الكاثوليك الأكثر تحمسا - وخاصة اللاجئون منهم فى سمنرى Seminary عند الريمس - خبرا يقضى بأن تاجا سماويا سيتمنح لأى فارس روحانى يستطيع أن يزيح هذه العقبة.

ولم تكن هذه المغامرة نفسها مغامرة صعبة لأن إليزابيث كانت مدركة للخطر المحدث بها، ولذا لم ينتابها الخوف. كما رفضت أن تفقد ثقتها فى الكاثوليك فكان منزلها مملوءا بهم. وقد سمحت لأى فرد أن يحضر اليها من هؤلاء الذين يرغبون فى مقابلتها. وقد أخذ الدكتور بارى Pary - عضو البرلمان والمدعوم بتشجيع من الكردينال أف كومو، وأيضا من الفاتيكان - على عاتقه أن يخاطر بحياته كى يفوز بالجائزة الرائعة، فتقدم بنفسه الى القصر، وزود بالأسلحة المناسبة وتظاهر بأنه لديه معلومات على جانب من الأهمية سيقدمها " للملكة"، وقد قابلته الملكة عدة مرات. وفى مرة من المرات، كان " الدكتور بارى" معها بمفرده فى حديقة القصر، وكان على وشك أن يقتلها ولكنه قال لقد انتابته الرهبة لأن ملامحها (إليزابيث) كانت شبيهة بملامح

أن يقتلها و لكنه قال لقد انتابته الرهبة لأن ملامحها (اليزابيث) كانت شبيهة بملامح والدها.

واكتشف أمر بارى وشنق، ومع ذلك فقد رفضت اليزابيث أن تأخذ الحذر. وكانت هناك أعداد كبيرة تتوق الى الحصول على شرف ازاحة اليزابيث، وبخاصة عندما كان من السهل الاقتراب منها. وقد ساد الشعور بأن واحدا على الأقل سوف ينجح فى ذلك. وقد كون الجزء المخلص من الأمة بقيادة اللورد بورغلى Lord Burghley جمعية كان الهدف منها حماية حياة (الملكة) لأنها كانت مهمة جدا بالنسبة لهم. ولكن مع ذلك وبوضوح، فان الحياة لم تكن ذات أهمية بالنسبة لها. وقد تعهد أعضاء هذه الجمعية (أو الهيئة) بأن يطاردوا حتى الموت، كل أساليب الأشخاص الذين قد يحاولون، أو يوافقون على أى شئ لا يذاه شخصية جلالتها. ولم يسمح أبدا ، أفراد هذه الجمعية أيضا ، أو يرضخوا لأى وريث مزيف، قد يقدم هو أو أحد أعوانه على القيام بمثل هذا العمل البغيض، فكان من الواجب أن تتم ملاحقة مثل هؤلاء الأشخاص حتى الموت، بل و تعريضهم لأقصى أنواع الانتقام. وكان هذا الاتفاق فى صيغته الأولى، يتمثل فى خلق يأس واضح، بحيث يتضمن ظروفًا يختلف فيها النظام. ومن الملفت للنظر أن نلاحظ أن المحامين الذين كانوا بصفة عامة لديهم اهتمام بمارى ستيوارت نجدهم فى ذلك الوقت هم الذين يعترضون بشدة. وبعد ذلك كان هناك احساس عام بالغضب فى كل مكان من المملكة. وقد دعى البرلمان لي طرح عليه القانون الذى سيكفل نفس هذا الهدف. وعلى أية حال، فان مارى ستيوارت، لم تستنفد من الجرائم، سواء أكانت جرائمها، أو جرائم مؤيديها. وقد تقرر انه فى حالة غزو المملكة، أو اندلاع أى تمرد مثار بواسطة أى شخص أو من أجل أى شخص، يدعى الأحقية فى التاج بعد موت الملكة فان مثل هذا المدعى يحرم من هذا الحق الى الابد. وفى حالة اغتيال الملكة فان الحكومة فى هذه الحال تؤول الى لجنة من النبلاء، ومعها مجلس خصوصى بحيث يقومون باستقصاء تفاصيل الاغتيال، و اعدام مرتكبيه وشركائهم. وفى تلك الأثناء كان هناك تلميح له مغزاه بأن على كل من الجزويت والكهنة اللاهوتيين أن يغادروا الوطن على وجه السرعة خوفا من عذاب الموت.

وكان مجلس العموم البريطاني يجيش انفعالا لما أرسل القانون الى النبلاء كي يعبروا عن مشاعرهم الملتهبة. واقتراح السير كريستوفر هاتون Christopher Hatton بأنه ينبغي عليهم قبل أن ينفروا أن ينضموا اليه في صلاة من أجل سلامة الملكة، فنهض ٤٠٠ أربعمائة عضو، وركعوا على أرض مجلس العموم، ورددوا كلماته من بعده جملة جملة. فماذا عن الجزويت، والكهنة اللاهوتيين. لقد تمت محاولات لتبرير المؤامرات التي تحاك ضد اليزابيث، مما سمي أو عرف بإضطهاد المتحمسين الأبرياء الذين قدموا من الرمس Rheims لكي يعظوا الشعب الأنجليزى بالعقيدة الكاثوليكية. وقد أكثر كتاب ومتحدثون معروفون من الكلام عن اعدام كامبيان Campian، وأصدقائه كعمل أسوأ من احتراقات سميث فيليد، ويتأييد وأعجاب عام، اعترف حديثا بأن هؤلاء الشهداء قديسون وأن مهمتهم كما يقال، كانت مهمة دينية بحتة. أفا لم تكن هي هكذا ؟ كان النص الأساسى فى العقيدة التى أتوا بها كي يعلموها ينص على واجب الطاعة للبابا، الذى كان قد حرم الملكة من الكنسية، والذى كان قد أحل لرعاياها عدم الولاء لها، بل سمح لهم أن يتظاهروا بالولاء لها حتى وصول جيش الخلاص الكاثوليكي. وكان البابا قد أرسل وقدأ رسميا الى أيرلندا ليحث أو ليحرض على القيام بثورة دموية.

ولكن ماذا كان عن هؤلاء الكهنة اللاهوتيين، وماذا كان هدفهم ، فسوف يظهر ذلك جليا من تقرير عن حالة انجلترا، وكان هذا التقرير قد كتب - ليستخدمه البابا و فيليب - بمعرفة الأب بارسونز Father Parsons الذى كان هو نفسه على رأس البعثة التى يرجع تاريخها الى عام ١٥٨٥ م. وتقريبا ، كان هذا التقرير متزامنا مع المشهد الذى حدث فى البرلمان والذى قد وصفته أنا من قبل. فمن الواضح أن اللاجئين الإنجليز بدءاً من الكاردينال بول Pole، وما بعده، كانوا أكثر الوعاظ نشاطا، وحماسا للصليبية الكاثوليكية ضد انجلترا. ومع ذلك فإنهم فشلوا، و انتقموا لأنفسهم على مر التاريخ. ولقد شوه كلا من بول وساندرس الآن Sanders Allen Parsons ، كل ما اعتقدنا فى معرفته عن هنرى الثامن، و اليزابيث وما أنا على وشك قراءته اليكم لا يختلف بالضرورة عما سمعناه من قبل من هؤلاء الاشخاص، ولكنه جديد، و متكامل فى

طريقته، حيث أن المقصود منه هؤلاء الارشاد العلمى.

وقد تم الحصول على هذه المعلومات من السجلات الاسبانية لذلك فهى ليست معرضة للشك، وكان بارسونز، كما تعرفونه زميلا فى الباليول Balliol قبل أن يتحول عن ديانتة. وكان الان زميلا فى الأوريل Oriel، وساندرس Sanders زميلا فى الكلية الجديدة New College. وكان التعليم فى كنيسة اكسفورد فى انجلترا شيئا ممتازا، فقد تكونت الشخصيات الجميلة فى الجامعات الكاثوليكية فى الخارج، ومع أن عناصر الديناميت - فى حد ذاتها - لا تسبب إيذاء، لكن عندما يتقابل قطباها تحدث تأثيرا لا يمكن لفرد أن يتخيله، ولذلك نجد أن اكسفورد وروما كانتا دائما تولدان مركبا ملتهبا الى حد ما، عندما يصطدمان.

وصف بارسونز Parsons فى بيانه الذى يمثل ملحوظة مختصرة، عن الوضع الراهن لانجلترا، التى منها يمكن الاستدلال على الطمأنينة والملاسة للمغامرة المقدسة. وكانت انجلترا، كما يقال تضم ٥٢ مقاطعة منها ٤٠ أربعون يعتنق سكانها العقيدة الكاثوليكية.

وكان المهرقطون قلة، ومكروهين من كل الطبقات، وأما الاثنتا عشرة مقاطعة الباقية، فكانت تقريبا قد انتشرت فيها العدوى، ولكن مع ذلك، كان الكاثوليك يمثلون الأغلبية من بين كل هؤلاء. وقد قسمت انجلترا الى ثلاثة أقسام كان الثثان منها على الأقل من الكاثوليك المخلصين، رغم أن كثيرا منهم قد أخفى عقيدته، خوفا من الملكة. وكان الكاثوليك الأنجليز نوعين. أما النوع الأول فقد جهر، بايمانه علانية دون مبالاة بالعواقب أو النتائج، وأما النوع الثانى فكانت عقيدته غير معلنة، ولكن مع ذلك فلم يكن لهم الرغبة فى المخاطرة بحياتهم أو بمصيرهم. وهكذا فقد استسلموا فى الظاهر الى قوانين الهرطقة، ولكنهم مع ذلك، كانوا مثل الكهنة الكاثوليك فى حالة من الشغف للتححر من العبودية.

وواصل مارسونز حديثه، فقال: فالملكة وفريقها كانوا أكثر خوفا من هؤلاء الكاثوليك الذين أخفوا عقيدتهم من هؤلاء الذين يعبرون عنها صراحة. وكان هؤلاء الآخرون لطفاء، ومجردين من السلاح وغير مؤذيين. وأما عن الآخرين (الكاثوليك الذين

أخفوا عقيدتهم) فمع أنهم كانوا في الظاهر مطيعين، فأنهم لم يمسا ولم يتخذوا أى حذر ضد ثورتهم عندما يحل يوم الانتقام المأمور..

وأضاف بارسونز فى قوله " وكانت المقاطعات Counties، وبخاصة الكاثوليكية منها مولعة بالحرب بدرجة كبيرة، وقد اشتملت هذه المقاطعات على الموانئ، وعلى أماكن الرسو الملائمة للجيش المغازى، وفى الشمال عند الحدود الأسكتلندية، كان سكانه يتدربون فى معارك مستمرة، وفى الجانب الآخر، وكان النبلاء الأسكتلنديون - وهم من الكاثوليك - يقدمون مساعدتهم، وبالمثل ستفعل كل ويلز.

وكان السكان فى المناطق الوسطى والجنوبية - حيث الفساد أكثر رسوخا - مرأين وجبناء، ولا يعرفون ماذا تعنى الحرب. وكانت المدن أكثر فسادا، من الأقاليم الريفية، بحيث لم تكن قوة إنجلترا فى المدن الصغرى والكبرى، كما كان الحال فى القارة (الأوروبية). وكان سكان المدينة أيضا تجارا وحرفيين، لم يكونوا أبدا نبلاء أو أشخاصا ذوي مكانة مرموقة.

وأردف بارسونز فى قوله فالنبلاء الذين يملكون القوة الحقيقية، يقيمون مع حاشيتهم فى قلاع تنتشر على مساحات من الأرض. وكان الأتباع الأثرياء، أقوياء وأمناء، وكانوا جميعا يلتزمون بالعقيدة القديمة، ومن الممكن الاعتماد عليهم عند إجراء أية محاولة بهدف استعادتها (أى العقيدة). وأيضا تأثر الفرسان والاستقراطيون بصفة عامة، وسيكونون فى المقدمة تماما. وفى ذلك الوقت، كان الكثير من أبنائهم يتعلمون فى معاهدنا اللاهوتية، وكان البعض منهم مфия، ولكن الجميع سواء أكانوا فى الوطن أو فى الخارج، على جانب من النشاط الى جانبنا.

وكان جزء من النبلاء العظام والماركيز، والأيرلز، والكونتات، والبارونات معنا. وكان جزء آخر منهم ضدنا. ولكن كانت المجموعة الأخيرة حديثة الوجود، وهى التى رفعتها الملكة، إما من أجل الهرطقة وأما لأن هذه المجموعة كانت محبوبة بصفة شخصية من قبل هذه الملكة، ولكن مع ذلك فقد كانت ممقوتة بصفة عامة.

وكان إيريل أف ارندل The Earle of Arundle يمثل رأس النبلاء القداما، فهو ابن، ووريث المرحوم (المقدس) دوق نورفولك Late Duke of Norfolk الذى كان

قد سجنته (الملكة)، لأنه حاول الهرب من المملكة. وكان هذا الايرل كاثوليكيا تماما، علاوة على أخوته وأقربائه. فكانوا جميعا يملكون أتباعا أقوياء. وكانوا مستعدين للانتقام عندما يتعرض سيدهم (الورد) للضرر. وكان ايرل أف نورثمبر لاند The earle of Northumberland و أخوته كاثوليكين. وكانت أسرته قد تعرضت للمظالم، فأرادوا أن ينتقموا لها، حيث أن والدهم قد اغتيل في القلعة في هذه السنة. وقد وضعوا أنفسهم تحت تصرفى في هذه السنة. وكان ايرل أف وورسستر The earle of Worcester ووريثه، يكرهان الهرطقة، ويخلصان لنا مع كافة أتباعهم وكان الايرلز أف كمبرلاند The earles of cumberland وسوثمبتون Southampton وفيسكونت مونتاجيو Viscount Montague يملكون أتباعا كثيرين.

وعلاوة على هؤلاء، فنحن نملك الكثير من البارونات من أمثال داكل Dacre ومورلى Morley وفوكس vaux، وونسور Windsor ووارتون Wharton ولو فليس lovelace واستورتون Stourton، بالإضافة الى آخرين. وكان كل من الايرل أف وست مورلاند The earle of west morland ومعه اللورد باجت Paget والسيرفرانسيس انجليفيلد Sir Francis Englefield ، الذين يقطنون في الخارج، كانوا متحمسين لتطوير مشروعنا بطريقة لا يمكن تصديقها. ويمثل هذا التأيد، فإنه من المستحيل أن نفشل. وبالتأكيد سيهب هؤلاء اللوردات والأثرياء عندما يروا المساعدة الكافية، تصل لهم، وذلك للأسباب التالية:

- ١- أن بعض المسئولين من بينهم قد أعطوني وعدهم.
- ٢- وأنه عند سماع الكثير من الكاثوليك، بأن البابا بيوس Popepius عزم على حرمان الملكة من الكنيسة، بل عمل على عزلها - منذ ستة عشر عاما مضت قائلهم في هذه الحالة سيهبوا ويثوروا وقد يكون السبب الوحيد في فشلهم هو أنه ترسل لهم المساعدة. وفي الواقع، فإن قرار البابا لم ينشر، في هذا الوقت. أما الآن، وعندما تكلم البابا، وأصبحت المساعدة أكيدة، فإنه لم يكن هناك شك في الكيفية التي سيسلكونها.
- ٣- أن الكاثوليك كانوا في ذلك الوقت كثيرى العدد، وكانوا يتلقون يوميا تعليمات

خاصة بعقيدتهم من كهنتنا، ولا يوجد الآن كاثوليكي ارثوذكسى فى كل المملكة يعتقد أنه مازال ملتزما من أعماق قلبه بطاعة الملكة. وقد الفنا الكتب ونشرناها بمعرفتنا. وقد بينا أن الكاثوليك عليهم أن يحاربوا ضد الملكة والهرطقة، إذا أمرهم البابا وهذا ليس فقط من الناحية الشرعية، بل كواجب يلتزمون به. وقد قرأوا هذه الكتب بنهم. وعندما يحين الوقت، فأنهم بكل تأكيد سيحملون السلاح.

٤- فى هذه السنوات الأخيرة اظهر الكاثوليك شعورهم الحقيقى، وذلك باستشهاد الكهنة، والرجال العلمانيين فى سبيل الدين، أو المبدأ فى محاولات قام العديد منهم بها ضد الملكة وذاتها. وقد حاول كاثوليك عديدون أن يقتلوا (الملكة) مخاطرين بحياتهم، ومع ذلك مايزالون يحاولون.

٥- كنا نملك ثلاثمائة من الكهنة الذين انتشروا بين منازل النبلاء، ومنازل الاستقراطيين المخلصين، وكنا فى كل يوم نزيد عددهم، وسيوجه هؤلاء الكهنة ضمائر، وأعمال الكاثوليك عند الأزمات الكبرى.

٦- أنهم كانوا منهكين وقلقين، حيث كرهوا المهرطقين بشكل أسوأ من كرههم للأتراك وإذا خشى أحد منهم قدوم جيش أسباني لخطورته على حرياتهم القومية، فهناك طريقة سهلة لتهدئة شكوكهم. لذا دعنا نعلن بصراحة من أن المغامرة ستنفذ تحت اسم البابا. وسوف لا يكون هناك المزيد من التردد. ولهذا أعدنا بأنفسنا كتباً لعلامهم بحيث يصدر فى اللحظة الملائمة، فلو أراد قداسته Holiness أن يرى هذا الكتاب، فنحن سنترجمه الى اللغة اللاتينية من أجل أن يستفيد منه. وينبغى أن يعاد اصدار عقوبة الحرمان من الكنيسة، والعزل ببند خاصة قبل أن يعهد لأحد بهذه المغامرة.

ومن الواجب أن ينشر هذا الكتاب فى جميع الأقطار الكاثوليكية المجاورة، ويجب على جميع الملوك الكاثوليك والأمراء أن يحثوا على منع أى وصف لأى اتصال مع الملكة المزعومة، ومع رعاياها المهرطقين، ومنع الكاثوليك أنفسهم من عقد أى معاهدات مع الملكة أو إرسال سفارات إليها أو السماح بأى منهما، ومنع تقديم أى مساعدة لها من

أى نوع، وبالإضافة الى كل هؤلاء الذين سيكونون معنا من أجل العقيدة، فسيكون لدينا أصدقاء آخرين محايدون، أو مهرطقين من نوع معتدل، أو من نوع ملحد، وهم الذين تعج بهم إنجلترا الآن، فهؤلاء سَنضمون اليها لمصلحة ملكة اسكتلندا. وكان من بينهم ماركيز أف ونشستر Marquis of Winchester والأيرلز أف شرزبرى The Earles of shrewesbury ودرى Derby واكسفورد oxford ورتلاند Rutland نبلاء آخرين كثيرين. وستقدم ملكة اسكتلندا نفسها المساعدة، بلا حدود. فهي تعرف من هم أصدقاؤنا السريون، وهي لها القدرة فى ذلك، ونعتقد أنه سيكون لها القدرة على الاتصال بهم. وهي سترى أنهم سيكونون مستعدين فى الوقت المناسب، وهي غالبا ما قد كتبت الى تقول أنها تأمل فى أن تتمكن من الهرب عندما يحين الوقت. وقد حثتني فى خطابها الأخير أن أكون متحمسا مع قداسه فى دفع المشروع، وأن أطلب منه الا يهتم بسلامتها، وهي تعتقد بأنها تستطيع الاهتمام بنفسها. وإذا لم تستطع فأنها تقول " هي ستفقد حياتها عن طيب خاطر، وفى سبيل واجب مقدس.

فالأعداء الذين سنتعامل معهم يكونون من المهرطقين الأكثر تصميميا، الذين نسميهم البيورتان Puritans ، وكذلك بعض رعايا الملكة من أمثال الأشخاص الموثوقين فيهم بالنسبة لها، وكذلك الأيرلز أف ليسستر The earles of leicester والهنجدون Huntingdon وآخرون قليلون ومع ذلك سيكون لهم ميزة الحصول على الأموال من الخزائن، وهم سيحصلون على الاسلحة العامة، وعلى الذخائر، والجيش، والأسطول، ولكن مع ذلك، فلم ير أحد منهم معسكرا. وأقحم القادة أنفسهم فى اللهو ومتع البلاط، ولكنهم سيفرون جميعا عند أول صدمة من صدمات الحرب. ولم يكن لديهم رجل يستطيع أن يكون قائدا فى الميدان، ففي كل المملكة توجد قلعتان هامتان، من الممكن أن تصمدا للحصار مدة ثلاثة أيام. وكان الناس فى حالة من الوهن بسبب فترة السلام الطويلة، وهم لا يقومون على حمل السلاح، فيما عدا العدد القليل منهم وهم الذين خدموا مع المهرطقين فى الفلاندرز، وكان البعض من هؤلاء قد هلك، أو مات، وفر البعض الآخر منهم من الجندية الى أمير بارما Parma. وهذا دليل واضح على الاتجاه الحقيقى للثورة، وهناك يوجد وفرة فى الطعام والماشية فى الوطن (بريطانيا) وغالبية

هذه الأشياء ستكون فى خدمتنا ولن نحرم منها. ففى كل مكان كان هناك أمن وموانئ متسعة، وأمنة وجميعها غير محمية تقريبا. ونتيجة لذلك، فإن أى قوة غازية يمكنها النزول بسهولة، وسوف لا يكون هناك نقص فى المرشدين المحليين. ويكفى للقيام بهذه المهمة - وفى حالة كنتك - خمسة عشر ألف جندي مدربين ومدعين، بواسطة الانجليز الكاثوليك. ورغم أنه بطبيعة الحال، فإنه كلما كانت القوة أكبر وخاصة اذا كانت تشتمل على فرسان، كلما تم العمل بطريقة أسرع، وبأقل التكاليف. ومن الناحية العملية، فإنه لن يكون هناك شئ سوى القضاء على أمن الرعايا غير المنظمين، وغير المولعين بالحرب. وقد تعرضت انجلترا للغزوات عشرة مرة. وقد صد الجيش الوطنى القوة المهاجمة مرتين فقط، ولكنهم هزموا فى كل مناسبة أخرى. عندئذ، لا حاجة لنا أن نخاف من الفشل لأن قضيتنا مقدسة وعادلة، وسوف ترد النفقات مرة ثانية الى قداسته، والى الملك الكاثوليكى من ممتلكات المهرطقين، ورجال الدين البروتستانت. وبعد ذلك، سيكون هناك وفرة فى تلك الموارد، كى يعوض جميع الذين مدوا اليها أيديهم. ولكن مع ذلك فمن الواجب أن ينجز العمل فى الحال، لأن التأخير سيكون خطيرا لدرجة غير محددة. ولو أجلنا ذلك كما فعلنا حتى الآن، فإن الكاثوليك سيتعبون، وينقصون فى العدد والقوة. وفى الوقت نفسه، فإن النبلاء و الكهنة الذين فى المنفى والقادرين على تأدية مثل هذه الخدمة سيسحقهم الفقر. ومن الممكن أن تعدم ملكة اسكتلندا أو تموت موته طبيعية، أو ربما يحدث بعض الشئ الى الملك الكاثوليكى أو الى قداسته (البابا). وربما تموت أيضا ملكة انجلترا نفسها، ومن الممكن أن يعاد من جديد تشكيل حكومة هرطقية، تحت حكم وريث هرطقى، هو الملك الاسكتلندى الشاب أو أى شخص آخر. عندئذ، فإن حالتنا ستكون يائسة. بينما إذا إستطعنا أن نمنع هذا وأن ننقذ ملكة إسكتلندا، فإنه فى هذه الحالة، سيكون هناك أمل طيب فى تحويل ابنها (الى الكاثوليكية)، وأخضاع كافة الجزيرة الصغيرة الى طاعة العقيدة. والآن، حان الوقت، ولا تستطيع الحكومة الفرنسية التدخل، ولكن سيساعدنا دوق الجيز Duke of Guise من أجل العقيدة، ومن أجل قريبته. وفى هذا الوقت يتسم الاتراك بالهدوء ولم تكن الكنيسة أكثر قوة ووحدة، كما كانت فى هذه الفترة. فكان جزء من إيطاليا تحت حكم الملك

الكاثوليكى، وكانت البقية الباقية من ايطاليا فى تحالف غير رسمى مع قداسته (البابا). وفى هذه الفترة كذلك، تم سحق التمرد الذى حدث فى الاراضى المنخفضة، وكانت المقاطعات الساحلية على وشك الاستسلام، فلو تخلت هذه المقاطعات عن الصراع فان موانئها ستكون فى خدمتنا من أجل الغزو. واذا لم يكن كذلك، فان الطريق الى النصر يمكن فى هزيمة انجلترا.

ولا أريد أن اثير، كم كانت اهتمامات قداسته فى القيام بهذا العمل الرائع. فالبابا كرجل عاقل جدا، كما عهد فيه، يعرف أن كافة المخاطر التى تسبب اضطرابات فى العالم المسيحى تأتى من وراء اليزابيث و اعوانها. ويعرف البابا أيضا أن الفساد الهرطقى، وكل التعاسات الأخرى، يمكن أن تنتهى فقط عندما تعاقب هذه المرأة (الملكة اليزابيث) فالتبجيل لقداسته والحب الوطنى المتألم، هو الذى أجبرنى على الكلام. فأننى أقدم نفسى ونصيحتى لعدالته المقدسة، وان أكثر المدافعين الكاثوليك المتحمسين لن يؤمنوا على الرغم من هذه الوثيقة بأن الجزويت الانجليز والكهنة اللاهوتيين، كانوا مبشرين سذجا للعقيدة، كما وصفهم الاعداء الحديثون لحكومة اليزابيث. فالأب بارسونز - كانت هذه الوثيقة - كان هو نفسه القائد، والموجه للغزو الجزويتى، ولا يمكن أن يفترض بأنه اساء للهدف الذى من أجله أرسلوا. وكانت وجهة الاهتمام الخاصة تكمن فى التقرير الذى قدمه عن حالة الأطراف وعن الشعور العام للشعب الانجليزى، فهل كان هناك اتجاه عام للترحيب بجيش غازى من جانب الأغلبية الكبيرة فى الأمة ؟ هذا السؤال من المفترض أنه قد أجيب عنه بنصر، بعد ثلاث سنوات، عندما تأكد من أن الاختلاف فى العقيدة قد نسى. وأن الكاثوليك والبروتستانت حاربوا جنبا الى جنب من أجل حريات انجلترا. ولكن وفى المقام الأول، كانت الظروف قد تغيرت، لأن ملكة اسكتلندا لم تعد على قيد الحياة وأن نجاح الأرمادا Armada تعنى ملكا أجنبيا. ولكن التجربة لم تتم. ووقعت المعركة فى البحر بواسطة اسطول كان أربع أخماسه من المغامرين البروتستانت والبيورتان Puritans المتحمسين، والذى أقر بارسونز نفسه بأخلاصهم للملكة. ومن المحتمل أن يكون اللورد هوارد Lord Howard كاثوليكيا انجليزيا، فهو لم يكن أبدا كاثوليكيا رومانيا، ولكنه كان هو وأخوه من أسرة هوارد،

وهما من الموالين فقط للملكة. وكل ما طالب به بارسونز لهما هو انضمام أرندل Arundle وبقية عشيرته.

ولم يزل من غير المؤكد كيف يمكن أن يكون سلوك المجندين، لو تمكن بارما من النزول الى البر. ومن المحتمل أن الجيش الأسباني كان قد حقق نجاحا أوليا، فمن الممكن، وفي حالة ما يكون هناك البعض من الذين كان يمكن أن يسلكوا مثل ما سلك السيروليام ستانلي Sir William Stanly. ومن الجدير بالملاحظة أن بارسونز قد تعرض لذكر ليسستر Leicester وهنتجدون Huntingdon على أنهما من النبلاء، والأقوياء الوحيدين، الذين من الممكن للملكة أن تعتمد عليهما. وقد أختارت الملكة ليسستر ليقود قواتها البرية، مع أنه كان يعتبر من أكثر الرجال الذين تنقصهم الكفاءة في بلادها.

وقد كان دوق الفا Alva، وسيد فيليب لايتقان في الكهنة السياسيين. ويقولان أن الكهنة السياسيين لم يفهموا حقائق الأشياء. فالتعصب الديني اللاهوتي جعلهم سريعا التصديق فيما هم يرغبون فيه. ولكن قد تأكد تقدير بارسونز من كافة جوانبه بوساطة خطابات مندوزا Mendoza - السفير الأسباني في لندن - فمندوزا نفسه كان جنديا، وكان واجبه الأول أن يلم بالحقيقة الفعلية، الخاصة بوجود الملكة (ماري سيوارت) على قيد الحياة، لتتولى العرض في وقت المشهد في مجلس العموم، الذي بدأت به هذه المحاضرة وقد يكون من المؤكد أن الغالبية العظمى للدولة تكره المصلحين، وتتطلع هذه الغالبية الى تولى ملك كاثوليكي العرش، وما ينتج عن ذلك من ثورة دينية.

كل ذلك يفسر مركز اليزابيث الصعب وتضارب تصرفها السياسي وكان كل من بروغلي Burghley، ووالسنجهام Walsingham وملدمي Mildmay وكنولس Knolle، وباكون Elder Bacon، من البروتستانت المخلصين، وأنهم جميعا كانوا يتمنون أن يجعلوها بنفسها، أى يجعلوا اليزابيث على رأس التحالف الأوربي البروتستانتي بطريقة علنية. واعتقدوا صراحة بأن الحق والعدل في جانبهم، وأن جانبهم هو قضية الله كما سمعوا، وأن الرب سيرعى هذه القضية. ولكن مع ذلك لم يكن لدى اليزابيث مثل هذا الاقتناع الكامل، فقد كرهت فرض الرأي، ومن قبل البرتستانت والكاثوليكين على

حد سواء. وسخرت من المستر سيسل، ومن أخوانه فى المسيحية، واعتقدت مثل أرازمس Erasmus والمستر سيسل Mr. Cecil بأن نصوص العقيدة - التى من أجلها تحمس الناس ليقتل بعضهم البعض - كانت من الموضوعات التى لا يعرفون عنها الا القليل، وأن كل رجل يفكر كما يحلو له فى مثل هذه المسائل، دون أن يسبب ضررا للكونولث. ولكى يصبحوا فى المقدمة كان عليهم أن يتورطوا، مع القوى الكاثوليكية. وتعنى الحرب هنا حرب الضرائب التى من الممكن أن يرفضها أو يقاومها أكثر من نصف رعايا الملكة. وكانت العقيدة، كما فهمتها الملكة تطورا للقانون، قانون السلوك الاخلاقى. فأتت لا تستطيع أن يكون لك قانونان فى بلد واحد، وأنت لاتستطيع أن يكون لك عقيدتان، ومع ذلك فالمنظر الخارجى لا يهم كثيرا نسبيا، والشعب الذى حكمته (الملكة) قد انقسم تجاه هذه الصور. فهم (أى الناس) كانوا أساس أغبياء، فلو تركت (أى الملكة) لكل منهم أن يكون له كنائس صغيرة، وأخرى كبيرة، فأن التلال ستصبح جبالا، كما أن الطوائف ستنتقل من النقاش الى الحرب لذلك فإنه بمساعدة البرلمان لها، تمكنت من إنشاء طقس دينى، ومن خلاله، يستطيع هؤلاء الذين يريدون أن يجدوا القداس أن يستمعوا اليه. بينما يستطيع هؤلاء الذين يريدون القضاء والقدر، والتبرئة الالهية بالعقيدة، أن يجدوها فى فقرات العقيدة. ويستطيع كلاهما الالتقاء تحت سقف واحد، واستخدام طقوس واحدة. ومن الممكن أن يحدث هذا اذا كانت الفئتان على قدر من العقل والحكمة. واذا هما لم يكونا كذلك، ففى هذه الحالة يمكن للكاثوليك أن يكون لهم شعائهم الدينية فى منازلهم، وإن يستطيع أحد أن يتدخل فيها.

واستمر هذا النظام مدة الأحدى عشرة سنة الأولى من حكم الملكة اليزابيث واستطاعت (الملكة) أن تقول بكل فخر : أنه لا يوجد كاثوليكي قد اضطهد بسبب عقيدته خلال هذه المدة، بل كل ما كان هناك هو فرض غرامة مالية صغيرة، تفرض على الشخص الذى لا يحضر الى الكنيسة، حتى أن هذه الغرامة، أصبح من النادر فرضها وباعتراف الجزويت أنفسهم، فان سياسة الملكة كانت ناجحة تماما، وبدأ الرجال العقلاء يرون أن اختلافات العقيدة لم تكن أشياء يتصارع من أجلها. وفى تلك الأثناء كانت العقيدة يصيبها الوهن، وكان الجيل الأكبر الذى عاشا أثناء ثورة انوارد

Edward، ومارى Mary ، راضيا أن يعيش فى سلام، لأنه كان جبلا جديدا، ينمو بأفكار جديدة، لذا فإن الكنيسة الرومانية كانت تثير نفسها، وحرمت اليزابيث كنيسيا. وبعد ذلك، بدأت سلسلة من المكائد والتآمر، ومؤامرات الاغتيالات، وثورات الجزويت. وكان من الواجب أن يتبع ذلك عقوبات، فقد زجت اليزابيث نفسها رغما عنها الى ما أسماه الكاثوليك بالأضطهاد الدينى، ولم تكن المسألة دينية، لأن الكهنة اللاهوتيين، كانوا مبشرين للخيانة، ومع أن العقيدة وجدت لتكون واضحة، فالرجل الانجليزى الذى اراد أن يظل مخلصا دون أن يفقد عقيدته، تعلم أن يرى أن أى ملك يلعبه البابا لم يعد له الحق فى أن يطالبه بولائه. وإذا هو عصى البابا، ففى هذه الحالة سيمنع من أن يكون عضوا فى كنيسة المسيح. ونتيجة لذلك، فقد نما الحزب البابوى فى تماسك ولكن البروتستانت عارضوا نموه، عندما اتضح لهم هدفه، واتجهوا فى البداية الى اللوثرية وتبنوا بعد ذلك عقيدتى كالفن Calven وجنفا geneva اللتين كانت أكثر عمقا وصرامة. ومرة ثانية، أحييت ذكرى وحشية ماري Mary .

ورأى البروتستانت أنفسهم مهددين بالعودة الى الاعداء حرقا وباستخدام الخوازيق، فتخلصوا من رتبهم، وصمموا على الموت بدلا من الخضوع مرة ثانية الى المعارضين للمسيح. ومن الممكن أن يكونوا أقل عددا، وأن أى أستفتاء فى انجلترا فى هذه اللحظة كان من الممكن أن يرسل ببورغلى، ولأسنجهام الى المشنقة. ولكن الرب يستطيع أن ينقذ القليل، وكذلك الكثر. وكان الى جانب يهوذا Judah قبيلتان من اثنتا عشرة قبيلة، ومع ذلك فقد كانت كلمات رجال يهوذا أشد عنفا من كلمات رجال اسرائيل Israel.

وقد ارتكب بارسونز خطأ فاحشا، لأنه لم يستطع أن يقدر ما لم يستطع فهمه. وعلم بأن سكان المدن كانوا فى الاساس هراطقة - فى لندن وبريستول Bristol ووليموث Plymouth ، وكذلك البقية من هذه المدن - ولكنه مع ذلك احتقرهم كتجار ، وكحرفيين ، وكأناس وضعيين. فهم الذين لم تكن لديهم الرغبة والشجاعة فى الحرب. وليس هناك شئ ملفت للنظر - أكثر فى تاريخ القرن السادس عشر - من تأثير الكلفانية فى المساواة بين الطبقات، وفى بث القوة والنبالة فى شخصية الرجال

العاديين. ففي اسكتلندا، وفي الاراضى المنخفضة وفي فرنسا، كانت توجد نفس الظاهرة. ففي اسكتلندا وجدت كنيسة لها الوطنية من صنع الوعاظ. وقد تجرأ الناس والفلاحون والعمال على الوقوف في الميدان ضد الفرسان، والبارونات الاقوياء، الذين كانوا قد سلكوا طريق آبائهم لعدة قرون. وقد تحدى حرقوا الاراضى المنخفضة لمدة عشرين عاما كل القوى الاسبانية. مع أن الهجنوت لم يكونوا يمثلون خمس الأمة الفرنسية، ومع ذلك، فإن الهزيمة لم تثبط من معيهم، فقد أجبروا الملك والنبلاء المرة تلو الأخرى، بأن يتهادنوا معهم، وحدث نفس الشئ في انجلترا. وقد تلاشى ولاهم الى قادتهم الاقطاعيين وتحول الى التزام رفيع المستوى الى ملك الملوك، حيث اعتنقوا بأنهم (مختاريه). ولم يكن الاختيار بالنسبة لهم خيالا لاهوتيا، ولكنه قد أنخرط في جيش الله. ومن المحتمل أن يكونوا هم قطيعا صغيرا، ولكنهم كانوا شعبا خطرا، عند التعامل معه، فالغالبية العظمى منه كانت تقطن المدن الساحلية، فكان البحر هو العامل الاساسى بالنسبة للمصلحين. فليس للبابوات سلطة قضائية على الرياح ولا على الأمواج. وكانت روشيل Rochelle قلعة للهجنوت، فقد كان للتجار والبحارة الانجليز أخطاهم، التي كانت تتجدد باستمرار، وتشعل مرارة غضبهم. فأينما يوجدون في الموانئ الاسبانية، فإن أيدي المحقق ستصل اليهم (أى الى أطقم السفن الانجليزية) ما لم يتنكروا لعقيدتهم، فأنهم عندئذ، سيرسلون ليموتوا حرقا، أو ليعملوا في السفن الشراعية الكبيرة. واتهم الكلفانيون بالتعصب، وأنا اعتقد انه حتى في الأيام التي تتسم بالانسانية والروحانية، لا ينبغي علينا أن نكون متسامحين اذا قام ملك داهومي بحرق يزور بلاده، ولا يعبد المبحوحومبو Mumbo Jumbo لذلك لم يكن بوق الفارحينا مع المهطقين، ومع ذلك فانه حاول أن يكبح جماح محكمة التفتيش الخاصة بحرق البحارة الانجليز حتى أن فيليب احتج بنفسه على ذلك، ولم يكن هناك غرض من ذلك. وقالت محاكم التفتيش Holy office أنها ستفكر في هذا ولكنها مع ذلك قررت أن تواصل عملها. ولست مندهشا أبدا اذا كان البحارة البريطانيون متعصبين. وساكون مندهشا كثيرا، اذا لم يكونوا كذلك. فالملكة لم تستطع حمايتهم، ولذلك، كان عليهم أن يحمو أنفسهم بقدر ما يستطيعون، وأن يحبروا السفن الاسبانية - عندما يستطيعون

الامساك بها - أن تدفع ثمننا لمظالم حكامها.

وبهذا الاتجاه من الجانبين، لم تكن أمام سياسة اليزابيث الافرصة ضئيلة فهي لا تزال تأمل في أن الاحساس الطيب في الجنس البشرى سيحافظ بنظام على المتحمسين المذهبيين (أى أصحاب المذاهب).

ورغبت اليزابيث في أن يكون رعاياها مقتنعين بالعيش معا في وحدة روحية - ان لم يكونوا في وحدة نظرية - أى يعيشون في رابطة سلام، وليس في رابطة كراهية، أى يعيشون في ظل حياة مستقيمة لا في ظل وعظ عقيدة أرثوذكسية، قائمة على الحرق والشنق.

وكانت اليزابيث مقتنعة بالانتظار و المثابرة، ورفضت أن تعلن الحرب فالحرب ستمزق العالم أربا. كانت اليزابيث على دراية بخطرهما، وعرفت أنها معرضة لمخاطر الاغتيال المتواصل، وعرفت اليزابيث أيضا أنه اذا سحق البروتستانت في اسكتلندا، وفرنسا، والأراضي المنخفضة، فإن الدور سيأتى عليها، واذا قامت بحماية المتمردين علانية، فإن ذلك سيكون مبررا لعصيان مسلح ضدها. ولكن لم تستطع القيام به علانية يمكن أن تقوم به سرا، وما لا تستطيع أن تفعله بنفسها فإنها ستدع رعاياها يقومون به. فقد حارب آلاف المتطوعين الانجليز في الفلاندرز من أجل الولايات، وفي فرنسا من أجل الهجنوت. وعندما ما أوصدت الخزانة الانجليزية أبوابها أمام توسلات وليام أف أورانج William of orange أمده مواطنو لندن متحدين بأموالهم، ولم يصب النجاح أصدقاء اليزابيث في اسكتلندا، ومع ذلك، فقد شجعتهم بالوعود التي لم تنفذ، لأن مثل هذه الوعود بسبب الحرب، لذلك نجدهم يورطون أنفسهم لصالحها، وتساقطوا الواحد تلو الآخر في مهالك مميتة، وكان منهم ميورى Murray ومورتون Morton وجورى Gowrie فضلا عن أن الباحثين منهم أخذوا، أماكنهم، وواصلوا الكفاح.

وبذلك أنفذت حركة الاصلاح الاسكتلندى. ولم يسمح لاسكتلندا أن تفتح ذراعيها لجيش غازى ليهاجم انجلترا عبر الحدود. ولكن اعتبر هذا بمثابة تعويض كاف لهم، واهتم الأصدقاء في اسكتلندا بقضيتهم، علاوة على اهتمامهم بالملكة الانجليزية وقد حصلوا على مكافأتهم. فاذا هم انقذوها (أى أنقذوا الملكة) فهم في هذه الحالة ينقذون

وطنهم. فالملكة اليزابيث لم تتم على سرير من الورود. فلكى تمنع اندلاع حرب اعلانية ، كانت تعرض حياتها للأغتيال ففى أى لحظة يمكن لأى طلقة مسدس أو طلعة من خنجر أن تضيف اليزابيث الى قائمة الضحايا. وكانت اليزابيث على دراية بذلك، ومع ذلك فأنها واصلت سياستها، وواجهت بذاتها شريكها فى المخاطرة، وقررت شيئاً واحداً يتمثل فى أية فى حالة عدم استطاعتها الدفاع عن أصدقائها، وعن رعاياها كملكة لانجلترا، فإنه فى هذه الحالة، يتعين عليها أن تتركهم احراراً فى الدفاع عن أنفسهم. وقد سمحت بشنق الخونه عندما يلقي القبض عليهم وهم متلبسون. ووافقت للتجار بأن يهاجموا فجأةً باساطيلهم - التى يعدونها على نفقتهم الخاصة - سفن العدو ويستولوا عليها، كى يدافعوا عن شواطئ انجلترا، لكى يعطوا الأسباب درساً فى الخوف من انتقامهم (أى من انتقام الانجليز).

ولكن الى متى تستمر كل هذه الأمور؟ والى متى يستمر المواطنون المخلصون فى الاحساس طوال هذه المدة بأنهم يعيشون على لغم قابل للإنفجار؟ ففى كل مكان من وطنهم، وفى كل مكان من القارة (الأوربية) اندفع حشد غفير من المتأمرين فى روما ، ومدريد، وبروكسل، وباريس ، يستهزئون بالكومنولث البريطانى. ومن المحتمل أن الملكة لم تكن مبالية بهذا الخطر الذى يحيق بها، ومن المرجح أنها ربطت حياتها بسلام المملكة ككل. فمن الممكن أن تخرج السيوف من اغمادها فى كل وطن من هذه الأوطان). ومن الممكن أن يضغط على زناد البنادق، ومن الممكن أيضاً أن يكون هناك طلعة خنجر بحيث تصبح انجلترا مثل فرنسا، مسرحاً للبربرية والفوضى السياسية والحرب الأهلية. وفى تلك الأثناء، فإنه لم يحدد وريث بعد (الملكة) لأن الملكة رفضت أن تسمع عن اعلان اسم وريث لها.

لقد كانت يدى مارى ستيوارت وراء كل مؤامرة، منذ عبرت الحدود وقد قدم مجلس العموم البريطانى مرتين عريضة يطالب فيها باعدامها (أى أعدام مارى ستيوارت). فلن تمس اليزابيث حياتها، ولا يسمح بأمالها فى أن ينتزع العرش منها. وكان ميثاق رابطة الجمعية بمثابة علاج اليأس. وكان من الممكن لقرار البرلمان البريطانى أن يمر بغير سهولة فى العاصفة التى قد تهب فى الحال. وقد وصل الكرب

الى مداه عندما وصلت الأخبار المميتة من الأراضي المنخفضة، بأن الاغتيالات قد أدت الى نتائج فى النهاية. وبعد محاولات فاشلة عديدة، أمكن التخلص من أمير الاورانج. وقد وجد منشور فى قصر وستمنستر West Minister يطالب سيدات القصر بأن يقدمن يهوذا لتخليص العالم من الكفرة الانجليز.

وعلى أية حال، فان جماعة من رعايا اليزابيث كانت لا تميل الى أن تجلس فى صبر، وهى تترجح تحت كابوس أبدى. وفى تلك الأثناء، قدم من أسبانيا جيش الخلاص، الذى من أجله كان الجزويت مشتاقين اليه كثيرا. وبالنسبة الى الانسان فان البابا كان يبحث تنفيذه أمر العزل (الخاص بالملكة اليزابيث). وكان الزب بارسونز قد أهمل فى تقديره مغامرى لندن، وليموث من البروتستانت. فبالإضافة الى عقيدتهم والى وطنيتهم، كانت لهم أخطاؤهم الخاصة بالانتقام. ومن المرجح أن فيليب كان يتحدث عن السلام، ومن المحتمل أن يكون الضجر فى الأوقات العصيبة مرغوبا فيه. ولم يكن هناك سلام ممكن بين الانجليز الذين ربطوا حياتهم بالمحيط، وبين محاكم التفتيش الأسبانية، التى احترقت الكثير منهم (أى من الانجليز) فبالنسبة لهم (أى الانجليز) فان أسبانيا كانت العدو الطبيعى لهم.

وكان الأشخاص الجسورون الذين أبحروا مع دريك حول الكرة الأرضية، والذين تربصوا لسفن الذهب الأسبانية، قد روعوا العالم بأعمالهم البطولية. فكانت السعادة فى حياتهم تكمن فى محاربتهم للأسبان فى أى مكان يمكن أن يلتقوا معهم فيه. وكان لكل واحد منهم رغبته فى حرب علانية نزيهة. وبالنسبة لهم أيضا (أى للانجليز) فان السفن الشرعية الكبيرة لم تكن مصدر رعب لهم فقد بدا للانجليز بأن قوة الاسطول الأسبانى كانت تمثل بالنسبة لهم شيئا ضخما محشوا بالخرق. وكانت الغالبية العظمى منهم (الانجليز) من البرتستانت. وكان نظامهم اللاهوتى عمليا أكثر منه مخاطرة. وعلى وجه العموم، اذا اختار الايطاليون والاسبان أن يعتقدوا فى القداس فان هذا شأنهم. وكان صراعهم (أى الانجليز) منصبا على أدعاء المتغطرس للكاثوليك، الذين يفرضون عقيدتهم على آخرين بحد السيف والمدفع. وكانت الروح التى تحركهم (أى الانجليز) تتمثل فى النزعة الى الحرية. كما أنهم شعروا (أى الانجليز) بأنه من الممكن أن يكونوا

سادة لهؤلاء الطغاة الروحانيين، ولكن بحسب ما تقتضيه الأمور، كل من المحتمل أن تتدلع ثورة في الوطن الأم فمن المحتمل أن تحترق مساكنهم وما حولها. وفي هذه الحالة يجتاح وطنهم، من قبل جيش أمير بارما Prince of Parma's Army وعند ذلك، تعقد محاكم التفتيش على أبواب منازلهم، ويعيد الملك الكاثوليكي اليهم حرق سميث فيليد (مكان الحرق) Smith fildfagots.

ولم يكن الإصلاح في أساسه مقدمة لهرطقات جديدة، ولكنه كان يمثل تمرد سواء الناس في أوروبا ضد الخلاعة، وجشع رجال الدين، وقد تظاهر البابوات والكارينالات، بأنهم ممثلون لله في الأرض، وعندما يدعون للمحاسبة بسبب مسلوئ سلطاتهم، فانهم في هذه الحالة يتصرفون تماماً كملوك مبشرين، واستقراطيين فاسدين. فقد يتآمرون (البابوات) وقد يحرمون (الناس) كنيسيا، ويثيرون أمة ضد أمة، وملوكا ضد رعايهم. وكانوا قد شجعوا الاغتيال، وعملوا لانفسهم سمعة سيئة، بسبب ارتكابهم للمذابح المروعة.

وقد علموا نصف الملكة النصرانية الأحق، أن يكره النصف الآخر. وارتعدت قلوب البحارة الانجليز التعماء - الذين أحرق رفاقهم في اشبيلية، وأصبح يوم حرقهم يوم عيد ديني أسباني - والذين صمموا بقوة على أن ينهوا مشاهدة مثل هذه. وكان الهدف من وراء ذلك بالنسبة لهم (البابوات) هو انهاء الناس في ضجيج حرب بربرية تختلط فيها أصوات آلات الحرب مع أصوات الرياح. وأنا وجدت في الأرشيف Record office خطابا غير موقع لبعض البحارة القدماء الشجعان. وقد كتب هذا الخطاب الى الملكة اليزابيث، بيد جسورة وقوية يعزل: كانت شركات السفن التي تخدم فيليب في الحرب صيفا، تتوجه بالآلاف شتاء، لتصطاد سمكا الكود Cod، ومن شواطئ نيوفاوندلاند New Found Land. وأضاف الخطاب يقول، وقال الكاتب اعطنى خمس سفن فساخرج بها وسأغرق بها (السفن الاسبانية جميعها) وسأنتف بها السفن الشراعية الموجودة في ميناء قادش Cadiz، لأنها كانت في حاجة الى رجال للأبحار بها. لذا قررت يانزوجتى، بل قررت على وجه السرعة، فالزمن يمضى بسرعة ولا يعود. والآنسان عرضه للموت في أى وقت.

ولكن لم تقرر الملكة ذلك، ولم ترسل الخمس سفن هذه. لهذا واصل البحارة القشتاليون التمساء اصطياد سمكهم من البحر. ولكن، اضطرت الملكة اليزابيث بالرغم عنها الى التصرف تحت ضغط ماتقضييه الظروف. ومن المعروف أن موت أمير الأورانج ترك الأقاليم دون حكومة (الأراضي المنخفضة). لذا ضيق أمير بارما Parma الخناق على هذه الأقاليم. وأصبحت هذه الأقاليم - بدون حاكم - فى ضياع، وطلبت من اليزابيث أن تندمج فى الامبراطورية الانجليزية. وقررت هذه الأقاليم أنه فى حالة رفض اليزابيث، فانه من الواجب عليها (أى على هذه الأقاليم) أن تخضع لأسبانيا أو أن تصبح أقاليم تابعة لفرنسا. وسواء أكانت الأراضي المنخفضة تابعة للاسبان أم للفرنسيين، فإنها ستكون خطرا يتهدد انجلترا.

ومرة أخرى، عادت الأراضي المنخفضة الى البابا، وستكون عودتها التالية الى انجلترا. وبخاصة عندما تقبل (اليزابيث) بالاقترح الذى يعنى الحرب الياشئة السريعة مع كل من أسبانيا وفرنسا، فان الأخيرة (أى فرنسا) سوف لا تسلم ابداء، مرة ثانية لانجلترا، بأن يكون لها موطن قدم فى القارة (الأوربية). عندئذ، لم تعرف اليزابيث ماذا ستفعل فهى أما أن تكون أولا تكون، فهى لم توافق وهى فى نفس الوقت لم ترفض. فهذا لا يعنى النفى ولا الايجاب (أى أنها أصبحت فى حالة من التردد).

وفيليب الذى كان مغرما بالأساليب غير المباشرة، كما كانت هى نفسها، حاول الاسهام فى زيادة ترددها. وفى ذلك الوقت، انخفض المحصول فى جليشيا Galicia وكان الناس يموتون جوعا، بينما زاد محصول انجلترا، عن حاجتها من القمح كثيرا. وفى ظل اتفاق خاص فان ملاحى السفن (القراصنة أو الأسبان) سوف لا يتعرضون بالأذى الى اسطول تجار القمح، الذى قد يذهب بشحنات من الحبوب الى كورونا Coruna ، وبلباو Bilbao ، وسانتندر Santander. ولكن عندما سمع ملك أسبانيا بأن اليزابيث كانت تتعامل مع الأقاليم، أصدر أمرا مفاجئا بالاستيلاء على السفن ومصادرة ماعيلها من شحنات، وسجن الرجال العاملين عليها (البحارة). وقد نفذ هذا الأمر.

وفى تلك الأثناء، كان الحظ متاحا فقط لهروب سفينة انجليزية، وذلك بواسطة

مهارة قائدها. وكانت هذه السفينة هي "بريم روز" Prim-Rose وهي من لندن، التي التي كانت مرابطة في ميناء بلباو. وكان على ظهرها القبودان وخمسة عشر بحارا آخرين. وعندما تلقى رئيس البلدية الأمر (الخاص بالإستيلاء عليها) صعد الى ظهر السفينة ليتفحصها. وبعد ذلك، واصل رئيس البلدية (الأسباني) المسير الى الشاطئ لينقذ القوة الكبيرة من نوبة المرض، الذي كانت قد تعرضت له هذه القوة. وفي تلك الأثناء، وبعد مغادرة رئيس البلدية الى ظهر السفينة الانجليزية، سمع قبودانها بالمصير الذي كان ينتظره. فقد عاد رئيس البلدية، ومعه مركبان معلومان بالجنود، وعندما كان يخطف السلم لمس القائد (أى قائد السفينة الانجليزية) من كتفه وأخبره بأنه أصبح سجيناً.

ولكن في تلك الأثناء تمكن البحارة الانجليز من خطف رمح وسيف ومسدس وفأس حربية، وقتلوا ما بين سبعة أو ثمانية من البحارة الأسبان، والقوا بالبقية منهم من فوق ظهر المركب الى البحر وقذفوهم بالحجارة. وبعد ذلك اندفع البحارة الانجليز وهم في حالة ذعر، الى مراكبهم أو الى قواريرهم.

وكان رئيس البلدية (الأسباني) الذي سقط في البحر، قد أمسك بحبل وسحب بعد انتهاء المعركة. بعد ذلك قطعت أحبال مرسى السفينة "بريم روز" أو رفعت الأشرعة، وفي دقائق قليلة، اتخذت تلك السفينة "بريم روز" طريقها الى انجلترا، ومعها رئيس بلدية مدينة بلباو، ولم تغلق سفينة أخرى. وإذا كان فيليب قد أراد أن يربع اليزابيث، فإنه لم يكن في مقدوره أن يفعل أسوأ مما فعل، والسبب في ذلك يرجع الى أنه قد اغضب هذا الجزء المعين من السكان الانجليز الذين كانوا أقل خوفاً منه. فبالإضافة الى تحطيمه للثقة واعتقال بعض مئات من التجار والبحارة الانجليز الذين كانوا قد ذهبوا فقط لأغثة الأسبان كالمعتاد، فإن اليزابيث لم تتصرف من فورها بنفسها، ولم ترسل سفناً من أسطولها للمطالبة بتعويض. عندئذ أطلقت أيدي المغامرين. وقد قرر مواطنو لندن، وليموث أن يلقتوا الأسبان درساً، سيترك له أثراً. فقد انتابهم أسوأ المخاوف على مصير السجناء الانجليز، فإذا لم يستطيعوا انقاذهم، فيمكنهم أن ينتقموا لهم، ولم يرغب دريك في شئ أفضل من أن يعود مرة ثانية الى العمل. وقد

تطوع بخدماته، وكون اسطولا في بليموث، ضم ٢٥ سفينة. وكان لكل سفينة من هذه السفن واجب خاص.

ولم تغادر الشواطئ الانجليزية، أسلحة أفضل من هذه أو سفن مجهزة أفضل من تلك، في أى وقت من الأوقات. ومن المعروف أن تكاليف هذه القوات كانت باهظة. وكانت قوة دريك من البحارة والجنود تتراوح فيما بين الفين وثلاثة آلاف. وعلاوة على ذلك، فإن اسم دريك كان يسارى جيشا بحالة. وكان من الممكن أن تسترد تكاليف هذا الجيش من هذه البعثة بطريقة أو بأخرى. وكان من الممكن أيضا، جعل الأسبانيين يساهمون في هذه النفقات، ولكن كيف ومتى؟ فإن ذلك قد ترك لتقدير دريك. ولم يكن في هذه القوة التي ترأسها دريك نائب له أرسله أصدقاء أسبانيا كي يتولى القيادة مع دريك، وذلك بهدف تقييده. وقد تولى دريك القيادة المطلقة بموافقة عامة. وكانت التعليمات الصادرة إليه أن يستعلم فقط في الموانئ الأسبانية عن مدلول (أسباب) اعتقال البريطانيين من قبل الأسبان، وفيما عدا ذلك، كان عليه أن يذهب أينما يرغب، ويعمل كيفما يحلوه، وعلى مسئوليته الخاصة

وقالت الملكة صراحة، أنها مستعدة أن تتنكر له إذا ثبت أن ذلك ملائم ولم يكن لدى دريك أية معارضة، لكل ما قالته الملكة. لذلك استطاع أن يلحق الأسبان درسا كي يكونوا أكثر حرصا في معاملة الانجليز، وما يتمخض عن ذلك سيكون موضوع المحاضرة التالية.

وكان الأب بارسونز، قد قال أن التجار البروتستانت في لندن، قد أصبحوا مخنثين، ولا يجروا على خوض الحرب. ومن خرائب مدنهم المحترقة كان على الأسبان أن يعلموا أن الأب بارسونز قد أساء فهم مواطنيه. وإذا كان دريك يهتم الأعمال الطويلة، فإن عليه أن يترك سطور فرجيل التي نقشت فوق الأسلحة الأسبانية في سنت بومنجو.

((الفصل السادس))

البعثة العظيمة الى جزر الهند الغربية

كانت الملكة اليزابيث وزوج اختها فى أسبانيا، من أنصار المبادئ المعارضة للحرب، ولكن كان ذلك فى شئ من التحفظ، ففى داخل أنفسهم لم يكن لديهم الرغبة فى النزاع، ولكن كان كل واحد منهما تدفعه الأقدار والظروف - فيليب كانت تدفعه مبادئ عقيدته الكاثوليكية، واليزابيث كان يدفعها المتحمسون للحرية، ويدفعها أيضا نصيحة رجال الدولة الذين لم يروا أمنا الا فى الجسارة، ومع ذلك كان لكل منهما الرغبة فى السلام، وكان كل منهما يرفض أن يرى السلام مستحيلا، ولكن مع ذلك اكره كل منهما على الاستسلام لرغبات رعاياه. فكان على فيليب أن يهدد انجلترا بالغزو، وكان على اليزابيث أن توضح لفيليب أن انجلترا تمتلك ذراعا طويلة، وهذا الذراع سيجعل العقل الأسبانية تخاف خوفاً شديداً. وكانت تلك حالة شاذة، وقد أثار فيليب حق الأرثوذكسية، وتجراً على أغصاب روما، وذلك بالأبقاء على سفير فى بلاط اليزابيث بعد حرمانها كنيسيا.

وقد جاهد (فيليب) باخلاص صادق لايشويه الشك لعقد صلح، وقد تبين ذلك من خطاباته السرية، وتنازل الملك من أجل السعى للصلح، على الرغم من دريك، ورحلة (السفينة بليكان) Pelican مع أن (فيليب) قد ساعد البابا فى اشعال نار الفتنة فى ايرلندا. وشجع (فيليب) أيضا رعايا اليزابيث من الكاثوليك، بأن يقوموا به تلو الأخرى. وقد رضى أيضا عن المحاولات الخاصة بالتخلص منها (أى من اليزابيث) مثلما تخلص من قبل من أمير الأورانج. وقد ثارت اليزابيث، ولكن دون حماس كبير، حيث أنها سمحت لجنودها بالتطوع فى خدمة الأراضي المنخفضة الثائرة، وسمحت للقراصنة الانجليز بأن ينهبوا المستعمرات الأسبانية، وأن يستولوا على سفن الذهب، وأن ينتقموا للأخطاء التى أرتكبها الأسبان.

ولعل كل منهما رغب من وراء ذلك أن يوضح للآخر، ماذا ستكون تكلفة الحرب العلانية أو المفتوحة بالنسبة لكل منهما. لهذا تراجع كل منهما عندما بدا أن الحرب آتية ولا مفر منها.

يرحل قبل أن يتغير مزاجها (أى مزاج الملكة) المتغير. وكان هناك التزام بالصمت. وفى صباح اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر، ارتفعت راية من المركب الرئيسى لدريك معطية اشارة الرحيل، ومع ذلك فلم يكن دريك واثقا من استمرار صاحبة الجلالة السماح له، ولأن معه بمواصلة العمل.

فاذا تجاوز دريك أوشانت Ushant، فلم يكن من الممكن استدعاؤه ثانية وانجرفوا مع التيار عبر الخليج بواسطة رياح خفيفة وهادئة. وتقابل دريك ومن معه مع مجموعة صغيرة من الفرنسيين المتجهين من الشواطئ الى وطنهم، وقد سمع دريك للفرنسيين بالمرور دون أى أذى. وفى اليوم التالى، التقوا مع سفينة أسبانية كبيرة كانت مشحونة بسبك مملح طازج، فاعتبروها مكافأة شرعية، وكان هذا السبك من نوع جديد، وفريد، ووزع فيما بين سفن الأسطول. ويتمهل تركوا فنستير Finisterre، وواصلوا المسير الى جزر البايونا bayona، الواقعة عند مدخل ميناء فيجو Vigo. وهناك ألقوا بمراسيهم، وكانت رؤيتهم أمرا عظيما. وأصابته الدهشة الحاكم الأسباني، دون بدرو بمارو و Donpedro Bemadro، الذى حاول معرفة هؤلاء الأشخاص معرفة حقيقية. وأجاب دريك على أسئلة هذا الحاكم بسؤال مقاده، اذا كانت انجلترا وأسبانيا فى حرب، واذا لم يكن كذلك، فلماذا اعتقل التجار الانجليز (من جانب الأسبان). وقال بدرو أنه لم يعرف أن هناك حريا، وأما بالنسبة للتجار الانجليز فقد تلقى أمرا يقضى باطلاق سراحهم. وأما دريك فقد رد على بدرو بأن أنزل جزءا من قواته على الجزر، ولم يستطع بدرو التصرف حيال هؤلاء الزوار، فوجد أنه من الأفضل أن يسترضيهم بشحنات عربات من النبيذ والفاكهة. وكان الطقس - الذى كان حتى الآن صافيا - قد أظهر أشارات أو دلائل على التغير. فقد هبت الريح، وهاج البحر، وأصبح المرسى مكشوف، واذا أرسل دريك كريستوفر كارليل - ومعهم دى سفنه، وعدد قليل من المراكب الشراعية الصغيرة - الى الميناء، كى يتفحص مأوى أفضل، وقد نتج عن ظهور هذه المجموعة زعر فى المدينة، عندئذ، لجأ السكان المذعورون الى قواربيهم، وهم يحملون معهم ممتلكاتهم ونقائس كنيستهم. وكان كارليل الذى كان معارضا للكلفانية وللوثنية - مطلق اليدين فى الاستيلاء على جزء من هذه

الثروات.

واستولى (كارليل) على صليب كبير مصنوع من النضة الخالصة كان قد أودع في إحدى القوارب، وكان هذا الصليب خاصا بالكنيسة الكبيرة في فيجو Vigo واستولى كذلك على تمثال لريم العذراء، التي يقال أن البحارة الانجليز جردوها من ملابسها. وعندما أصبحت عارية عاملوها معاملة مهينة.

وكان تقرير كارليل، مرضيا وعاد كل الأسطول في اليوم التالي الى الميناء ورسى أمام المدينة. وفي ذلك الوقت انتشرت الأخبار في الوطن، ووصل حاكم جاليشيا Galicia وبرفته جميع القوة التي استطاع جمعها على وجه السرعة، ومن المحتمل أن يكون قد قدم في وقته، كي ينقذ فيجو نفسها. وأما بالنسبة لدريك، فربما يكون له أهداف أخرى، فلم يهتم بأن يعوقه هدف أصفر. وعلى أية حال، فقد رأى الحاكم (الأسباني) أن الانجليز كانوا بالقوة التي لا يستطيع معها التدخل، فكان من الأفضل له أن يبحث عن وسيلة يقنعهم (أي الانجليز) بها كي يذهبوا بعيدا بأفضل الشروط. والتقى كل من القائدين دريك ويدرو في القوارب، وذلك بغرض التفاوض. وكان دريك في حاجة الى المياه والى المؤن الطازجة. وسمح لدريك بأن يدعم نفسه دون ازعاج أو قلق. فقد حصل على كل ما يحتاج اليه. وقد بين دريك لملك أسبانيا أنه لم يكن من المتعذر انزال الضرر بجلالته في وطنه (أي وطن فيليب).

وبعد ذلك أبحر دريك بعيدا. دون أن يتحرش به أحد. وكانت مدريد في ذعر في هذا الوقت. وتجراً الانجليز على اهانة الأمير الأول في أوربا، وعلى ترابه المقدس. وقد بدا ذلك وكأنه حلم لشبه الجزيرة الأيبيرية نفسها واستمر مجلس الدولة مدة ثلاثة أيام يبحث معنى ذلك. وأصبح اسم دريك مألوفاً للأذان الأسبانية. ومما لا يمكن تصوره أن دريك قد أتى فقط للاستعلام عن السفن التي تم الاستيلاء عليها، وعن البحارة الذين تم اعتقالهم (من جانب الأسبان). ولكن ماذا عن الملكة الانجليزية؟ أفلم تعرف أن وجودها يرجع فقط الى صبر فيليب؟ أليست هي على دراية بقوة ملك أسبانيا ؟ أفلم ترتعد هي وشعبها ؟ فانجلترا الصغيرة كما يقول البعض من الممكن أن تبتلع مرة واحدة بواسطة ملك يحكم نصف العالم. وكان الأدميرال العجوز سانتا كروز Santa Cruz ،

أقل ثقة بالنسبة لعملية الالتهام هذه، ولاحظ سانتا كروز هذا أن انجلترا لها أسنان كثيرة، فبدلاً من التفاخر بالعظمة الأسبانية، فإنه من الأفضل لهم أن يستعدوا بأنفسهم ضد ما قد تفعله حيالهم الملكة. وحتى ذلك الوقت، فإن القراصنة Corsairs، قد ظهروا فقط بأعداد ثنائية وثلاثية، فبأسطول كهذا يقف من ورائه (أى من وراء دريك) فإنه فى هذه الحالة كان فى امكانه أن يذهب أينما يحلو له. وربما يذهب الى البحار الجنوبية مرة ثانية. ويمكن له فى هذه الحالة أن يستولى على جزر الماديرا اذا رغب فى ذلك أو جزر الكنارى. واعتقد سانتا كروز نفسه أنه فى الأماكن أن يفعل شيئاً لصالح جزر الهند الغربية وبما، ونصح بارسال كل سفينة متاحة الى هناك وعلى وجه السرعة أى كل سفينة موجودة تحت أيديهم (أى الأسبان).

وكان أسطول الذهب هو الهدف الحقيقى لدريك، وكان لديه (أى لدريك) معلومات بأن الأسطول سيكون فى طريقه الى أسبانيا، ماراً بطريق رأس جزر الفيرد Capedeverd Island وقد علم دريك بالوقت المتوقع فيه. وأبحر دريك من فيجو Vigo الى جزر الكناريا Canaries، وهناك تفحص مدينة وميناء بالما Palma، بهدف المتعة، ولكنه (أى دريك) وجد الرسو خطيراً، فالمدينة نفسها ليست جديرة بالمخاطرة، لهذا واصل المسير الى رأس الفيرد Verd. وفى ذلك الوقت، لم يحدد دريك وقته على وجه الدقة، فكان أسطول الذهب قد وصل وغادر، وكان دريك قد وصل بعد مغادرة أسطول الذهب بـ ١٢ ساعة، والسبب وكما قال "بنتنهد" يعلمه الله تماماً، وبذلك ضاعت فرصة استيلائه على الغنيمة المالية. ولكن الغرض السياسى للبعثة كان لايزال من الممكن انجازه، ولا يمكن الابحار بعيداً عن جزر رأس الفيرد، ومن الممكن أن توجد البداية فى سانتياجو santiago التى كانت مدينة مزدهرة وعامرة بالسكان وفى كتاب دريك به

خاصة، ملاحظة هامة، هو أن بعض بحارة بليموث قد اغتيلوا هناك، وداثماً من كريستوفر كارليل قريباً منه وموثوقاً به. فقد نزل الى الشاطئ وبرفقته ١٠٠٠ من الرجال ليهاجم المكان على الجانب غير المحمى. فعندئذ هرب القائد الزسبانى، والأسقف، معظم السكان - كما حدث فى فيجو - الى الجبال، ومعهم نفسائهم وأموالهم. فدخل كارليل يوم مقاومة تذكر، ونقل صليب القديس جورج St. George's

Cross، من القلعة ووضعه على الأسطول كعلامة. ودخل دريك ورست البقية من قواته، واستولى على الممتلكات. وكان ذلك فى السابع عشر من شهر نوفمبر من نفس العام، وهو اليوم الموافق لعيد جلوس جلالة الملكة The anniversary of the Queen accession، فزينت السفن وبطاريات المدفعية بالأعلام الإنجليزية، واحتفل فى هذه المناسبة باطلاق نيران المدافع وفتشت المنازل والمحلات وسلبت، ووجد فيها النبيذ بكميات كبيرة، كما وجدت فيها سلع ثمينة خاصة بالتجار الهنود. علاوة على وجود أشياء أخرى ثمينة ومع ذلك، فلم يحصلوا على ذهب ولا على فضة، فجميعها قد نقلت. وانتظر دريك مدة ١٤ يوما، كان يأمل أثناءها بأن يتفاوض الأسبان معه من أجل افتداء المدينة. ولما لم يلمحوا أو ولما لم يبدوا أية إشارة على ذلك، تقدم دريك مسافة ١٢ ميلا فى الدخول، نحو قرية حيث قيل أن الحاكم والأسقف قد لجأ الى هذه القرية. ولكن وجدت القرية مهجورة، فقد ذهب الأسبان الى الجبال، حيث كان من غير المفيد أن يتبعوهم (أى يتبع دريك الأسبان). ورفض الأسبان بكبرياء التفاوض مع رئيس القراصنة (دريك). وكانت مدينة سانتيا جو مبنية بطريقة جميلة. وكان من المحتمل أن يبقى دريك عليها. ولكن صبى السفينة الذى كان قد ضل وجد مقتولا ومشوها بطريقة وحشية. عندئذ، صدر الأمر بالحرق (الزمر من دريك) فتحولت المنازل والمحلات العامة والكنائس الى رماد، وبعد أن تم له ذلك واصل رحلته - كما توقع سانتا كروز- الى جزر الهند الغربية. وكان الأسبانيون على درجة كبيرة من الروعة فى كل شئ صنعوه أو لمسوه. فقد بنى الأسبانيون مدنهم فى ممتلكاتهم الجديدة على أعظم الأنماط. روعة للعالم القديم. فكان لكل من سنت دومنغو St. Domingo، وكارثا جينا قلاعها العظيمة القوية، وكتدراثياتها، وقصورها وميادينها وشوارعها، كالموجودة فى قادش وأشبيلية Seville، وأقيمت كاثار خالدة تدل على قوة وعظمة الملوك القشتاليين. وقد قصد دريك أن يزور هذه الأماكن.

وفيما وراءهم، كان يوجد البرزخ، حيث حقق شهرته الأولى وحظه، وفيما وراء بنما، كان يوجد مستودع الثروة الهندية. وحتى الآن، كان كل شئ يسير سيرا حسنا معه. فقد أخذ دريك ما هو فى حاجة اليه من فيجو، ودمر سنتياجو، ولم يفقد رجل واحد

ولسوء الحظ فإنه كان لديه فى ذلك الوقت، عدو أسوأ من السفن الأسبانية الشراعية الضخمة، أو من الحاميات الأسبانية. ففى هذا الوقت كان دريك فى قيظ من المناطق الاستوائية، فقد اندلعت الحمى الصفراء، وانتشرت بين أفراد كل من الأسطول وتمكنت منهم وقد شفى القليل من هؤلاء، الذين أصيبوا بالعدوى بعض الشئ، ولكن لأن نفوسهم كانت محطمة، وكانت الحمى سريعة فى تأثيرها، فقد مات منهم فى أيام قليلة أكثر من ٢٠٠ شخص. ولكن هبت الرياح الشمالية الشرقية بدرجة خفيفة، فاندفع الأسطول أمامها، وفى خلال ثمانية عشر شهرا، اتخذوا طريقهم الى الدومينيكان Dominican - جزيرة المجارى المائية الصغيرة (الجداول) والأنهار، والفاكهة - ولم يكن الليمون المالح و الحمضى والبرتقال قد وجد بعد، ولكن كانت توجد أوراق وجذور لنباتات تنمو طبيعيا، وهى معروفة للكاريبين كعلاج للحمى، ولما علم الكاريبيون بأن الانجليز كانوا أعداء للأسبان، أحضروا لهم هذا العلاج النفيس، وعلموهم كيفية استخدامه وفى تلك الأثناء، غسلت السفن وهويت، وأعيد ملئ البراميل الخشبية بالمياه. وبدا أن العدوى قد انتهت فجأة متلما ظهرت فجأة، ومرة ثانية سار كل شئ على مايرام.

واحتفل بعيد رأس السنة فى سنت كيتس St.Kitts التى لم تكن مسكونة. وعقد مجلس حرب لبحث الخطوة التالية. وتقع سانت دومنجو على مقربة منهم، فهى من أجمل جميع مدن المستعمرات الأسبانية، فكانت العاصمة لحكومة جزر الهند الغربية، كما أنها كانت المركز الكبير لتجارة جزر الهند الغربية أيضا، وفى الكندرائية، وأمام مذبحها المرتفع وضع تمثال كولبس وشقيقه ديجو Diego .

أما فى مجال الثروة الطبيعية، فليست هناك جزيرة فى العالم تنافس اسبنولا Espinola، التى تقع فيها المدينة. وهناك تجمع سكان كثيرون، حيث كانوا بعيدين عن الإدارة، وحمتهم كما اعتقدوا هيبة الوطن الأم، وتقريا أبيض السكان الوطنيين، ولم يمنوا بأنفسهم بأنه فى استطاعة أى عدو الاقتراب منهم من المحيط، لهذا أهملوا الدفاع واكتفوا بأمن يسير.

وكان علي دريك أن يعطيهم تجربة جديدة، ودرسا للمستقبل، وادرك المغامرون الذين كانوا فى طريقهم من سنت كيتس سفينة صغيرة، وكانت متجهة الى نفس

الميناء، الذين كانوا متجهين اليه (دريك ومن معه). وعلموا (أى المغامرون) من طاقم هذه السفينة أن ميناء سنت دومنجو كان يتكون مثل كثير من الموانئ الأخرى، فى جزر الهند الغربية، من السنة رملية طويلة، التى تعمل كحاجز طبيعى للأمواج. وكان المدخل لهذا الميناء عبارة عن خليج ضيق يقع فى نهاية اللسان الرملى. وهناك نصبت من فوقه المدافع لحمايته. وكان الرسو فى الجانب الخارجى من الرصيف الرملى مستحيلا، بسبب شدة الأمواج، التى تلامس الشاطئ. وكانت هناك نقطة واحدة محمية فقط، حيث يمكن للقوارب أن تصل الى الشاطئ، ولكنها كانت تبعد عشرة أميال من المدينة.

ولم تكن العشرة أميال الامسيرة صباح. ودخل دريك بنفسه فى مركب شراعى صغير. وقام يمسح مكان الرسو واقتنع بنفسه من أمنه. وكانت خطة هجوم سنتياجو من الممكن أن تتكرر بالضبط، وفى عشية رأس السنة الجديدة، رسى كرستوفر كارليل مرة ثانية بنصف قوة الأسطول. وبقي دريك مع البقية، واستعد ليشق طريقه بالقوة الى مدخل الميناء، اذا نجح كارليل. وقد رصدت المدينة مجيئهم، فأعطت اشارة الأنداز، فأرسل النساء والأطفال، وأموال الخزانة والنفائس الموقوفة، وجميع الأنواع من الملكيات المنقولة الى داخل البلاد للأحتياط. يبدو أنه لم يكن يوجد هناك قوات نظامية، ولكن فى مدينة مكتظة السكان كهذه، لم يكن من الصعب جمع قوة كبيرة للدفاع عنها. وكانت قوة الفرسان تتكون من النبلاء الأسبان. ولم يكن الناس بصفة عامة معتادين على استخدام الأسلحة ولكنهم كانوا أسبانيين وشجعان، بحيث صمموا على ألا يتركوا منازلهم دون أن يدافعوا عنها. وظل كارليل ساكنا دون حراك طوال الليل. وفى الساعة ٨ صباحا، واصل المسير فى أول يوم من أيام السنة الجديدة، وتقدم بتمهل، وعند الظهر وجد نفسه (كارليل) أمام السور. وإلى هذا الحد لم يقابل أى مقاومة، ولكن قامت قوة كبيرة من الفرسان الذين تكونوا من النبلاء و أتباعهم بهجوم عليه، من الأدغال ومن المدينة نفسها، عندئذ قام بتنظيم قواته فى شكل مربع لملاقاتهم، وتقدم النبلاء الأسبان بشجاعة، ولكن استقبلوا بالرماح والنيران، وبعد محاولات قليلة تراجعوا، تتهقروا. ووجد كارليل أمامه بوابتين، وكان الطريق اليهما يمر من خلال غابة. وعند كل بوابة وضع مدفع، وملئت هذه الغابة بالجنود المسلحين ببنادق، عندئذ قسم كارليل رجاله وهاجم

بهما معا، وكان هو قد قاد جزءا بنفسه (كارليل). ولكن فتح المدفع نيرانه عليه وقتل رجل انجليزى بجواره. فقام هو (كارليل) بهجوم بحيث لم يعد للأسبان فرصة لإعادة تعمير المدفع. وفى هجمة واحدة اكتسح (كارليل) البوابة، وشق طريقه عبر الشوارع الى الميدان الكبير.

وأما القسم الثانى، فقد نجح هو كذلك، واستولى على سنت دومنجو عدا قلعتها، التى لم يتمكن من الاستيلاء عليها. وكان عدد جنوده (كارليل) صغيرا بحيث لم يستطيع احتلال مدينة كبيرة. وشيد (كارليل) على وجه السرعة حواجز، وحصن نفسه فى الميدان لمدة الليل. وعند قدوم الليل جاء دريك على رأس الأسطول، ونصب المدافع عندما استسلمت القلعة وأرسل رسولا - ولدا زنجيا - الى الحاكم ليخبره بالشروط التى أعدها (دريك) كى يجرى لينتقل المدينة من النهب. وكان الضباط الأسبان يتألمون من الخزي. وضرب واحد منهم (أى من الضباط الأسبان) الصبى فى جسمه بالرمح. وعاد هذا الصبى الى الخطوط الانجليز وهو يدمى، ومات عند أقدام دريك. وكان السير فرانسيس دريك هذا رجلا خطيرا عند الغضب. فأعمال كهذه كان من الواجب أن توقف فورا. وفى الجزء الذى كان يحتله من المدينة. وجد فيه ديرا كان به عدد من الرهبان. فالجماعات الدينية التى عرفها جيدا، كانت من المحرضين الأساين للسياسة التى كانت تغضب العالم أو التى أغضبت العالم بالفعل. وأرسل (دريك) اثنين من هؤلاء الرهبان مع قائد الشرطة العسكرية الى البقعة التى طعن فيها الصبى (الزنجى) وعلى الفور شتقهما، وبعد ذلك أرسل شخصا آخر ليخبر الحاكم بأنه سيسبق أكثر من اثنين كل يوم، فى نفس هذا المكان حتى يعاقب الضابط (الأسبانى). وقد تعلم الأسبان أن ينادوا دريك بالمكار أو بالشيطان. وخشى (الأسبان) أنه من المحتمل أن يكون الشيطان (دريك) رجلا فى كلمته، واستسلم مرتكبوا الخطأ.

وهذا لم يكن كافيا، وأصر دريك على أنه ينبغى عليهم أن يطبقوا العدل عليه بأنفسهم، وقد وجد الحاكم (الأسبانى) أنه من الحصافة أن يستجيب أو أن يذعن، بسرعة أعدم الضباط.

وكانت النقطة الثانية تتمثل فى عملية اقتداء المدينة، ولما كان الأسبان لا يزالون مترددين، كان ٢٠٠ من رجال (دريك) يهددون بإشعال الحرائق كل صباح، بينما كانت البقية تقوم بتفتيش القصور والمستودعات والمخازن. وكان مقر الحكومة أكبر بناية فى العالم الجديد، حيث كان هناك درج عريض من الرخام يصل الى مقر الحكومة. كما توجد أبواب كبيرة تطل على رواق فسيح، يقود الى صالة كبيرة. ومن أعلا هذا الرواق كانت تتدلى على رواق فسيح، يقود الى صالة كبيرة. ومن أعلا هذا الرواق كانت تتدلى الأسلحة الأسبانية، كما وجدت كرة أرضية تمثل العالم، ومن فوقها يقفز حصان، وفى فمه لفافة من ورق البردى بشعار ينم عن الغطرسة والكبرياء يقول - العالم ليس كافيا - وقد سوى هذا القصر، ومعه شعار النبالة هذا بالأرض بواسطة المعول والبندقية. واستمر التدمير كل يوم ولدة شهر، وفى تلك الأثناء ازدادت مطالب دريك باستمرار، وكانت توسلات الحاكم الأسبانى مستحيلة وذهبت سدى..

ولم يسمع من قبل عن مثل هذه العريضة والقسوة فى الأمم المتحضرة، وكان هذا وصمة للقضية البروتستانتية، فجدير بدريك أن يشنق على عتبه داره وهكذا، فلم يتوقف صوت الليبرالية البروتستانتية الساخطة على الصراع.

ولكن يجب ألا ننسى أنه لمدة خمس عشرة سنة، قام الأسبان بحرق البحارة الانجليز أينما استطاعوا الإمساك بهم، وتآمر الأسبان أيضا على قتل الملكة، بل على أرغام انجلترا نفسها أن تكون تابعة للبابا.

وقد وردت الجماعة المخلصة فى الأمة الانجليزية على هذا الزعم أو الحجة البربرية، وذلك بأيدى أمير بحرهم. فاذا اختار فيليب تشجيع القتل، واذا اختارت محاكم التفتيش أن تحرق البحارة الانجليز، كمهرطقين، فإن هؤلاء المهرطقين فى هذه الحالة سيكون لهم الحق فى جعل أسبانيا تفهم أن لعبة كهذه تكون لعبة خطيرة. هكذا، وكما قال سانتا كروز بأن لديهم (أى الانجليز) أسنانا ويستطيعون استخدامها.

واكتشف فى النهاية، أن رجاء الحاكم للمستحيل كان أكثر حقيقة مما كان يعتقد فيه من قبل. وفى الواقع نقل الذهب والفضة، وكل الأشياء الأخرى التى كانت قيمة، فاما أحرقها الانجليز أو استولوا عليها، ولكن تدمير مدينة مبنية على أساس قوى

ومتين، كان أمرا صعبا وشاقا، ولكن مع ذلك فقد دمر نصفها تقريبا، وأبقى على الكندراتية، وربما على مكان إقامة كولبس. وبعد ذلك، كان أمام دريك عمل آخر. فبعد المكوث شهرا في عمل غير مزعج وافق دريك على قبول ٢٥ خمس وعشرين ألف من اللوكات كغدية في مقابل ماتركه لـون تدمير بعد ابحاره. كان ذلك في شهر فبراير. وفي هذا الشهر كان الصيف الحار على الأبواب، عندئذ سيصبح المناخ خطيرا. وكان لايزال يوجد هناك الكثير من العمل، ويمضى الوقت بسرعة، وكان من الواجب ترك بنما فرصة أخرى. وكان هدف دريك أن يوجه الضربات التي ستهدد أوروبا في قوة أسبانيا. وكانت كارثا جينا Carthagena التالية، ليست دومنجو، وهي من بين الحصون الأسبانية في جزر الهند الغربية. وكان الموقف قويا. ففي عام ١٧٤٠، كان في مقدور كارثا جينا سحق فيرنون vermon واسطول انجليز كبير، ومع ذلك، كان بحارة دريك في صحة وروح معنوية عالية. وعزم دريك أن يفكر فيما يستطيع عمله. ولم يعد يأمل في هجوم مفاجئ. ومع ذلك انتشر الذعر في البحر الكاريبي. وفي هذا الوقت كانوا على أتم الاستعداد للذهاب إلى أي مكان، والقيام بأي عمل فاتجهوا إلى كارثا جينا. وفي هذا الوقت كان العرب يسبق اسم دريك. فكل المدنيين - سواء أكانوا رجالا مسنين أم نساء، أم أطفالا - قد أبعدها قبل وصوله (دريك) ومع ذلك، فقد استعدت البقية لدفاع قاس. وقد تكون ميناء كارثا جينا من السنة رملية، مثلما كان الحال في سنت دومنجو، وميناء رويال. وكان هذا اللسان الرملى طويلا وخفيفا، وكان لا يبلغ عرضه في أماكن كثيرة ٥٠ ياردة، وكانت الدغال الشوكية تغطيه، وعلى طول هذا اللسان، وكما سبق من قبل، كان من الضروري القيام من أجل الوصول إلى المدينة. وقد حفر خندق عبر البوقان، وشيد مانع قوى وسلح بالمدايع الثقيلة، وفيما وراءه كان يوجد العديد من مئات الجتود المسلحين بالنباذق، بينما ملأ الدغل (الأحراش) بالهنود المسلحين بالسهم المسمومة. ودقت الخوازيق المدببة - المسمومة أيضا - في الأرض على طول طرق الاقتراب، وكان الشخص الذي يخطوه عليها كان مصيره الموت. وكانت هناك سفينتان شراعتان كبيرتان مزودتان بمجاديف، ومملوئتان بالرجال، تقومان بأعمال الدورية على حافة الميناء. وكان أمل السكان أن يبقوا دريك المرعب في مكانه، حتى لا يصل إليهم.

ومثل ما حدث من قبل، سَاقَ كارليل أن يخوض المعركة برا. واتخذ مكانا على الشاطئ على مسافة ثلاثة أميال جنوب اللسان الرملى. وكان المد والجزر خفيفا فى هذه البحار، ولكن كارليل انتظر حتى تلاشى هذا المد والجزر وتقدم على طول الشاطئ من الخارج عند انخفاض منسوب المياه، التى كانت طلقاتها النارية تمر من فوقه. وظهرت سريتان من الخيالة، ولكنهما لم يستطيعا أن يفعلا أى شئ بالنسبة له (أى كارليل) فى الأرض غير الممهدة. وزحف الانجليز الى السور، دون أن يفقدوا رجلا واحدا. وكان الانجليز قد هاجموا وتسلقوا المتاريس، وأجبروا المشاه الأسبان على التقهقر بأسنة الرماح، وقتل كارليل قائدهم بيده، وهربت البقية بعد معركة قصيرة، وأصبح دريك سيدا لكارثا جنيا. وهنا بقى دريك مدة ستة أسابيع. وأنسحب الأسبانيون الى خارج المدينة. ومرة ثانية، كان هناك تفاوض على فدية مالية، وتبدلت المجاملات فيما بين الضباط. واستضاف دريك الحاكم وحاشيته ورد الحاكم الضيافة، واستقبل دريك وضباطه الانجليز، وطلب دريك ١٠٠,٠٠٠ من الدوكات. وقدم الأسبان ٣٠,٠٠٠ من الدوكات فقط، واعتذروا لأنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا أكثر من ذلك. وكان من المحتمل أن يستمر الصراع، مدة أطول من ذلك، ولكنه اختصر بسبب ظهور الحمى الصفراء مرة ثانية فى الأسطول. وفى هذا الوقت، كانت قاتلة بدرجة كبيرة وقبل عرض الأسبان تركت كارثا جينا لأصحابها. وقد حان وقت الرحيل، لأن الحرارة كانت قوية التأثير، وبدأ الرجال فى التساقط بسرعة مروعة، وكانت بنما قريبة وتحت حمايتهم، وألقى دريك بعينيه الشغوفتين على ما يمكن أن يستولى عليه بسهولة. ولكن عند استعراضه لقواته وجد أن هناك ٧٠٠ جندي ملائمين للعمل، وهم الذين يمكن الأبقاء عليهم للخدمة. عندئذ قرر مجلس الحرب أن المسير عبر البوغاز بقوة صغيرة كهذه، يكون من الخطر أن يغامر به، وقد أنجز ما يكفيه للعظمة أو للشهرة، ومايكفى للتأثير السياسى فى أوروبا. وقد تحدى (دريك) ملك أسبانيا فى ممتلكاته. وقد تم الاستيلاء بالقوة على ثلاثة مدن أسبانية جميلة، بحيث أصبحت رهينة للفدية. وفى جوانب أخرى، كان النجاح أقل مما هو متوقع.

وفى ذلك الوقت ، لم يستولوا على الكاكافيوجو Cacafuego ، ولا على انتاج المناجم السنوى (التابع لأسبانيا). ونقلت المعادن النفيسة والعملة. ولم يكن من السهل إعادة الغنائم بصورتها هذه الى ما كانت عليه من القيمة، وكانت الحملة قد اعدت بواسطة أفراد خصوصيين، حيث أنهم تحملوا تكاليفها. وكانت هذه الحملة قد حققت ربحا قدره ٦٠,٠٠٠ ألف جنيه، منها أربعون ألف نفقات، أما العشرون ألف جنيه الأسترليني المتبقية فقد قسمت بين شركات السفن. وكان الضباط والجنود الذين ساهموا فى هذه البعثة لم يتقاضوا أجورا سواء أكانوا من الرتب الكبيرة أم الصغيرة، على أمل ما يحصلون عليه من غنائم. وقدم الضباط وأصحاب السفن دليلا عظيما على الروح الممتازة التى بها باشروا عملهم، لهذا قرروا التخلّى عن مطالبهم فى الفدية المدفوعة عن مدينة كارثا جنيا، بل طالبوا بمنحهم نفس مايمنح الى البحارة العاديين، ومرة ثانية، كانت رغبتهم الملحة تتمثل فى حصولهم على مكافأة نظير محاولاتهم المؤلمة.

وكان الجميع مقتنعا تمام، ومدركا لكل ذلك، وقد أدوا واجبهم نحو ملكتهم، ونحو وطنهم. وعاد اسطول المغامرين الى الوطن فى مطلع شهر ابريل وقد انجز الرجال ما استطاعوا انجازه. ولم يستطيعوا أن يخوضوا حريا ضد وباء المناطق الأستوائية. وبعد مضى عدة أيام انتشرت الحمى الصفراء، فيما بينهم، وقامت بعملها المميت، ولكنها أخطت ببطء، وتأخروا بسبب الرياح المعاكسة الهادئة. ونقصت مياه الشرب، وكان عليهم أن يرسلوا مرة ثانية عند رأس انطونيو Cape Antonio ، وهى النقطة الغربية من كوبا، وهناك سيقومون بحفر الابار التى سيزودون أنفسهم منها بالمياه. ومن الملاحظ أن دريك نفسه عمل بالمسحة والدلو، مثل ما فعل أى شخص فى الجماعة. ودائما، وفى المقام الأول، كان يتحمل العمل الشاق ليحوز على الشرف. وكان هو الأكثر حكمة فى استنباط المشاريع. وكان هو الأكثر هدوءا فى وقت الخطر. فهو الأول فى إعطاء المثل للنشاط، فكان عليه أن يقوم بمواجهة الصعوبات، وفوق كل ذلك كان أكثر ثباتا فى المحافظة على التعليمات والنظام.

وقد خفت حدة الحمى الصفراء، عندما وصلوا الى خطوط العرض الأكثر برودة. وشقوا طريقهم الى قناة البهاما، واتجهوا شمالا كي يتجنبوا المراكز التجارية. وكان

البروتستانت الفرنسيون قد حاولوا تأسيس مستعمرة في فلوريدا وقد بنى الأسبانيون حصنا على الساحل كى يراقبوا منه مستوطناتهم. (أى المستوطنات الأسبانية) أو كى يراقبوا منه مستعمراتهم، وكانوا يقطعون رقاب الهنوجت كلما حانت الفرصة. وأثناء مرور دريك قام بزيارة لهذا الحصن ودمره. ومرة ثانية، كان فى أقصى الشمال، فى الوقت المحدد لكى ينقذ ماتبقى من المستعمرة الانجليزية، التى كانت قد أسست هناك على عجل بمعرفة أحد الأتباع الأذكاء للملكة اليزابيث.

وكان السير وولتر رالى Sir walter Raleigh ، من المشهورين فى عصر اليزابيث الذى كان من المثيرين للاهتمام بدرجة كبيرة، بسبب مواهبه المتعددة والممتازة، وبسبب حظوظه المتفاوتة، ونهايته القاسية، والذى سيحفظ التاريخ الانجليزى ذكره. وتعد انجازاته العظيمة أكثر مما هم (الأنجليز) أنجزوا. فكانت يده فى كل شىء، ولكن رغم العمل الناجح الكامل كان هو أقل من الآخرين، الذين يكونون فى مستوى أدنى منه، والذين قدم لهم الحظ فرصا أقل. فكان هو مشغولا بمائة مشروع فى وقت واحد، وفى كل واحد منها كان هناك بعض الاهتمامات بالنفس، والطموح الشخصى أو بهدف خاص يحقق. وكانت حياته سجلا للعشاريى التى بدأت بحماس. وفى النهاية، انتابها الفشل والقصور لعدم المحافظة عليها. وكان من بين مغامراته الأخرى، أنه أرسل جماعة من المهاجرين الى فرجينيا. وقد تصور أنه انقاد بواسطة الآخرين فى الاعتقاد بأنه كان يوجد هناك بلاط هندي متألق مثل بلاط منتوزوما Montezuma ، الذى يمثل أمة مستنيرة كانت تصرخ حتى يسمح لها أن تدخل الدائرة الساحرة لرعايا جلوريانا Glorina's subjects . وثبت أن امراءه وأميراته لا حقيقة لهم (أى أنهم أشياء خياليين فى الهواء) أو أنهم مجرد هنود همج، ولا يوجد شىء من بقايا والى هناك فى فرجينيا، سوى اسم المدينة التى حملت اسمه من بعده، فالذين لم يموتوا جوعا من سكان مستوطنته، الواقعة على نهر الرونوك Roanoke River ، أخذوا عند عودة دريك على متن اسطوله، ونقلوا الى وطنهم انجلترا فى ٢٨ من شهر يوليو ١٥٨٦ م، حيث وصلوا جميعا بسلام، فالجد لله، كما قال أسلافنا الاتقياء، الذين قصصوا الاخلاص غير التقليدى.

أنه لو كان هناك رجل أقوى من جميع بقية الجنس البشرى، فإنه سيحكم كل بقية الجنس البشرى، ويجب أن يكون هكذا، لأنه لا رد في ذلك. ويجب على الأغلبية أن تنتهيا لتثبت حقها الإلهي (المقدس) بأيديها في الحال أو في حقها الإلهي سيذهب سدى مثل الحقوق الإلهية التي ضاعت من قبل. وأنا لا أعتقد أن العالم قد شيد بطريقة سيئة، بحيث أن هناك حقوقا لا يمكن أن تنفذ ويظهر لي أن صاحب الحق الفعلي في الحكم في أية أمة يتوقف على هؤلاء الذين يكونون أكثر شجاعة وقوة، سواء أكان عددهم كبيرا أم صغيرا. ومنذ ثلاثة قرون قرر أشجع وأفضل جزء من هذه الأمة الانجليزية - مع أن هذا الجزء يكون تلك الأمة بأن البابا والأسبان لا ينبغي أن يكونوا أسيادا لهم.. ففي مثل هذه الأوقات المثيرة يتسع أفق الخيال. وفي القرن ١٦ م ظهرت قوة أسبانيا، كقوة لا تقهر، إذا أرادت أن تفرضها، هذا ما تخيلته أوروبا.

وكان من المحتمل أن يثور الهولنديون المهرطقون في مقاطعة ناذية وكان من المحتمل أيضا أن القراصنة الانجليز لهم مطلق الحرية في التعامل مع التجار الأسبان. لذا جعل أمير بارما parma، الهولنديين يشعرون بسادتهم أخيرا. وكان القراصنة كثيرين كالزنابير ببسمهم في لدغاتهم، ولكنهم كانوا عاجزين على التأثير في مجريات الأمور، باستثناء رجال كهؤلاء الذين يتمتعون بحسن البصيرة مثل سانت كروز Santacruz. وقد اسقطت من الحسبان القوة الانجليزية في البحر، بل اسقطت من حسابات موارد حكومة اليزابيث. وفجأة ارسل اسطول من نفس اساطيل هؤلاء القراصنة، الذي لم يكن مدعوما من قبل ملكتهم. وكان الدافع من وراء ارسال هذا الأسطول عدد قليل من الأشخاص. وكان هذا الأسطول قد الحق الضرر بأرض أسبانيا المقدسة. فقد أبحر هذا الأسطول الى فيجو Vigo، وهناك نهب أفراد الكنائس، واستولوا على أى شئ هم كانوا في حاجة اليه. وقد ذهب هذا الأسطول دون أن يتحرش به أحد، فقد هاجم أفرادهم وأقتحموه وحرقوا، أو أنهم فرضوا فدية على أقدم مدن المستعمرات الأسبانية، وعاد أسطول القراصنة هذا الى الوطن دون أن يجازب أحد، وكان على المتأمرين الكاثوليك أن يعترفوا بأن لهم عدوا - يواجهونه - أسوأ من البيورتان المجادلين، أو أسوأ من المفضلين المدللين من قبل البلاط. ووقف

البحارة الإنجليز من البروتستانت بينهم (أى بين الكاثوليك) وبين فريستهم، وكان عليهم أن يتقابلوا أو يتفقوا على مبدأ، هو عدم الانحناء للبابوات أو للأمراء، وذلك قبل أن تفكر مارى ستيوارت فى ارتداء تاج اليزابيث، وقبل أن يتوج آلن Allen كاردينالا لكنتربرى. ولم تتوقع اليزابيث نفسها - ولم يكن لها الرغبة - نجاحا بارزا كهذا.

وفى ذلك الوقت، كان ينظر الى الحرب على أنها شئ محتوم. واحتج أميرالات البحر الأسبان على أن الشرف القومى، يتطلب الانتقام بسبب الأذى أو الصراع المهيمن. واعتقد البابا أخيرا - الذى حرض فيليب مدة طويلة على الحرب - بأن الوقت قد حان الى أن يرغم فيليب على التحرك، ولكن فيليب نفسه فطن ليدرك أن المكائد، والؤمرات لم تعد تخدم ميوله. فكان من الواجب على فيليب أن يستخدم قوته بطريقة جدية، أو أنه من المحتمل أن يتخلى عنه شعبه، لأنه لا يستحق تاج ايزابيلا، وسمح البابا بأحجام بأن تعرض الحقيقة له (أى فيليب). وهو (فيليب) لم يحب أبدا فكرة غزو إنجلترا. فلو تغلب عليها، فسوف لا يسمح له بالأحتفاظ بها، وإن مارى ستيوارات ستصبح ملكة، ومارى ستيوارت هذه فرنسية جزئيا، وقد تكون فرنسية تماما. وسيلقى عبء العمل كليا على عاتقه، وكان أجره أرضاء الكنيسة وأرضاء ضميره - ولا شئ غير ذلك، هذا على قدر ادراكه. وسيسترد الباب امتيازاته، والضريبة التي تقدر بينس واحد، التي كان يدفعها رب الأسرة فى إنجلترا، الى الكرسي البابوى، وسيسترد الباب بذلك سوق غفراته (بيع الصكوك).

ولو كان للشئ أن يعمل، فمن الواضح أن البابا ينبغي عليه أن يدفع جزءا من تكلفة هذا الشئ، وهذا أمر لم يرغب البابا فيه اذا استطاع ذلك. وكان يخدع نفسه، بأن عمل دريك سيجبر أسبانيا أن تدخل الحرب ضد إنجلترا، سواء هو (أى البابا) ساعد أم لم يساعد. ولكن فى هذه المسألة حاول فيليب ألا يخدع قداسته، وأخير فيليب أوليفاريز Olivarez - سفيره فى روما - أن يخبر البابا بأنه لا يوجد شئ قد قام به الانجليز نحوه، ولا يستطيع اغفاله، وإذا لم يقدم البابا مساهمة فعالة، فإنه (أى فيليب) سيعقد صلحا. عندئذ، ثار البابا وغضب، وشك فى صدق فيليب للكنيسة تماما، حتى أنه عند الغداء قذف بالصحن والأطباق من فوق

رؤوس الخدم. وقال لو أنه أعطى فيليب نقوداً، فأن الأخير سيضعها في جيبه، ويضحك عليه. ولكن لن يعطى له أية نقود حتى يرى الجيش الأسباني بالفعل على الشواطئ الانجليزية، ولم يتخل البابا عن هذا القرار.

وكان من المؤكد بالنسبة لفيليب الذي يبعث على الألم انه اذا هزم انجلترا، فان الانجليز الكاثوليك سيصرون على أنه من الواجب، جعل ماري ستيوارت* ملكة. مع العلم بأن فيليب كان لا يحب ماري ستيوارت لأنه لا يستسيغ شخصيتها، ولم يثق في تعهداتها، وفي الواقع، اعتقد بأنها لا تزال امرأة فرنسية، علاوة على أنها امرأة شريرة، رغم وجود الجزويت والكنة اللاهوتيين. ولكن كان من الواجب عمل شيء من أجل شرف كاستيل Castile ، (قشتالة) الذي انتهك. عندئذ، قرر أنه سيجمع أكبر أسطول عرفه البحر، وأنه سيقود هذا الأسطول بنفسه الى القتال الانجليزي، وأنه سيسيطر على الموقف بقوة كاسحة. وبعد ذلك يختار بعض السبل التي تكون أكثر ملائمة لنفسه، من أن تكون ملائمة لقداسته في روما.

وعلى وجه العموم، كان فيليب يميل الى ترك اليزابيث تستمر ملكة، وأن ينس، ويصفح، اذا هي تخلت عن أشخاص من أمثال لاسنجهام، وديرك، وأن يعد هو (فيليب) بأن يكون جيداً في المستقبل. واذا بقيت على عنادها، فإن أسطولها سيحمي طريق جيش أمير بارما. عندئذ، سيملى شروطه في لندن.

* ورثت ماري ستيوارت العرش بعد ميلادها، في ٨ من شهر ديسمبر عام ١٥٤٢م، ونشأت في فرنسا، وعادت إلى إسكتلندا، عام ١٥٦١م، ولكن لم يرحب الكثير بعودتها هذه، وبخاصة لأنها كانت كاثوليكية رومانية. وفي عام ١٥٦٥، تزوجت من اللورد دارنلي، الذي كان مكروها بدرجة كبيرة، والذي أغتيل بعد الزواج منها بستتين، وبعد ذلك، سجنها النبلاء الاسكتلنديون. ولكنها هربت إلى إنجلترا حيث كانت توجد هناك الملكة اليزابيث التي خشيت على نفسها من ماري، لأنها كانت التالية لها في تولى العرش الإنجليزي. وكانت ماري هذه، ستحاول أن تستولى على السلطة من اليزابيث، لذا سجنها اليزابيث ١٨ سنة. وفي نهايتها تم إعدامها في شهر فبراير عام ١٥٨٧م.

1) The new oxford illustrated dictionary, Bay books. Oxford Uni. press. Vol. II. 1980. P. 662.

” الفصل السابع ”

الهجوم على قادش

أتذكر عندما كنت صبيًا وقدمت لى ترجمة سيئة لهوراس*، فانتى ينبغى على أن أذكر بأن هوراس هذا كان رجلا من الأذكيااء، ولم يكتب هراء. ومن الواجب على طلبة التاريخ أن يضعوا فى آذانهم نفس هذا الحرص. فهم يرون أشياء معينة قام بها ملوك ورجال دولة، تلك الأشياء التى يعتقدون أنه فى استطاعتهم تفسيرها، بتقصصهم لشخصيات أفراد مخادعين أو بلهاء. وذات مرة أعطوا تفسيراً للجانب السيئ للطبيعة الانسانية، وأقترحوا أن هذا الجانب هو بالضرورة، الجانب الطيب أو الصحيح، وجعلوا من هورا سهم أحمق، فبدون شك فإن الحق قد يكون فى مكان آخر. ومن الجدير بالذكر أن رجالا وسيدات مرموقين لديهم عادة الباعث المعقول لسلوكهم، الذى يمكن أن يكتشف اذا بحثنا عنه بأعيننا المفتوحة.

ولم يوجد شخص قد قاس الكثير من المترجمين السيئين أكثر من اليزابيث فظروف مولد الملكة اليزابيث، وتقاليدها، ومصالح انجلترا، وعواطف الجماعة، التى أيدت مطلبها فى الوراثة، كل هذه الأشياء أرغمتها عند اعتلائها العرش أن تجد الأنفصال عن البابوية. فقد أعيد تأسيس كنيسة انجلترا على أساس انجلو - كاثوليكى Anglo-Catholic، التى من المحتمل أن تفسرها الفئات المتنافسة كل منها بطريقته الخاصة. وأن السماح بأكثر من شكل من أشكال العبادة العامة يؤدى الى صراعات وحروب أهلية، نتيجة الى اشتعال أمزجة وأفكار الناس. ولكن ربما أن يترك الضمير حرا تحت توافق ظاهرى، وأن هؤلاء الذين لم تتاسبهم مراسيم الصلاة هذه قد يستخدمون طقوسهم الدينية فى منازلهم الخاصة، واعتقدت اليزابيث ومستشاروها العقلاء، أنه اذا استطاع رعاياها أن يبتعدوا عن الصراع، ومن أن يقتل كل منهما الآخر، وألا يكونوا ساخطين بسبب المظهر الخارجى للأختلاف. فانه فى هذه الحالة يعلمون أن استقامة الحياة كانت أكثر أهمية من الأرثوذكسية، عندئذ، كان عليهم أن يقيموا القيمة الحقيقية للعقائد اللاهوتية المتنافسة. واذا سمح الوقت للتجربة أن تكون

لها محاولة عادلة، فلربما قد نجحت في ذلك. ولكن لسوء حظ الملكة و إنجلترا، كانت نار النزاع لا تزال حامية تحت الرماد. وقد علم بأن كل واحد من البروتستانت والكاثوليك، كان ينظر الى الآخر على أنه من اعداء الله، وكانوا لا يزالون مترددين في أن يصافح كل منهما الآخر نتيجة لتوصية من قانون برلمانى. و رأت الأكثرية المعتدلة من سواد الناس الكاثوليك أن يوجد اختلاف كبير بين الطقس الدينى الانجليزى بين القداس الكاثوليكي، بحيث يرغمهم ذلك على ترك الكنائس التي تعبد فيها أبائهم عدة قرون من الزمن. وقد التمسوا من مجلس ترنت The Council of Trent السماح لهم باستخدام كتاب الصلاة الانجليزى، فاذا وافق المجلس فان الخلاف الدينى سوف يتلاشى فى النهاية الى اختلاف بسيط فى الرأى.

ولكن صمم المجلس والبابا بأنه سوف لا يكون هناك تسوية مع الهرطقة عند ذلك رفض الالتماس، مع أنه كان مدعوما من جانب سفير فيليب فى لندن، وارغم عمل البابا هذا الملكة على أن تترك الادارة فى أيدي البروتستانت التي اعتمدت على اخلاصهم. وانتشر الصراع مع حركة الاصلاح الدينى وتعمق فأضطرت الملكة اىذاء ذلك الى أن تساعد بطريق غير مباشر جماعة البروتستانت فى فرنسا واسكتلندا. ومع ذلك، فلا تزال تلتزم بمبادئه ورفضت أن تضع نفسها على رأس تحالف البروتستانت. ولم تأخذ خطوة دون أن تترك خطأ مفتوحا للنهقر الى السياسة المضادة. وكان لديها كاثوليك فى مجلسها الإستشارى من الذين كانوا يتلقون اعانات مالية من أسبانيا. وملأت (اليزابيث) قصرها بالكاثوليك، وفى كثير من الأوقات، كانت الحيرة تصيب بروغلى فى أوقات حرجة عند الإستماع اليهم. وكان لجهودها المتواصلة، أثر فى تخفيف حدة خصومة الموالين للعقيدة القديمة وذلك بأن جعلتهم محل ثقته، وأوضحت لهم أن كل جماعة من رعاياها عزيزة عليها كالجماعة الأخرى.

ولدة عشرة سنوات، واصلت الصراع (اليزابيث). ولدة عشر سنوات أخرى كانت لها القدرة بكل فخر على أن تقول أنه خلال كل ذلك الوقت لم يضطهد كاثوليكي فى عقيدته سواء أكان ذلك فى ماله أم فى شخصه. وكان الفريق الأسمى من رجال الدين الكاثوليك فى يأس، فقد أحسوا بأن ضمائر جمهورهم مخدرة، وأن عقيدتهم

أصبحت فاترة، وحرصوا على الثورة في الشمال، واستمالوا بيوس الخامس Pius V كي يرغمهم حتى يكون لديهم شعور نحو واجباتهم، وذلك بأعلان حرمان اليزابيث كنيسيا. وأرسلوا بعثاتهم التبشيرية الى داخل المقاطعات الانجليزية، كي يعيدوا الأفراد الذين ضلوا عن العقيدة، ويعلموهم بأن الخطيئة تكمن في الخضوع الى ملكة عزلها البابا. واعقب ذلك مؤامرة ريدولفي Ridolfi، التي شجعت بتعمد من جانب كل من البابا وأسبانيا، والتي أجبرت الحكومة أن تضيق الخناق. وتلى ذلك مؤامرة أخرى. وكانت أية وسيلة لتخليص العالم من عدو الله تعتبر شرعية. وقد أسىء الى شخصية الملكة عن طريق الافتراءات الكاذبة، وعن طريق مئات الخناجر الحادة التي صوبت لقتل شخصها. ولم ينصح ملك أسبانيا بالحرمان كنيسيا، لأنه عرف أنه سوف يتوقع منه تنفيذ ذلك، بينما كان لديه أشياء أخرى يعملها. ولما طلب منه أن يتصرف قال هو والفا أنه اذا رغب الكاثوليك الانجليز في مساعدة الاسبان فيجب في هذه الحالة أن يعملوا شيئاً لانفسهم، ومن المنصف للكهنة أنهم كانوا شجعان. والى أى حد، فقد نجح الكهنة في كل ما قاموا به، بحيث أنهم جعلوا الوطن في ثورة. وقد أخبركم الأب بارسونز برأيه في البحث الذي قرأته عليكم في محاضرة سابقة. ورفضت اليزابيث ان تهتم بنفسها، فلم يظهر عليها أى ارتياب أو عدم ثقة، فهي لم تطرد السادة والسيدات الكاثوليك من قصرها. وهي لم تسمح بأية قوانين جزائية تنفذ ضد الكاثوليك، واكتشفت مؤامرات متكررة لاغتيالها واقتضحت، ولكنها لم تأخذ حذرًا. فلم يكن لها (اليزابيث) حرس خاص، وكان أقصى ماستفعله أن تسمح للجزويت والكهنة اللاهوتيين، الذين كانوا يبذرون بذور الثورة باعتراف بارسونز بأن ينفوا من الملكة، واذا أصرروا على البقاء بعد ذلك فانهم سيعاملون كخونة. وعندما يعتبر الشنق استشهاده فان المرشحين للشنق لن يكونوا في حاجة الى اكليل من الغار، وأن النار سوف تلتهم فقط الأكثر اخلاصا للعقيدة. وكانت اليزابيث تعتبر قيد الضحايا وحرقتهم وتقطيعهم الي أربعة أجزاء من جانب تاي Ty عملا اجراميا تشعر بالتقزز نحوه. وكانت قد كرهت القسوة التي اضطرت لممارستها، ولوئث اسمها بالافتراءات البذيئة، وعرفت أنه من الممكن أن تفتال في أى يوم. ومع ذلك فقد كانت نفسها غير مكرسة بأباء وشمع. ولكن ولا بد، فسوف

يتبع موتها حرب أهلية عنيفة. وفي يوم من الأيام أخبرت مجلسها الاستشارى بعد جلسة عاصفة أنها فى يوم ما ستعود وتسلى نفسها برؤية ملكة الاسكتلنديين وهى (أى اليزابيث) تجعل رؤوسهم تتطاير، وكان فيليب قد أصابه المثل من ذلك أيضا. فكان لديه ما يكفيه من مستغمرات دون أن يتشاجر أبدا مع أخت زوجته. فقد أدرك أن لها رعاياها وأنه إذا قام بضربته فسيدون له الصاع صاعين أو سيدون بضربة أخرى. وقد عمت الأموال الانجليزية والمتطوعين الانجليز حرارة الحرب فى الأراضى المنخفضة. فقد أستولت مراكب القراصنة الانجليز على سفن ذهب فيليب، ودمرت تجارته، وأحرقت مدنه الموجودة فى جزر الهند الغربية - كل ذلك كان فيه مصلحة البابا الذى عبر عن ذلك كثيرا بكلمات رقيقة، والذى قذف صحون الغذاء عندما طلب منه أن يساعد بالأموال فى اخضاع الانجليز. وفى الوقت الذى كان فيه دوق ألفا على قيد الحياة، تولى أمير بارما القيادة فى الأراضى المنخفضة مكان ألفا، الذى نصح بالسلام، اذا كان فى الامكان أن يوضع هذا السلام على أسس معقولة. وإذا وافقت اليزابيث على قبول سحب مساعدتها للأراضى المنخفضة، وإذا سلمت للكاتوليك الانجليز بالتسامح الضمنى الذى بواسطته يمكن أن تبدأ حكمها، ويعتقد سكان الأراضى المنخفضة، وكذلك فيليب أيضا أنه من الافضل أن يعفو عن دريك وسنت دومنجو، وأن يتخلى عن مارى ستيوارت، والكهنة اللاهوتيين، ولايتدخل بعد ذلك فى السياسة الداخلية الانجليزية.

وتعبت اليزابيث، من حالة اللاحرب والسلام وتعبت من شفق الخونة، ومن المشكلة التى لانهاية لها، الخاصة بأختها فى اسكتلندا، ورأت اليزابيث أنه لا يوجد سبب لرفضها العروض التى ستجعلها تعيش فى سلام بقية حياتها (مارى ستيوارت). ويقال أن فيليب سيعيد القداس Mass، الى الكنائس فى هولندا ولعل اليزابيث تتعهد بحرية الفكر للبروتستانت الهولنديين، كما كان لاليزابيث الرغبة فى أن تسمح للكاتوليك الانجليز (بحرية الفكر أيضا). وأدركت اليزابيث أنه لا يوجد سبب فى اصرارها على حرية العبادة العامة التى منعتها هى نفسها فى الوطن (أى وطنها). ولم تدرك السبب فى أن الهولنديين ينبغى أن يكونوا مدققين فى سماعهم للقداس. وقالت أنه من الأخرى بالنسبة

لها أن تسمع ألف قداس من أن تربط ضميرها في جرائم من أجل القداس. وهي لا تلزم مملكتها بأن تكون في قلق مستمر من أجل أخوة السيد سيسل في المسيح. وكان هذا احساسا شخصيا لاليزابيث، فلم يكن في الاستطاعة التصريح بذلك صراحة، وربما في ذلك الوقت، تسلم الأقاليم اليانسة الى فيليب، وأن تحصل على ضمانات أفضل لحريتها السياسية، وكانت هي (اليزابيث) على استعداد أن تطلبها لها (أي الأقاليم). ومن المحتمل بعد ذلك أن هذه الأقاليم تنضم الى الأسبان، وفي هذه الحالة تصبح هذه الأقاليم من ألد الأعداء لانجلترا. ومع ذلك فقد كان لاليزابيث رأيها السديد في إدارة شئون دولتها. وأكد أصدقائها الكاثوليك لها، انه اذا ماتم السلام أو اذا ماتحقق السلام، فانها ستكون في مأمن من العالم كله. وظهرت أمامها فجأة حادثة، ففي هذه اللحظة تكشفت وجود هوة فينخت تحت قدميها بطريقة لاشك فيها.

وفي الواقع، كان كل من فيليب واليزابيث يرغب في السلام، وسوف تنهى معاهدة سلام بين الملك الكاثوليكي وبين أميرة محرومة كنيسيا ثورة كاثوليكية في انجلترا. واذا وجد كل من النبلاء والارستقراطيين الأنجليز أن أعتقادات الكنيسة قد أهملت باستخفاف من جانب الأمراء الأكثر أرثوذكسية في أوروبا، فإن بارسونز وأصدقائه لن يجدوا أصدقاء لأرائهم عن التزامات الثورة. واذا توقفت هذه المفاوضات المضنية، فلا بد أن توجه هناك ضربة في الحال، وعندئذ، لا يجب أن تضع لحظة.

وكان حلم الفروسية الكاثوليكية في اليقظة والنوم، هو السجين، المفتون في Tutbury، فالقارس الشجاع هو الذي سيذبح التنين، وينقذ ماري ستيوارت ويضعها على عرش السالبة Usuper's Throne والتي (ماري) سوف تتفوق على أورلاندو Orlando وسان جورج St. George، وسوف يتغنى بها الى الأبد كأعظم نبيلة بطلة أمتشقت السيف أو الحرب. وكثيرا من الشباب الانجليز الشجعان قد إمتلات قلوبهم بأمل أن المشروع قد احتفظ لهم. وكان منهم أنتوني بابنجتون Antony Babington من دير بيشير Der Byshire، وهو رجل نبيل وثري. وقد افعل كاهن لاهوتي - مثل بقية الكهنة الآخرين - يدعى بالارد Ballard، بضرورة القيام بعمل، فاتفق بشغف مع هذا البابنجتون Babington، لمنع السلام واعتقد انه قد وجد الرجل

المناسب للقيام بمثل هذه المهمة. فسوف لا يكون هناك حديث أكثر عن السلام، إذا ماتت اليزابيث، وأصبحت ماري ستيوارت حرة، وبسهولة أعدت مؤامرة، تكونت من ستة أشخاص كان خمسة منهم على اتصال بقصر اليزابيث. وكان عليهم أن يطلقوا النيران عليها (أي على اليزابيث) أو يقطعونها ويهربوا أثناء الهرج، وكان على بابنجتون أن يتدفع إلى سجن ماري ستيوارت ثم يحملها إلى مكان آخر آمن، بينما كان على بالارد Ballard، أن يتعهد باثارة النبلاء والكاثوليك، وأن يعلن على الملأ بأن ماري ستيوارت أصبحت ملكة وعندما تزاح اليزابيث، كان من المفروض عليهم الايترددوا. وسوف يحضر بارما Parma، الجيش الأسباني من دنكرك Dunkirk، عندئذ سيصاب البروتستانت بالشلل. وكل ذلك سيبدأ وينتهي في أسابيع قليلة أو حتى في أيام. وبعدئذ ستعاد إقامة العقيدة الكاثوليكية وستسحق الهرطقة المكروهة إلى الأبد وقد استشيرت ماري ستيوارت فوافقت بحماس ومنذ عهد قريب، كانت هذه السيدة (اليزابيث) - الجديرة بالاهتمام - مسرفة في تأكيداتها، لرغبتها في التصالح مع أختها العزيزة. وقد اعتقدت اليزابيث تقريبا في اخلاصها. وبعد الملل من هذه المتاعب التي لانهاية لها مع ماري ستيوارت، ومع ادعاءاتها ومع تدبيرها للمكائد، فقد عزم (اليزابيث) بأن الملكة الاسكتلندية ينبغي أن تشملها المعاهدة مع فيليب مع اعتراف ضمني بحقها في وراثة العرش الانجليزى بعد موت اليزابيث. وكيفما كان الحال، فانه من الضروري أن يحقق ذلك بأي طريقة، اذا كانت هي صادقة في تأكيداتها. وقد استمرت المراقبة السرية على مراسلاتها، وعلى خطابات بابنجتون، وقد وقعت ردودها في أيدي وولسنجهام. وأصبح في يدها (أي اليزابيث) الدليل الذي يثبت خيانتها (أي خيانة ماري ستيوارت). وقد وصل إليها هذا الدليل نتيجة إهمال أحد الشركاء في هذه المؤامرة.

وقد اكتشفت بسهولة أمر الستة رجال الذين كلفوا بقتل اليزابيث والذين كانوا قد اكتسبوا ثقتها. وقد ألقى القبض عليهم، ومعهم بابنجتون وبالارد عندما اعتقدوا بأنفسهم أنهم على وشك الانتصار، وتراجع بابنجتون واعترف وشنق الجميع. وأصبح طلب ماري ستيوارت للرحمة لايجدى وكان مجلس العموم البريطانى قد اكتشف من قبل، وعلى مرتين أحدث مؤامراتها (ماري ستيوارت)، وطالب بالاعدام لها. وبسبب هذه

الخيانة الاخيرة حوكت فى فوزنجى Fotheringy، أمام لجنة من النبلاء والمستشاريين الخصوصيين وانكرت رسائلها. ولكن فيما بعد، ثبت أن اشتراكها فى الجريمة كان لاشك فيه. واستدعى البرلمان للانعقاد، وأصر للمرة الثالثة على أن التمثيلية الطويلة ينبغي أن تنتهى فى ذلك الوقت أو على أقل تقدير أن يوضع لها حد، وأن يسمح لانجلترا الوفية بأن تعيش فى سلام. ووقعت اليزابيث على أمر الاعدام. وكانت كل من فرنسا وأسبانيا وأى قوة أخرى فى العالم تحب منذ زمن طويل أن تضع نهاية لمنافس مستميت وغير قابل للعلاج. وقد تنازعت اليزابيث مشاعر مختلفة كهذه كثيرة بين الشفقة الطبيعية والخوف من رأى العالم، مما دفعها الى الانتظار، قبل أن تصدر الأمر بالاعدام. فاذا لم يكن هناك شيء تخاطر به فى حياتها لتركت السيدة تنتج مؤامرات أخرى جديدة، لعلها تنجح فى النهاية. واذا كان الأمر يتعلق بأمن أمة، فلا بد إذن أن تضع نهاية لها (أى ماري ستيوارت) وشعرت أنه من الصعب أن يلقى الواجب على عاتقها نفسها. فأين كان هؤلاء الابطال المتحمسون الذين وقعوا على ميثاق الجمعية Association Bond، هؤلاء الذين قد تحدثوا بصوت مرتفع ؟ ألم يوجد واحد منهم، لكى يتذكر قسمهم ويأخذوا القانون فى أيديهم ؟ أى أنهم يتصرفون بحرية.

فكان مجلسها (اليزابيث) وبروغلى Burghley، والبقية يعرفون ميلها واحساسها، ولما كانت المسألة مسألة حياة أو موت بالنسبة لحرة انجلترا تحملوا المسؤولية بأنفسهم، وأرسلوا أمر الاعدام الى فوزنجى Fortheringay على مسئوليتهم تاركين سيدتهم أن تتنكر اذا رغبت مع أنها قصدت تنفيذ هذا الأمر. وبذلك، تنتهى حياة ماري ستيوارت البربرية على المشنقة، وأنهم عرفوا فى الحال ماذا كانوا يفعلون، وعرفوا اذا كان للخيانة - معنى فان ماري ستيوارت قد جلبت مصيرها بنفسها. وربما أنهم لم يدركوا الآثار الكاملة التى تترتب على ذلك، فأنه بأختفاء ماري ستيوارت فسوف يختفى معها آخر خطر لثورة كاثوليكية فى انجلترا أو ربما لم يدركوا ذلك، وهذا ما جعلهم يقررون القيام بعمل.

ولم أستطع الأسهاب فى ذلك هنا. فطالما يوجد أميرة كاثوليكية من دم انجليزى لترث العرش، فان ولاء الكاثوليك الى اليزابيث قديمتز بسهولة. واذا لم يصيبها مكروه

فى هذا الوقت (مارى ستيوارت) فان كل واحد منهم سوف ينظر الى ملكتهم فى المستقبل.

ويعنى سقوط اليزابيث من على العرش فقدان الاستقلال القومى. والآن قد ذهبت ملكة الاسكتلنديين، فانهم (الكاثوليك) قد أصابهم الشلل نتيجة لمشورات متعارضة، وثبت أن حب الوطن أقوى من حب عقيدتهم.

وما يهمنى على وجه الخصوص، فى الوقت الحاضر أثر ذلك على ملك أسبانيا، وفى ممانعته فى التعهد بالمشروع الانجليزى الذى أطلق عليه بصفة عامة (الامبراطورة) الذى انبثقت من خوفه من أنه عندما ينجزه فانه سيفقد (أى فيليب) ثمار أعماله، ولم يستطع أبدا أن يطمئن نفسه، بأنه اذا وضع مارى على العرش فانه لن تصبح فرنسية فى النهاية. وقد علم فى ذلك الوقت بأنها أورثته مطالبتها فى الوراثة الانجليزية. ولقد لقب مرة بملك انجلترا. وكان لديه دعواه الخاصة، لانه ينحدر من سلالة ابوارد الثالث Edward III. وأكد له الجزويت والمتحمسون الكاثوليك فى كل مكان من أوروبا انه اذا استطاع أن يكسب هذه القضية، فربما يجعل من انجلترا مقاطعة من أسبانيا. ومع ذلك، فلاتزال توجد صعوبات، وربما كان يأمل فى أن سواد الناس من الكاثوليك الانجليز، سوف يقبلوه، ولكنه مع ذلك لم يؤكد هذا. ولم يكن متأكدا واثقا من أنه سيحصل على مساندة البابا. وقال الكوند دى فريا The Condede Feria، (عن فيليب) عبارة باحتقار - لم يستطع الكاتب أن يترجمها - انما كانت هذه العبارة تعنى التردد عندما كان ينبغى عليه أن يعمل. والآن يستطيع أن يأخذ موقفا أقوى نحو اليزابيث كمطالب بعرشها. واذا كان على معاهدة السلام أن تخطو الى الامام، فانه يستطيع أن يفرض شروطه، ويصر على عودة العقيدة الكاثوليكية الى انجلترا. وقد نقلت ملكية أقوى خمس مدن من أقاليم الاراضى المنخفضة الى اليزابيث ككمن لمساعدتها. واستطاع (فيليب) أن يصر على استعادتها، ولكن ليس للأقاليم لكن لنفسه، فاذا أرغمت (اليزابيث) على الموافقة على مثل هذا العمل الغادر، فإنه (فيليب) وبارما Parma يشعرون بأن القوة قد تركت اليزابيث، كما تركت شمشون، عندما قصت الفانية خصيلات شعره. ويركيانها عندئذ - اذا كان هذا يلائمهما - على عرش يصيح اداة

للتشهير ويشار اليه باحتقار.

وبفكرة كهذه، فإنه كان من الضرورة الملحة لفيليب أن يسرع ليعزز استعداداته،
التي كان قد بدأها من قبل. وكلما استطاع أن يقوى نفسه، كلما أصبح أقدر على
ارهاب اليزابيث حتى تضطر الى الخضوع. وبدأت كل ترسانة في أسبانيا العمل في
بناء السفن الشراعية الكبيرة، وجمع المؤن. وسوف يتولى قيادتها سانتا كروز Santa
Cruz. وكان فيليب أكثر عزيمة على اصطحاب الحملة بصفة شخصية، وأن يملأ من
القتال الانجليزي شروط معاهدة الصلح لأوربا. ولم يعد يحاول السرية. وفي الحقيقة لم
تعد هذه السرية ممكنة. وكانت كافة البلاد المسيحية اللاتينية يخفق قلبها بالامل. وكان
بحارو السفن يعملون ليل نهار، في كل من لشبونة وقادش ویرشلونة، ونابلي Naples.
وقد غطى البحر بالسفن المشحونة بالاسلحة والمؤن، وتدفقت الى مصب نهر تاجوس
Tagus وفي الوقت نفسه، تدفق المتطوعون الكاثوليك من كافة الأمم الى شبه الجزيرة
(أسبانيا) كي يشاركوا في الحركة الضخمة التي تقرر مصير العالم، وأقام الاساقفة
والكهنة والرهبان صلاة في كل الطوائف الدينية اللاتينية كي يحمي الله قضية هذه
الشعوب.

وفي غضون ذلك استمرت المفاوضات من أجل السلام، ومن الغريب أن اليزابيث
أصرت على الاستماع، علاوة على أنها لم تر ماكان واضحا لكل العالم فأعطي ملكة
الاسكتلنديين كان جاسما على صدرها، بحيث أرجعها الى المزاج العنيد. الذي قد جعل
ولسنجهام يئأس من سلامتها. ولمدة شهرين من وقوع المشهد في فورزرنجي
Fortheringay، رفضت (اليزابيث) أن ترى بروغلي كما أنها رفضت أن تتشاور مع أي
أحد باستثناء السير جيمس كروفتس Sir Games Crofts، والسيدات الانثى لهن مزاج
أسباني. وفي ذلك الوقت عرفت (اليزابيث) بأن أسبانيا قد اعتقدت بأنها (اليزابيث)
ستخون المدن في الاراضي المنخفضة. ومع ذلك، فإنها كانت عمياء عن سؤ السمعة
التي ستجلب عليها. وتركت جنودها هناك دون أن تدفع لهم أجر مما يهددها بالتمرد.
وقد ذكرت أسماء مفوضين، كان منهم السير جيمس كروفتس الذي كان على رأس هؤلاء
المفوضين الذين سيذهبون الى أوستند Ostend ليتفاوضوا مع بارما وإذا لم تصمم

على خيائته، فأنها على الأقل تتلاعب بالأغراءات، وتقنع نفسها بأنها إذا أختارت أن تعهد بالمدن الى فيليب، فإن معنى ذلك أنها تعيدها الى صاحبها الشرعى.

وتستطيع أن تفهم من خطابات كل من بروغلى وولسنجهام أنه من المعتقد أن اليزابيث فى ذلك الوقت قد دمرت نفسها فى النهاية. ولحسن الحظ، فإن أحوالها النفسية كانت متقلبة مثل الطقس. وأجبرت على أن ترى الحال التى تردت لها شئونها فى الأراضى المنخفضة، وذلك، بظهور عدد من البائسين الجياع الذين هربوا من الحامية الموجودة هناك، وتجمعوا وهم يصرخون عند بوابات قصرها من أجل أن تدفع لهم مرتباتهم. ومادام لم يكن لها قوات فى الميدان الا الرعاع الجياع المتمردين، فقد لاتصل الى اتفاقيات بالمره. وأنه لمن المستحسن أن تظهر لفيليب أنه من الممكن أن تكون خطبرة حتى من ناحية واحدة. فهى لم تخسر شيئا بسبب الحروب الجريئة التى قام بها دريك والقراصنة. وبرغبة غير كاملة (نصف شجاعة) سمحت هى لدريك أن يستعد للأسبان مرة ثانية، وكان عليه أن يأخذ السفينة بيونا فنتورا Buana Ventura، وهى من سفن اليزابيث، وأن يضع عليها علمه، ويسير بها الى الساحل الأسبانى كى يرى ماذا يجرى هناك. ولم يكن عليه أن يفعل أكثر من ذلك، وأرسلت (اليزابيث) معه نائب أدميرال البحر بالسفينة ليون ليمنعه اذا قام بعمل متهور.

وعرف دريك كيف يتعامل مع أدميرالات البحر الذين يسببون له الحيرة. فسيبحر مغامريه الى جبال القمر. فى حالة صدور الأمر لهم، ومن الموثوق فيه، فإن هذا هو المكان الصحيح الذى يذهبون اليه. وفى مرة من المرات انطلق بعد توقف، وواصل المسير فى المياه الزرقاء، واتخذ طريقه وتحمل مخاطره. وكان ميناء قادش يعج بالناس ويسفن نقل المؤن والبضائع، وبالسفن المشحونة بالبارود - أبحرت مائة منها - وكان الكثير من آلاف الأطنان مكدسا فى المخازن للأرمادا. وفى نفس الوقت كان هناك ثلاثون سفينة للمغامرين، وقد أبحرت هذه السفن السريعة على سطح مياه المحيط، يقودها أقوى البحارة الذين يموتون شنقا. وقد يحدث شيء فى قادش اذ لم يتحدث هو كثيرا عنه، فقد أعطى اليه التصريح بالابحار، ولكنه عرفه بالخبرة. وحذره Burghley، مرة أخرى بقوله أنه من المحتمل أن تلغى هذه الرحلة، اذا انتظرت مدة طويلة. وكانت هذه

فرصته فاستغلها . وكان الوقت مناسبا له . وقبل أن تكون سفنه تحت خط الأفق أسرع رسول من بليموث، ومعه أوامر تحضه على عدم دخوله ميناء يتبع أسبانيا، أو ملك أسبانيا، ويضر بالرعايا الأسبانيين تحت أى ظرف من الظروف. فهاهو الشيء الآخر الذى كان سيرحل من أجله ؟ وقد خمن كيف ستكون الأمور أهى جادة أو هزلية. فهو لم يستطيع أن يحدد اذا كان الأمر هزلا، فلو كان الأمر جادا مثل هذه التعليمات سترسل وراءه، ولكن مع ذلك لك يكن لديه وقت للضياع.

وأبحر دريك، فى صباح يوم ١٢ من شهر أبريل، وتقابل مصادفة مع أوشانت مع عاصفة شمالية غربية، وانطلق بسرعة، ونشر كل حبال الأشرعة التى تحملها سارياته. وفى غصون خمسة أيام، كان قد وصل الى رأس فنسنت St.Vincent. وفى اليوم الثامن عشر من نفس هذا الشهر، كان أمام منازل قادش تماما، واستطاع أن يرى بنفسه غابات من ساريات المراكب وبشحنات اكتظ بها الميناء. وهنا، كانت الفرصة مواتية لنوع من الخدمة اذا وجد هناك شجاعة، للقيام بالمغامرة. وأشار الى ضباطه ليأتوا على ظهر السفينة بونا فنتورا Buana Ventura. وكان يوجد أمام أعينهم أشياء ان لم تكن الارمادا نفسها، فربما تكون المواد التى تعد الارمادا للإبحار، فهل لديهم الجرأة بأن يصحبوه الى الميناء ويدمروا هذه الأشياء ؟ علما بأنه كان يوجد بطاريات مدفعية عند مدخل الميناء، ومن المعروف أن بحارة دريك كانوا قد واجهوا البطاريات الاسبانية فى سنت دومنجو، وفى كارثا جينا ولم يجدوها قوية. فهل يدخلوا ؟

بالطبع سيفعلون ذلك. فأينما يقود دريك قراصنة بليموث، فانهم لم يخافوا من أتباعه وأعلن نائب الاميرال عن الخطر الذى يتهدد سفن صاحبة الجلالة، ولكن ليس من عمل الاسطول الانجليزى الاهتمام بالخطر. ودخلوا مباشرة مع ربح معتدلة ومد مرتفع - ومروا بسرعة على بطاريات المدفعية، وتحت وابل من القذائف التى لم تقلقهم، والتى لم يهتموا بالرد عليها. وتبع نائب الاميرال التعس - وهو على مضض - فى السفينة ليون Lion. وأصاب قذيفة واحدة السفينة ليون، وابتعد (نائب الاميرال) شيئا فشيئا بعيدا عن مرمى المدافع، ورسى وانجرف الى البحر مرة ثانية مع انحسار المد. مع أن دريك وجميع الباقين وصلوا الاندفاع واغرقوا سفينة الحراسة - السفينة

الحربية الكبيرة - وأرسل أسطولاً أسبانياً سريعاً من السفن الشراعية الكبيرة التي خاطرت أيضاً بالاقتراب منهم (أى من دريك وجماعته) ولكنهم لم يروا مرة ثانية أبداً. ولم توجد أيضاً أية مقاومة أخرى على الإطلاق، فبحارة سفن المؤن هربوا فى قواربهم الى البر، وكان حاكم مدينة قادش هو نفس دوق مدينا سيدونا Medina Sidona، الذى سيفوز بخلود وخيم العاقبة فى السنة التالية، وهرب كرجل شامخ ليجمع قوات يمنع بها دريك من النزول الى البر، مع أنه لم يكن لدى دريك أية نية للنزول الى البر، ويتمهل فإن دريك المتزن استولى على سفن الشحن الاسبانية، وفتش كل سفينة، ونقل كل شيء يمكن استخدامه وحجز العدد القليل من الرجال الذين وجدهم على السفن كسجناء، ويعدنذ فى ذلك الوقت، وبعد أن أنجز عمله تماماً، ويتأنى أشعل النار فى السفن وقطع الحبال، وتركها تندفع فى المد المرتفع تحت أسوار المدينة وكانت هذه السفن ككتل من النيران، اختلطت بعضها ببعض. وفى الثانى عشر من شهر أبريل أبحر من بليموث، وفى التاسع عشر من هذا الشهر دخل ميناء قادش، وفى اليوم الأول من مايو مرة ثانية دون أن يفقد قارباً أو رجلاً، وقال على سبيل المزاح أنه قد شعوط لحية فيليب. وبأسلوب منطقى جعل ملك أسبانيا يصاب بقدر من الضرر الذى لايسطيع تعويضه مليون من الدوكات أو سنة من العمل الشاق. وأذهلت السرعة الجسورة للمغامرة أسبانيا، كما أنها أذهلت أوروبا أكثر من الهجوم على مدن الهند الغربية، فقد كان للانجليز أسنان طويلة، كما أجبر سانتا كروز Santa Cruz مجلس فيليب، حيث قال بأن هذه الأسنان قد تحتاج الى خلع، قبل سماع القداس مرة ثانية فى وست منستر West Minister، وكان الاسبانيون من عنصر شهم، ومن الممكن أن تكون المغامرة النشطة التى سيقومون بها (أى دريك وجماعته) على نفقتهم الخاصة محط اعجاب من جانب سكان الريف فى كير فانتس Cervantes، وهكذا، فقد مدح دريك من جانبهم (الاسبان) على بسالته، وأنهم قالوا اذا لم يكن هو لوثران Lutheran فسوف لا يكون له هناك مثيل فى العالم.

وقد دعيت سيدة أسبانية من القصر بواسطة الملك كى تنضم الى حفلة عند بحيرة بالقرب من مدريد. وأجابت هذه السيدة بأنها لاتجرأ أن تأمن على نفسها من

جلالته على المياه خشية أن يمسك بها السير فرانسيس دريك. ولاغبار في أن يمدح دريك، لانه كان من الممكن أن يكون أول من يقتسم الشرف، مع رفاقه الذين كانوا يمثلون ذراعيه ويده. فلم يكسب الجنرالات والقادة العظام معاركهم بمفردهم مثل أبطال الرومانسية. وتكون الأوامر مجدية عندما يكون هناك رجال يقومون بتنفيذها ولم يخطئ أى قبودان أو ضابط خدم تحت قيادة دريك، فلم توجد مدرسة للبحارة فى هذا الوقت مثل حرب القرصنة، هذه الحرب التى دامت عشرين سنة بين أتباع البابا وبين المغامرين من بروتستانت الوطن الغربى.

ومن الواجب أن يذكر هؤلاء الذين أعدوا السفن التى بواسطتها أبحروا وحاربوا معاركهم. ونحن على ثقة من أنه لم تكن هناك خيانة بين المتعهدين ببناء السفن، كما لم يكن هناك أهمال فى العمل فى أحواض بناء السفن، حيث كان قراصنة بليموث قد أعدوا للبحر. وكانت قلوبهم متعلقة به، وكانوا جنودا لقضية مشتركة.

وكانت ثلاثة أسابيع كافية لهزيمة (قادش) فلم تصل الى هناك أوامر للاستدعاء. وكانت لدى دريك خطط أخرى موضوعة أمامه، وكان الرجال فى روح معنوية عالية، ومستعدين لأى شئ. وكان من المتوقع حضور أسطول من السفن الحربية الاسبانية من البحر المتوسط.

واقترح دريك أن يمكث مدة أسبوع أو أسبوعين فى مجاورة المضائق على أمل أن ينتهى منها (السفن الحربية الاسبانية). وكان فى حاجة الى مياه عذبة، وكان عليه أن يجدها فى أى مكان، وكان عليه أيضا أن يقرر ماذا سيفعل مع مساجينه قبل تركه لمسالك قادش Cadiz Roads. فمن المعروف أن كثير من الانجليز وقعوا فى أيدي محكمة التفتيش، ويعملون وهم مكبلون كعبيد على السفن. وكان دريك قد أرسل مركبا شراعيا صغيرا بقصد المقايضة، وكان عليه أن ينتظر بضعة أيام للرد عليه. وأخيرا، وبعد استشارة لشبونة، أجابت السلطات الاسبانية بأنه ليس لديها مساجين انجليز. ولو كان هذا صحيحا فمن الممكن أن يكون هؤلاء قد ماتوا بسبب المعاملة الوحشية، وبعد التشاور مع ضباطه أرسل السير فرانسيس دريك كلمة، تقول أنه فى المستقبل من الممكن أن يباع هؤلاء المساجين (من الاسبان) الى المراكشيين، ويفتدى بأثمانهم

الاسرى الانجليز فى أجزاء أخرى من العالم.

وكان الماء هو الهدف الثانى. فكانت توجد ينابيع فى فارو Faro التى تتمركز عندها قوة أسبانية لحراستها، فبالقوة أو بدونها كان لابد من الحصول على الماء. وأرسلت القوارب الى الشاطئ. وهاجم بحارة القوارب الحصون وملأوا البراميل الخشبية. ومرة ثانية، رفع نائب الأدميرال صوته بالقول لقد أمرت الملكة بعدم النزول على أى تراب أسباني. وفى قادش انتبه دريك الى هذا الأمر. ولم يكن هناك حاجة الى النزول على البر. وهنا، فى فارو كان يوجد تحد سافر لأمر جلاتتها، وأصبح نائب الأدميرال يرفع صوته بمطالبه، لدرجة أن دريك وجد من الضروري أن يسجنه فى قمرته (كابينته) الخاصة، وبعد ذلك يرسله الى الوطن فى سفينة كى يقدم شكواه. ولم يكن الاسطول قد ظهر بعد من المضائق. وأما عن نفسه (دريك) فكان قد تخلص من متاعب نائبه فى القيادة، وتقدم ببطء على الساحل وكان مصمما أن يلقى نظرة على لشبونة، وأن يرى بنفسه كيف تسير الأمور هناك، ومنذ البدء، وأثناء ذهابه، التقى مصادفة مع التجار المحملين بالامدادات الخاصة باستخدام الارمادا. وقد دمر كل هذه الاشياء أثناء تقدمه. وفى النهاية وجد نفسه تحت تلال سنترال الأرجوانية Under the purple hills of centra ونظر الى تاجوس، وهناك، كانت تتجمع معا قوة الاسطول الاسباني الحربى. فمن قبل كانت قد وصلت خمسون سفينة شراعية كبيرة، وهى أضخم السفن الحربية التى طفت فى ذلك الوقت على سطح مياه المحيط. وكان سانتا كروز الذى يعتبر أحسن ضابط فى الاسطول الاسباني كان هو نفسه فى المدينة، وكان هو الذى سيتولى القيادة. لهذا تكون المغامرة الحقيقية فى تكرار عمل قادش الجرى - وفى مواجهة مثل هذه الغرائب - بدت عملا مستميتا حتى لدريك، ولكنها مع ذلك كانت واحدة من هذه الفرص التى ترى فيها عبقرية قائد عظيم ذا أعين غير عادية. وبعد ذلك حسبها - كما ثبت - بطريقة صحيحة. ومن المحتمل أن سفن (الارمادا) سيكون عليها نصف قوة الرجال، ومن المحتمل أيضا الايكون عليها رجال بالمرّة، بل تكون مزدهمة برجال من البر، الذين يجلبون الى ظهور السفن المؤن، كما أن جوانب سفن (الارمادا) - وهى رأسية - ستختنق بأعداد من السفن الخفيفة أو الصغيرة ومن الصنادل. وعلى ذلك فلن

يكون في استطاعتها أن ترفع مراسيها وتنتشر أشرعتها أو تتحرك من مراسيها. وبالرغم مما عرف عن دريك من جسارة، فلم يتوقع أحد على الإطلاق أن يتوجه (دريك) على رأس مثل هذه القوة الصغيرة الى معقل العدو، والا كانت هناك استعدادات لملاقاته. واستطاع (دريك) أن يعتمد على المد والجزر. وكانت الرياح في هذا الفصل من السنة، هادئة ومستمرة، وكان من الممكن أن يعتمد عليها أيضا في أن تأخذه الى الداخل أو الى الخارج، وكان يوجد هناك مأوى بحري في النهر لسفن مثل سفن المغامرين كي تقوم بالناورة، وبالتقهقر اذا وجدت مايفوقها. وتبدو هذه المغامرة متهورة لعين غير متخصصة، لكن دريك بالتأكيد كان قد فكر في ذلك ربما قصد أن يجربها بصورة أو بأخرى، حتى يضع نهاية للغزو الاسباني لانجلترا، فلم يستطع دريك أن يقوم بمغامرة دون أن يطلب تصريحا في البداية من سيده. فهو عرف طبيعتها، وعرف أن خدماته في قادش ستفوق في الاهمية استخفافه بأوامرها. وحتى الآن، فلم يكن لديه شيء يخيفه، ومع ذلك عرف أيضا أنها لاتزال تتهافت على السلام، فمن الواجب عليه الايفعل شيئا دون اذنها. وكان من شأنه أن يجعل عملية السلام مستحيلة، وهناك رسالة منه الى الملكة كتبها عندما كان بالقرب من لشبونة، وتبين هذه الرسالة خاصيته وخاصة الوقت، الذي كتبت فيه الرسالة.

ولم يتحدث نلسون Nelson أو اللورد سانت فنسنت Lord St.Vincent كثيرا عن توقع مساعدة خارقة. واذا كان الأمر كذلك، فأننا ينبغي أن نشك في استخدامهما للغة العادية، التي كان من الممكن أن تكون أفضل، حتى نتركهما لحالهما، واعتقد السير فرانسيس دريك - مثل معاصريه الآخرين العظام - بأنه كان مشغولا بقضية مقدسة، فهو لم يكن خائفا أو خجولا ليقول هكذا. فكان هدفه أن يحتج على أى استدعاء في غمرة النصر، وقال كان الاسبان رجالا، ومع ذلك كان في الامكان القضاء عليهم، فكانوا أعداء للحق ومؤيدين لمفهوم داجون Dagon، الذي انهار في الأيام الأخرى أمام السفينة أرك. ومن الممكن أن ينهار ثانية أمام أى تحد جسور، وطالما هو لديه السفن التي ستطفوا، وطالما يوجد هناك الغذاء على ظهورها للرجال لكي يأكلوا فانه عندئذ، توصل (للملكة) لتدعه يمكث ويضرب، عندما تتاح له الفرصة فالاستمرار حتى النهاية

يُمنر مجدا حقيقيا. وعندما كان الرجال يخدمون العقيدة ووطنهم، فإن الله الرحيم قد يمنحهم النصر، وسوف لا ينتصر الشيطان وأتباعه.

وكان كل شيء معدا في وقته، وسوف يكون لدى دريك الفرصة التي يرغب فيها، بعد عام آخر. وفي الوقت الحاضر، كان الشيطان منتصرا - ويمثل الشيطان المستشارين الكاثوليك لاليزابيث. ووصل ردها. وكان هذا الرد حارا وسخى، ولذا لم تستطع أن تلومه على ما فعل حتى الآن، ومع ذلك فقد رغبت منه الايثير ملك أسبانيا أكثر من ذلك لأن محادثات السلام كانت قد بدأت، ومن الواجب عدم التدخل فيها.

ومن المحتمل أن هذا التحريم من الملكة منع ما يمكن أن يكون بأعظم عمل بطولى في تاريخ البحرية الانجليزية. وفي ظل الظروف الحاضرة، فانه قد يكون من الممكن تماما لدريك، أن يذهب الى تاجوس، وإذا لم يستطع القيام بحرق السفن الشراعية الضخمة فانه يستطيع بالطبع أن يخرج دون أذى، وقد ضمن دريك حالتهم بطريقة صحيحة تماما. وهناك كانت توجد السفن، ولكن لم تكن شركات السفن على ظهورها (أى على ظهور هذه السفن). واعترف سانتا كروز نفسه، بأنه إذا كان دريك قد دخل الى الميناء فانه لم يكن فى استطاعته سانتا كروز فعل أى شيء بسبب حاجته الى الرجال، وبدون شك فان دريك كان من الممكن أن يذهب وأن يفعل شيئا يدوى فى انحاء العالم لولا أمر سيده الحاسم. وتباطأ فى المسالك عند سنتر Centra، مؤملا أن سانتا كروز سيخرج ويقابله. وكانت كل أسبانيا تتذمر غضبا بسبب تراخى سانتا كروز هذا. وكتب فيليب يحث الأدميرال العجوز على النشاط فيجب الا يسمح لنفسه أن يتحداه أسطول قراصنة متغطرسين. فمن الواجب عليه أن يتعقبهم بعيدا عن الساحل أو يدمرهم. ولم يكن سانتا كروز فى حاجة الى تحريض. فسانتا كروز بطل المائة معركة، كان غاضبا من عجزه ومع ذلك أجبر أن يخبر سيده بأنه لو رغب فى الحصول على خدمات من سفنه الشراعية الضخمة، فلا بد لسيدته أن يزوده (كروز) برجال يستطيع أن يتعامل معهم، ومن الضروري أن يظلوا فترة طويلة، فى مراسيهم، حتى يؤدى مهمته. وعلاوة على ذلك، أخبره بأن الوقت قد حان له (كروز) بأن يبذل جهدا مخلصا، وإذا انتظر مدة أطول فان قوة انجلترا ستزداد، ويصبح من الصعب مواجهتها. وكانت

الطاعة العمياء تفرض على (دريك) بأن يعود الى الوطن، ومع ذلك فإن الحملة العسكرية قد جلبت حتى الآن مجدا أفضل من جائزة مالية.

وكان رفاقه في السلاح (أى رفاق دريك) يحتاجون الى تهدئة خواطرهم بسبب خيبة أملهم في لشبونة. وتقوم نظرية تسليح المغامرين، على أساس أن التكاليف ينبغي أن يدفعها العدو بطريقة ما، ومن الممكن أن يتأكد أنه اذا أحضر غنيمة أو غنيمتين فإن الملكة سوف تطالب بنصيبها فيهما، عندئذ، فإنها لم تحاسبه حسابا عسيرا. ومن الممكن مقابلة السفن الشراعية أو السفن التجارية المتجه الى الوطن (أسبانيا) من وقت لآخر في جزر الأزورس Azors Islands. وعند مغادرة دريك للشبونة، اتجه الى سنت ميتشل، وكان طالعه لايزال في الصعود.

وكانت السفينة سان فيليب San Philip، وهى سفينة فخمة قد وقعت مباشرة في أيديه (أى دريك)، وكما لو كان أرسل لهذا الغرض وقد قيل أنها كانت محملة بالنفائس من جزر الهند الغربية لدرجة أن كل رجل في الاسطول بدأ يحسب ثروته، ولم تكن هناك حاجة للانتظار مدة أكثر من ذلك وقد مضى شهران منذ أن أبحر دريك من بليموث، ويستطيع الآن أن يعود الى الوطن بعد رحلة بحرية لم يكتب التاريخ مثلها، عنه أو عن أى وطن آخر. فقد ضرب ملك أسبانيا فى عقر داره. وقد أعجز أو عوق الارمادا المزمع ارسالها لمدة فصل على الاقل. وقد حصل على غنيمة أثناء الرحلة، كما لو كانت عن طريق المصادفة، وتقدر هذه الغنيمة بنصف مليون (من الدوكات) وسوف يدفع منها تكاليف الرحلة. ولكى لا يكلف سيده شيئا رجع بهدية ثمينة لها. وأشك فى أنه قد قدم لأى مجلس عموم تقريرا عن الاسطول مثل هذا، وفوق ذلك، فقد علم دريك الاسبانى الوثائق من نفسه أن يكون فى حالة من الخوف منه (أى من دريك). وحقق دريك لرفاقه التعساء نصرا مزدهرا، بحيث أنه كان من الممكن أن يحاربوا الشيطان وأتباعه تحت قيادة دريك.

ولاتزال سجلات وطننا العربى تحكى كيف أن المواطنين انسابوا وهم فى أفخر ملابسهم ليروا (السفينة) سان فيليب العظيمة The Great San Philip وهى تسحب الى ميناء دارموث Darmouth. ولم تكن البروتستانتية الانجليزية مرفأ رديئا تأوى اليه

الامة في مثل، هذه الأوقات العاصفة، ويتطلب ذلك أن تذكر (هذه الحادثة) بشرف في
كلية للتاريخ في جامعة انجليزية.

((الفصل الثامن))

ابحار الأرمادا

كان السلام أو الحرب بين أسبانيا وانجلترا، يمثل قضية فى ذلك الوقت. وكان الهدف من هذا السلام، ضمان الوراثة الانجليزية له (أى فيليب) أو لوحدة من بناته. وتآملت الأمة الأسبانية كلها الما عنيقا للأمانة التى لحقت بها بسبب حرق سفنها فى قادش. وكانت حماسة فيليب للحرب قد اشتعلت لهيبا. وعلى أية حال فإنه قد صمم، أن يعفو عن شقيقة زوجته بشكل كلى، ومع ذلك كان يصبر أيضا على منح الكاثوليك فى انجلترا تسامحا أكثر. ولم يفكر بأنه فى امكانه القراصنة الانجليز مهما كانوا جسورين وبارعين الاستطاعة فى مقاومة الاستعدادات الحربية التى كان يعدها للتوجه الى القتال. فلم يكن الاسطول الملكى (الانجليزى) الذى عرفه (فيليب) جيدا، يتجاوز ال ٢٥ سفينة من كل الانواع والاحجام. ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون المغامرون مستعدين للقيام بأعمال حربية جريئة ولكن يجب أن يسحقوا بواسطة أسطول مثل ذلك الذى يعد فى لشبونة. ولهذا السبب ومن أجل نفسه (فيليب) قصد أن يطلب بأن العقيدة الكاثوليكية ينبغى أن تعاد بكامل هيبتها المطلقة، وأن بعض المدن المعينة فى انجلترا لابد وأن يعسكر فيها قوات أسبانية، لضمان حسن سلوك اليزابيث. وغالبا ما كان يحدث هذا مع رجال مترددين عندما يرغبون على قرار، فأنهم فى هذه الحالة يتسرعون، مع أنهم كانوا من قبل ذلك متباطئين. فبعد أن عاد دريك من لشبونة، أرسل ملك أسبانيا أوامره الى أمير بارما بعدم الانتظار من أجل وصول الأرمادا، ولكن كان عليه أن يعبر القتال على وجه السرعة، على رأس جيش الفلاندرز ويرغم اليزابيث أن تجسو على ركبها. وكان لدى بارما قدر من الفهم أكثر من سيده، وأوضح بارما هذا أنه لا يستطيع العبور دون أسطول كى يحمى به طريقة. فمن الممكن أن تمخر المراكب النقل الكبيرة فقط فى المياه الهادئة، سواء أكانت هذه المياه هادئة أو هائجة فان هذه السفن من الممكن أن ترسل الى القاع (أى من الممكن أن تغوص فى القاع) وذلك بواسطة ستة من الزوارق الانجليزية القادمة من التيمس. ولنفرض أنه استطاع أن يرسوا ما فى ثانت Thant ، أو فى مكان آخر، فالأهم من ذلك أن فيليب قد نبه بأنه لا يستطيع أن

يعد أكثر من ٢٥٠٠٠ من الرجال. وكانت المليشيات الانجليزية فى حالة تدريب. وقال
الجزويت، أنهم ساطفون ولكن من المحتمل أن يكونوا على خطأ. ومن المحتمل أيضا أن
عليه (بارما) أن يحارب أكثر من معركة، وسيكون عليه كذلك أن يترك فرقا عسكرية من
اسطوله أثناء تقدمه نحو لندن، كى يحمى خطوط مواصلاته، فلو حدث عكس ذلك
فستحل الكارثة. ومع ذلك كان بارما على استعداد للطاعة اذا أصر جلالته، ولكنه مع
ذلك، أوصى فيليب بأن يستمر فى أن يلهى الانجليز بمعاهدة حتى تستعد الأرمادا،
وبادراك واضح، فإن المغامرة ستكون أصعب مما تصوره فيليب، وقال (بارما) رأيه
فيها - رغم ما حدث فى قادش - فإنه اذا سلمت اليزابيث المدن المتحفظ عليها فى
الفلاندرز Flanderis ، الى أسبانيا، ومنحت الكاثوليك الانجليز درجة معقولة من
الحرية، فإنه من مصلحة فيليب عندئذ أن يعقد صلحا فى الحال، دون مطالبة بشروط
أكثر. وفى هذه الحالة يستطيع فيليب أن يشن حربا جديدة اذا هو أراد ذلك فى
المستقبل. وعندما تبدو الظروف أكثر ملاءمة، فمن الممكن أن تميل اليزابيث الى الموافقة
(فى ظل شروط كهذه). وقد وضع أهالى الأراضى المنخفضة المدن تحت مسئوليتها (أى
مسئولية اليزابيث) فاذا تخلت عنها الى العدو، كى تهى لنفسها شروطا أفضل، فإن ذلك
سيكون عملا مشينا بدرجة كبيرة، وسوف يلحق أعار باليزابيث الى الأبد. ومع ذلك فهم لم
تفكر فى هذه المسألة. وقالت (اليزابيث) أن هذه المدن تخص فيليب، وهى ستعيد فقط
ملكيتها الخاصة اليه. ويدعوها برغولى، اذا هى أرادت السام، فعليها أن ترجع دريك الى
الأزورس Azores وعليها أيضا أن تروع فيليب فى سفن ذهبه. وكانت (اليزابيث) فى
ذلك الوقت فى احدى أمزجتها التي من الصعب التحكم فيه، فبدلا من استدعاء دريك
مرة ثانية، أمرت اسطولها بأن يجرى من أسلحته، وأن يربط فى تشاثام Chatham
وتنازلت بالاعتذار لبارما Parma على حرق الحمولات فى قادش، لأن هذا كان قد تم
ضد أوامرها.

وكان هذا فى ديسمبر من عام ١٥٨٧، أى قبل خمسة شهور من أبحار الأرمادا
من لشبونه. ولم تكن هى (اليزابيث) ولا وطنها (انجلترا) قريبان من الدمار فى حياتها
مثل ذلك الوقت. وفى تلك اللحظة كان الزمن التام لانجلترا يقع على عاتق المغامرين،

وعلى المغامرين ان يذهبوا
 وفى ذلك الوقت كان
 كما أعد الأعداء
 جاء فيه: أن
 يعمل. فكا
 (فيليب) يا
 الهدوء، و
 الاثنان
 مفاوضات
 لدى الأعداء
 الأقاليم
 وعلاوة
 كان
 اليزابيث
 اللحظ
 ذلك
 فكرة
 اليزابيث
 الآ
 بقاء
 هبت
 هذا
 قس
 كناقية
 وكان لدى (الملكة كورنيليا) ما يبرهنا

وشوحيه : على أية حال ، فقد مات سانتا كروز بعد أيام قليلة من مرضه .
وبسندئذ ، كان على الابحار أن يتأجل حتى يمكن اختيار قائد جديد ، وقد أعطى
اختيار فيليب برهانا غريبا على قصده من الحملة ، فهو فى الحقيقة ، لم يتوقع أو
يرغب فى حرب خطيرة ، فكل ما كان يرغب فيه هو أن يصبح ملكا لانجلترا مرة ثانية ،
وبموافقة الكاثوليك الانجليز . وهو لم يقصد - اذا استطاع - أن يثير العزة الوطنية
بالقوة ، أو الغزو . وعندما كان سانتا كروز على قيد الحياة ، لم يسمح له الرأى العام بأن
يتوارى . فمن الواجب أن يقود سانتا كروز الحملة . وقد عزم فيليب على الذهاب معه ،
ليمنع وقوع أية اجراءات عنيفة جدا ، والآن وقد مات سانتا كروز ، ويستطيع فيليب أن
يجد الشخص الذى يستطيع أن يعمل ما يؤمر به ، فوجوده (فيليب فى الحملة) لم يعد له
مايبرره .

وكان دوق ميدينا سيدونا Medina Sidona ، يدعى البيونو El-Bueno ، أو
الطيب Good ، وهو من أعلى الطبقات ، فكان غنيا بدرجة كبيرة ، ومغرما بالصيد ،
واطلاق النيران ، وكان فارسا قوى الشكيمة ، بالإضافة الى ذلك فانه انسان غير مؤذ ،
فقد تصل صفاته الى الأربعين ، وكان غارقا بأخطائه ، ولكنه كان غير مدرك بأن أميرا
عظيما مثله ليس فى حاجة إلى اصلاح وكانت تنقصه العزة والطموح ، وكانت سعادته
تتمثل فى تجواله فى حدائق برتقاله فى سان لوكان San-Lucan ، وهو لم يلم بأى علم
مفيد . وكان قائد عام فى الاندلس ، وقد فر أو هرب من قادش عندما قدم دريك الى
الميناء ، كان هذا كل شئ عنه . وقد أصابته الدهشة والاستياء عندما علم بأنه قد وقع
عليه الاختيار ليكون قائدا عاما للقوات البحرية فى أسبانيا ، فكان عليه أيضا أن
يتولى قيادة الحملة الى انجلترا ، تلك الحملة التى كثر الحديث عنها . وقد أوضح عدم
ملائمته لهذا العمل ، فهو ليس برجل بحر حيث أنه لم يعرف أى شئ عن الحرب فى
البحر أو البر ، واذا غامر بركوبه فى مركب فانه سيشعر بدوار ، كما أنه لم ير أبدا
القتال الانجليزى . وبالنسبة للسياسة فلم يعرف أى شئ عنها أو يهتم بها ؛ أى أنه لم
يعرف أى شئ ، وبأختصار ، فلم يكن لديه الكفاءة أو الأهلية التى يتطلبها مثل هذا
المركز .

وقد أحب فيليب تواضعه، ولكن فى الواقع، كانت أخطاؤه هى التى رشحته لهذا المنصب. فهو سوف يطيع تعليماته (أى تعليمات الملك) وسوف لا يحارب الا اذا كان ذلك ضروريا، وسوف لا يتهور فى القيام بمغامرات. وكل ما أراده فيليب منه هو أن يجد أميربارما، ويفعل ما يأمره به بارما. وأما بالنسبة لفن الملاحة، فسوف يكون تحت أمرته أفضل الضباط. وأما بالنسبة لما يليه فى القيادة فسوف يكون معه دون ديجودى فالديز Don Diegode Valdez - البحار العجوز، المتجهم، الصامت، الحذر - الذى أحبه فيليب. وقد عاد الدوق الى لشبونه وهو مملوء بالشك والتردد، ولكن راهبة ما قد أدخلت فى قلبه الشجاعة، قائلة له: أن العذراء قد أرسلتها لتعده بالنجاح. وكان كل جزء من الخدمة جديد بالنسبة له. فكان رجل قلق ينتابه الانفعال، وشرع بنفسه يستعلم عن كل شئ حتى انه كان يتدخل فى الأشياء التى لم يستطع فهمها، وكان من الأفضل له أن يتركها. وكان ينبغى عليه أن يترك التفاصيل الى الرؤساء المسئولين فى الأقسام. وتوهم أنه فى اسبوع أو فى اسبوعين يستطيع أن يشرف بنفسه على كل شئ. وقد أعد ١٣٠ سفينة، ٨٠٠٠ بحار، ١٩,٠٠٠ ألف جندي مشاة أسباني وكان من بينهم متطوعون من النبلاء، وضباط وكهنة، وجراحون وعبيد ليقوموا بالخدمة على المراكب، وقد بلغ عددهم ٣٠٠٠ رجل على الأقل، وكان معهم مؤن تكفيهم ستة شهور. وبعد ذلك، كانت توجد هناك سفن مشحونة بالذخيرة والأسلحة الصغيرة والكبيرة، وبالبارود، وبالساريات Spars وبحبال السفن وبالأشرعة، وبملايين من الأشياء الأخرى الضرورية التى تحتاج اليها السفن العاملة فى الخدمة. وتولى الدوق بنفسه الاشراف على كل هذا، ولما لم يكن فى استطاعته فهم أى شئ، أو معرفة أى شئ يراه، فانه نتيجة لذلك لم يفحص أى شئ على الاطلاق. وفى الحقيقة كان اهتمام كل فرد، منصبا تماما على الجانب الروحى للموضوع بحيث أنهم لم يستطيعوا الاستماع الى توافه الأمور المبتذلة. وعندما بدأ دون كويكسوت Don Quixote رحلته نسي النقود والمفروشات. وكانت أوربا الكاثوليكية عند إبحار الأرمادا تفوقه فى الأطراء، فكانت كل أسرة نبيلة فى أسبانيا، قد أرسلت بواحد أو بأخر من أبنائها ليحارب من أجل المسيح والعذراء.

ولدة ثلاثة سنوات، تدفقت الصلوات بشكل كبير من الكنيسة والكندرائية، ومنابر الخطابة. وقد أفرغ الملك خزانته، فقد قدم النبيل الاسبانى والتاجر اسهاماتهم. ولم تحدث الحملة الصليبية ضد الاسلام نفسه مثلما أحدثته الأرمادا، من انفعال أكثر أو من حماسة أكثر تقديسا. وبذلك كل الجهود لجعل الحملة جديرة روحيا بهدفها. ولم يقترب من السفن أو من الترسانات أى شئ دنس أو أى امرأة غير ظاهرة على وجه الخصوص، ومنعت الشتائم والنزاعات والمقامرة وفرضت عقوبات قاسية. وسميت السفن الشراعية الضخمة التي قامت بتلك المهمة بأسماء الحواريين والقديسين، واعترف كل بحار وجندى للكاهن بذنوبه وتطهر كل واحد منهم عند اعتلائه ظهر السفينة. وعند شروق الشمس كان صبيان السفن ينشدون نشيدهم البينوس دايوس Buenos Dias ، اسفل السارية الرئيسية وعند غروب الشمس واختفائها فى المحيط كانوا يحيون سيدتهم العذراء Ave Maria وكان عملهم الاستعمارى مزخرفا بصور المسيح وبصور أمة، وكشعار للكبرياء و الغطرسة استبدلت كلمة Pius Ultra الخاصة بتشارلس الخامس بكلمات أكثر ورعا وطموحا Exsurge, Deus, et Vindica Causamtuom . فليس هناك بأفضل من أن ينظر الى المزيد من الضروريات العادية بنفس تلك المساواة الجيدة. وأسوء الحظ فقد تولى مدينا سيدونا فحص هذه الاشياء بنفسه مع أنه كان غير قادر على تصحيح المعلومات التي أختار أى ندل أن يقدمها له. وأخيرا وفى أواخر أبريل أبلغ بنفسه بأنه راض عن كل شئ. فقد بوركت أيضا الراية والرجال والذخيرة على ظهور السفن، وأعدت الأرمادا التي لا تقهر لتتخذ طريقها. ولا عجب فان فيليب كان واثقا من نفسه، فكان هناك ١٣٠ سفينة شراعية ضخمة تحمل كل منها مابين ٧٠٠، ١٣٠٠ طن، وكان على ظهورها ٣٠.٠٠٠ من الرجال المحاربين، بالإضافة الى العبيد والاتباع، وكانت هذه الأعداد تشكل القوة التي من المحتمل أن العالم سيعتقد بأنها لا تقهر. وكانت المدافع هى أضعف نقطة فيها، ومع ذلك فقد كانت ضعف القوة الانجليزية، وكان الجزء الاعظم من المدافع هى التي تطلق دانات من رنه ٩٠ أو ٦٠ من الأرباطال، وكان كل واحد (مدفع) قادرا على أن يطلق خمسين طلقة. وحتى الآن، فقد كانت الاسلحة التي يستخدمها الاسبان فى حروبهم البحرية قصيرة المدى اذ كانوا

يستخدمون الأسلحة الصغيرة، فكان عليهم أن يتلقوا درسا حول هذا قبل أنقضاء فصل الصيف.

وفى تلك الاثناء ، توقع فيليب نفسه، بجلاء أنه سوف لا يلاقى أية معارضة ، فقد زود من جانب الكهنة ب ١٨٠ من الجراحين ، وب ٨٥ فقط من مساعدي الجراحين، من أجل كل الأسطول.

وفى منتصف شهر مايو أرسل (فيليب) أوامره الاخيرة. ولم يكن على النوق أن يسعى الى معركة. فاذا هو التقى مصادفة مع دريك، كان عليه أن يتجاهله ولكن شكرا لله، وكما قال دوجبرى Dogberry الى الحارس أنه تخلص من مخادع. فكان عليه (أى على قائد الأسطول) أن يذهب مباشرة الى شمال فورلاند North Foreland ، فهناك يرسو ويتصل ببارما والا ديميرالات المتمرسين الذين تعلموا فنهم تحت قيادة سانت كروز. وهم مارتينز دى ريكالده Martinez de Recalde ويدرودى فالدهيز Pedro de Valdez ومجويل دى أوكوينيو Niguel de Oquendo ، فقد حرص هؤلاء جميعا وبشدة على الاستيلاء على بليموث Plymouth أو على جزيرة ويت The Isle of Wight وهم فى طريقهم الى القتال. وكان هذا بوضوح من تخطيط سانتا كروز، وكان ذلك هو الشئ المنطقى الوحيد الذى يتبع. ولكن لم ير فيليب ذلك، اذ لم يعتقد بأن ذلك من الضرورى، ولكن بخصوص ذلك وبخصوص العراق، فقد تركهم، لأنه عرف ماذا يجب أن يفعل لحكمة معينة.

وبعد ذلك، رفع النوق العلم المقدس فى الهواء على السفينة سان مارتن San Martin، التى اتجهت الى تاجوس Tagus فى ١٤ من شهر مايو ، وتبعها باقى الاسطول. وكانت السفينة سان مارتن هذه مبنية بطبقتين من خشب البلوط حتى لا ينفذ الرصاص منها. فهو لم يحب عمله أفضل من ذلك، وعبثا كان يكرر لنفسه أنها قضية الله. لذلك فلم يعرضهم الله الى أى أذى. وبمجرد أن أصبحوا فى عرض البحر، فانه لم يجد أية قضية مهما كانت قدسيتها بحيث تنقذ الرجال من نتائج أخطائهم. وكانوا متأخرين فى الخروج الى عرض البحر فقابلتهم الرياح التجارية الشمالية، كما تنبأ سانتا كروز. واندفعوا فى اتجاه الريح يوما بعد يوم، حتى اجرفوا الى رأس سنت

فنسنت Cape St. Vencint ، وبذل اهتماما لحد له للعناية بالحالة الروحية لكل شخص على ظهر كل سفينة. ولم يطرأ أى تفكير عن اهمال يدل على نذالة المقاولين والمؤمنين وكان قد تم الحصول على المياه قبل ذلك بثلاثة شهور. فوجد الماء فاسدا نقتنا وكان اللحم البقرى المملح، ولحم الخنزير المملح والسمك قد تعفن، وكان الخبز مملوءا بالديدات والصراصير. وفتح برميل بعد برميل، فكانوا يجدون نفس الشئ. وكان عليهم أن يلقوها من فوق ظهور المراكب الى البحر. ولم توجد فى كل الأسطول كسرة صالحة من الطعام، ولكن كل الذى وجد هو البسكويت والفاكهة الجافة. وأصيب مئات من الرجال بالدوسنتاريا. وقد نذب الدوق حفله ببراعة مثل سانشوبانزا Sancho Banza ، وأمل فى أن يساعده الله. ولم يرغب فى ضرر أى شخص. وقد ترك وطنه وأسرته، ليسعد الملك، ووثق بأن الملك سوف يذكر له ذلك ، وكتب للملك يستغيث به لارسال مؤن طازجة، اذا أراد الملك الا يهلكوا جميعا، وقال الادميرالات أنهم لن يستطيعوا التقدم أبعد من ذلك دون الحصول على مياه نقية، وكان كل شئ مفزع ومربك، وأخيرا اتجهت الريح الى الجنوب، فاتخذوا طريقهم نحو فنسترة Finistere ، وبعد ذلك بدأت الرياح فى الهبوب، وعلى أثر ذلك تفرقوا. وبعد ذلك زحف الدوق ومعه نصف الاسطول الى كورنا Corunna. وكان من الصعب على الأطقم أن يزودوا والترسانات بالرجال ، لأنهم حاولوا تركها فى جماعات.

وقد تم العثور على السفن المفقودة الواحدة تلو الأخرى، ولكن بعد أسبوع كانت الثالثة منها لا تزال مفقودة. وأرسل الدوق خطابا آخر يائسا الى سيدة وقال أنه استنتج من مصائبه بأن الله غير راض عن هذه البعثة، وأنه من الأفضل التخلي عنها. وكان هذا نفس رأى ديجو فلوريز Diego Florez ، وقال كانت الذخيرة عديمة الجدوى (فاسدة). وكان الرجال مرضى وفي حالة معنوية منخفضة. ولا شئ يمكن عمله فى هذا الفصل. ولم يكن قد أصبحوا سادة لتصف العالم بعدم رجوعهم عند أول صعوبة، ولم ير رفاق سانتا كروز القداما أى شئ فيما أصابهم أكثر من أنه حادث عادى فى الحياة البحرية. وقالوا أنه سيكون من الجبن والعار أن يتخلوا عند أول صعوبة عن مشروع تولوه. يمثل هذه الحماس وإن تفقد السفن لأنها كانت مختفية. وكان من الممكن

الحصول على اللحم والخبز الطازج. ووضعه على ظهور السفن من كورونا. واستطاعوا أن يقيموا مستشفى على الشاطئ المرضى، ولم يكن المرض خطيرا ولم تحدث حالات وفاة وكان الأمر يتطلب مجهودا قليلا. وعندئذ سيصبح كل شيء على مايرام مرة أخرى. وأرسل بدرو دي فالديز رسولا الى فيليب يتوسل اليه بأن لا يستمع الى نعيق الدوق. وأرسل فيليب ردا سريعا يخبر فيه الدوق بالا يرتعد من الأشباح.

وفي الواقع لم يوجد شيء مرعب، فقد قضى الماء النقي على الوبستاريا. وأرسل الطعام الطازج من الوطن. وملأ البحارة الجالسين Galician الفراغات الناجمة عن هروب الجند. ووضعت السفن على الشاطئ وكشطت وشحمت، ونصبت الخيام على جزيرة في الميناء، وزودت بمذابح، وقسمه واعترف كل واحد مرة أخرى، وتقبل القربان المقدس. وكتب الدوق يقول: " هذه الثروة ضخمة وجوهرة نفيسة، والجميع الآن قانعون ومبتهجون، وقد تجمع ثمانية القطيع المبعثر وأصلحت الأضرار، وكان الضرر الوحيد هو ضياع الوقت. ومرة أخرى، يوم ٢٣ من شهر يوليو بدأت الأرمادا طريقها وهي كاملة العدد الى انجلترا، ومخرت عبر خليج بسكاي في ربح معتدلة، متجهة الى مصب القتال. ونترك الدوق للحظة، فمن الواجب الآن أن نلقى بنظرة على الاستعدادات التي أجريت في انجلترا لاستقبال الدوق، وفي الغالب يمكن القول بأنه لا يوجد هناك شيء على الإطلاق. فكانت شهور الشتاء مقفرة ومتقلبة، ولكن عقل ملكة انجلترا لم يكن بهذا القفر أو التغير. وفي ديسمبر انطلق أسطولها الى تشاثام. ولكن تسلط عليها بشدة خطر الوطن بدون دفاع نظامي لدرجة انها معه وافقت على أن يعاد تزويد جزء من سفنها بالرجال و العتاد لاعدادها للخدمة الفعلية. و اعطيت " السفينة الانتقام " الى دريك ، فكان على دريك (القائد الأعلى) وهوارد أن يذهبا على رأس أسطول مختلط من الأسطول الملكي ومن أسطول المغامرين الى الساحل الاسباني. وكان لكل فرد من أفراد الرعية المخلصين رأى واحد فقط هو " الحرب العلانية الجيدة " التي تكون هي الطريق الوحيد لسلام مشرف. فهم الآن وثقوا في الحرب العلانية التي سيأتي في النهاية. ولكن بدأت الآمال تصاب بخيبة الأمل، فقد جاءت الأخبار عن موت سنتا كروز، مع التقرير الذي أرسل الى الملكة (ملكة انجلترا) والذي صدقته تماما، وجاء فيه " أن

الارمادا قد تشتت وأنها لن تأتي على الإطلاق". وتغنى السير جيمس كروفنتس Sir James Crofts بالأغنية المعتادة من أن دريك وهوارد رغبا في حرب، لأن الحرب حرفتتهما. ونتيجة لذلك فقد الفت (اليزابيث)، وأمرها. وقالت أنها كانت واثقة من سلام في ست أسابيع، وبعد ذلك الوقت فسوف لا تكون خدمات الأسطول (الانجليزي) مطلوبة. وطرد نصف الرجال العاملين عليه (أى على الأسطول) في وقت واحد لكي يوفروا رواتبهم. ومن المحتمل أن يتجول كل من دريك والورد هنرى سيمور Drake and lord Henry seymour بأربع أو بخمس من سفن الملكة بين بليموث وسلونت Plymouth and solent. وكان على اللورد هوارد أن يبقى في التيمس Thames مع البقية. وأنا لم أعرف اذا كانت الشتائم قد منعت في الأسطول الانجليزي، كما منعت في الأسطول الاسباني، ولكن من الممكن أن أجيب على ذلك بأن هوارد Howard لم يوفر لغته عندما وصلتته هذه الرسالة، وقال "أبدا" فمئذ أن كانت انجلترا " انجلترا " فلن تخدع بمثل هذه الطريقة ولم يصبح لنا سلطان باعادة السفن الى تشاثام. ونحن نشبه الدببة المربوطة الى الود، ومن المحتمل أن يأتى الاسبان كالكلاب ليزعجوننا ومع ذلك فلم نستطع ايذاهم.

وكان من حسن الحظ انجلترا أنها كانت تمتلك مدافعين آخرين غير أسطول الملكة الذى يدار بطريقة همجية. ويخبرنا المؤرخون عن كيفية خروج نبلاء الساحل في سفنهم الخاصة لمقابلة الغزاة. فهم قدموا فعلا، ولكنهم من كانوا هم ؟ فالسفن التى كانت تستطيع أن تحارب السفن الاسبانية الشراعية الضخمة، لم تكن تصنع في يوم أو في أسبوع. فقد بنيت هذه السفن من قبل، وزودت بالرجال من قبل الرعايا المخلصين، الذين كان شغلهم الشاغل مقابلة عدو وطنهم وعدو عقيدتهم على المحيط الواسع، ولم تكن هذه المقاومة من جانب هؤلاء الذين كانوا ينتظرون ثورة كاثوليكية بقلوب مترددة.

واستمرت المسيرة ، ووصلت أخبار أكيدة بأن الارمادا لم تشتت. ومرة ثانية توسل دريك للملكة بأن تدعه يأخذ السفينة " رفينج" Revenge والمغامرين الغريبيين الى لشبونه، وكتب مفوضو الحكومة من أوستند Ostend الى اليزابيث وهم معلونون بالأمل،

ولكن كانت اليزابيث تخشى أن يسيء ملك أسبانيا فهم ذلك وقد وجدت (اليزابيث) أخطاء في مصاريف دريك. و اتهمته بتبديد ذخيرتها في ممارسة ذلك الهدف، وكانت قد سمحت له بمقدار ضئيل، ولم تسمح له بأكثر ما يكفيه لمدة يوم، كما لم تسمح كذلك بنفقات لأكثر من نصف الخدمة، وفرضت قبضة حديدية على شركات المواد الغذائية - ومر شهر ابريل، وكانت أجمل سفنها - الظفر Triumph والنصر Victory، واليزابيث جوناس The Elizabeth Jonas والسفينة الدب The Bear لا تزال اشرعتها مشرعة، وملتزمة بكنيسة تشاثام Chatham church (أى تتبع لمذهب هذه الكنيسة). وقالت (الملكة) أن هذه السفن لا حاجة بها، وإذا أعيد أعدادها فسيكون هذا ضياع للأموال. وأخيراً، ومرة ثانية أجبرت على الخضوع (اليزابيث) وأحضرت السفن الأربعة الى البحر في الوقت المناسب وعوض عمال الترسانات عن مدة التأخير لهذه السفن. وعندما أبحر اسطولها الى القنال، كانت (اليزابيث) لا تزال تحتفظ لديها بما يكفيها من عدد قليل من السفن، ولولا سفن القراصنة، لا نقلب تقدير الأمور عندما بدأت المحاولة. وحينئذ كانت الأرمادا آتية. ولم يعد يوجد شك في مجيئها. وقد ترك اللورد هنرى سيمور مع خمس من سفن الملكة، ومع ٣٠ من سفن مغامرى لندن، لكى يراقب بارما والبحار الضيقة. وكان هوارد يحمل علمه على السفينة ارك رالى The Ark Raleigh، وانضم الي دريك في بليموث ومعه سبع عشرة سفينة أخرى، وما زالت يد سيدته الجامحة تطارده. وتدفقت الأمدادات من المواد الغذائية حتى منتصف يونيو، ولم يسمح بأكثر من ذلك. وفي ذلك الوقت، كان الطقس رديئاً - بحيث كان الصيف عاصف لدرجة لم تعرف من قبل. وسببت العواصف الشمالية الغربية هدير أمواج الاطلنطى، ولذا قيع دريك في الداخل، ربما فيما وراء الجزيرة التى تحمل اسمه. ولجأ هوارد إلى جبل أوجسيمب Mount Edgecumbe ، تجنبا للعواصف، وتمضى الأيام و تنفذ المواد الغذائية وخفضت التعينات حتى يصبح المخزون من المؤن يكفى لمدة أطول. وبسبب تغييرات كثيرة أعد البحارة على درجة من السرعة، فكانت ملابسهم رثة، وكانت التموينات تنقص كل يوم، ومع ذلك فلا يوجد شئ يشكون منه، فكانوا يصطادون السمك كى يعرضوا النقص فى غذائهم، وتوسلوا فقط من أجل قدوم العدو على وجه

السرية، حتى أن هوارد نفسه اضطرب قلبه الآن، وسوف يعمل البحارة الانجليز يستطيعون عمله كرجال، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحاربوا وهم يتضورون جوعاً، وكتب (دريك) الى الملكة يقول "استيقظي يا سيدة، استيقظي من أجل المسيح، وانظري لترى الخيانات الخسيسة من حولك، وطلب منها أن تأمر بامدادات تكفى لشهو آخر فسوف يكون هذا بالتأكيد هو الأخير. وسأل (دريك) المومنون اذا كان ينبغي عليهم أن يقوموا بمزيد من الاستعدادات، فأجابت الملكة على نحو قاطع بالرفض. ومرة ثانية، مرت الأسابيع، وكما يبدو قد هيمن المومنون على شخصيتها، لأن البيرة التي أعدها للأسطول قد فسدت بحيث أن هؤلاء الذين شربوها من الجنود مرضوا. وطلب الضباط من واقع مسئولياتهم، نبذا ونوعا من النشا المغذى للعرضى من بليموث، وكان على هؤلاء الضباط أن يستدعوا للحساب العسير بعد انتهاء كل هذه الأمور. ومرة ثانية، نقصت التعيينات، وجعل مخزون أربعة أسابيع يكفى لسته أسابيع، ومع ذلك، فلم يأت الاسبان بعد.

وهكذا، فإن الأمل اليائس لانجلترا اعتبر كأزمة قضاء وقدر. و لم تكن الاستعدادات على الأرض أفضل كثيرا، فقد استدعيت الميليشيات Militia، وسجل مائة ألف رجل أسماءهم ونظمت المعسكرات حيث كان عليهم أن يتجمعوا، اذا العدو حاول النزول على البر. ولكن لم يوجد هناك احتياط، ولا مخازن للأسلحة، ولا مؤمن، ولا خيام، ولا يوجد هناك أيضا ضروريات لجيش سوى الرجال أنفسهم، وما تستطيع الموارد المحلية أن تقدمه.

وعلى وجه العموم، فقد اختارت الملكة الايرل أف ليسستر The Earle of leicester، ليكون قائدا "لقواتها" وكان من أهم فضائله اخلاصه لها أما غير ذلك، فهو أسوأ قائد ممكن أن تجده في كل ممتلكاتها. واذا كان بارما أتيا على وجه الدقة، فهو قادم على رأس أحسن قوات أوروبا تنظيما واعدادا. وكان أمل انجلترا في تلك اللحظة يكمن في بحارتها الذين كانوا يعانون بصبر في بليموث في كل صباح، كانوا ينظرون بانفعال باحثين عن السفن الأسبانية. وكان الوقت أسوأ عدو من السفن الشراعية الضخمة. وقد مرت ستة أسابيع، وكان من الواجب عندئذ لسفن الملكة أن تغادر البحار،

حتى لا يموت البحارة جوعاً، وكان لدى دريك أخبار مؤكدة عن أن الأرمادا قد أبحرت. فأين كانت هي؟ وفى مرة من المرات اندفع نحو أوشانت Ushant، ولكنه عاد خشية أن تمر به الأرمادا ليلاً وتجد بليموث دون حماية، وكلما قل أو تناقص مقدار الطعام، كلما شحبت وهزلت وجوه البحارة، ومع ذلك فلم يشكو أحد، فلم يكن لديهم وقت للمرض أو للضعف.

وقد جاء الأسبوع الأخير من شهر يوليو، وخفضت التعينات إلى النصف ولم تعد تكفى لمدة أسبوع أو أكثر. وكان يوجد بارود يكفى لحرب تستمر يومين، كان تلك كل شئ. وكانت هذه الحملة الجبارة تعتمد الآن على هذا الكم القليل جداً من الطعام. وفى يوم الجمعة ٢٣ أبحرت الأرمادا للمرة الثانية، ولم تقلل عودتها من حماسها الدينية، كما أن هذه الحماسة لم تفت، ولا تزال آمالها عالية كما كان. وقد أبحرت فى أيام السبت والأحد والاثنين على مياه هادئة، وبريح جنوبية خفيفة. وفى ليلة الاثنين وجد الدوق نفسه فى مصب القنال بكل ما معه من رجال. وفى صباح الثلاثاء تغيرت الريح إلى الشمال، ثم بعد ذلك تغيرت إلى الغرب، وهبت بشدة وهاج البحر، ولا طمعت الأمواج بشدة جوانب السفن الشراعية الضخمة، و أرغمتها عن البحث عن مأوى فى الموانئ الفرنسية. وانسحب الأسطول لمدة يومين حتى تحسن الطقس. وفى يوم الجمعة بعد الظهر رأوا السفينة ليزارد Leatherd (يبدو أنها انجليزية، فأتخذت الأرمادا تشكيل الحرب، فكان الدوق فى الوسط. وكان أولو نرد دى ليفا Alonzo de leyva، يقود سفينته الخاصة المسماة بأسم الراتاكورونادا The Rata coronada. وكان دون مارتين دى ريكالد Don Martinde Recald يحمى المؤخرة. ووصل طول الأسطول (الأسباني) حوالى سبعة أميال. ورفع العلم المقدس على أعلى صاري فى السفينة سان مارتين، فحيت كل سفينة بكامل مدافعها، وركع كل رجل، سواء كان ضابطاً أم نبيلاً أم بحاراً على ظهور السفن عند إشارة معينة يطلبون أرضاء العذراء وأبنائها. ونحن سننقد المعنى لهذه الملحمة البطولية الراقية، إذا نحن لم ندرك من أن كلا الجانبين كان لديه الاقتناع العميق من أنهما كان يحاربان معركة الله. وكان هناك مبدعان يتصارعان لارشاد البشرية، هما الحرية و السلطة. وفى المساء أرسل الدوق قاربين سريعين إلى بارما

ليخبره بوصوله الى القتال، وارسل تقريراً علي جانب من الأهمية الى فيليب، وأنبأه في التقرير بتقدمه، وعن عزمه على التوقف في جزيرة ويت، حتى يسمع من الأمير (بارما أي أوامر). وعموماً، قيل بأن ضباطه نصحوه بأن يتقدم ويحتل بليموث ولكن لا يوجد دليل على ذلك، وكان من الممكن للجزيرة، أن تكون مركزاً لهم أكثر فائدة بالنسبة لهم. وفي ظلام يوم الجمعة شوهدت الركيات* وهي مشتتة على طول الساحل وفي الداخل على قمم التلال. لهذا تقدموا ببطء طوال يوم السبت، دون كامل الاشرعة، وكانوا يتحسسون طريقهم - بحيث لا يرى الاشرع واحد. وفي منتصف الليل أمسك مركب بشراعى صغير، بقارب صيد، الذي منه علم (الاسبان) أنه عند رؤية اشارة نارية، فان ذلك يعنى أن الانجليز قد خرجوا هذا الصباح من بليموث، وعندما ارتفع القمر رأوا السفن تمر بينهم وبين البر. وفي مطلع الفجر أصبح المشهد مردياً وعندئذ، رفعت الستارة عن أول فصل من فصول المسرحية. وكانت الأرمادا بين ريم هيد Rame head، ايدستون Eddystone، أو كانت على مسافة قليلة منها الى الغرب. وكانت بليموث سوند مفتوحة تماماً عن يسارهم. وكان النسيم الذي هبط بالليل منعشاً، والذي كان قادماً من الجنوب الغربى، وكان أمامهم وفي خارج الميوستون Mewstone، يوجد احدى عشرة سفينة كانت تقوم بمناورة تعويضاً عن الريح. وفي اتجاه الارض كان هناك ٤٠ سفينة أخرى من الاحجام المختلفة، وعلى قدر ما رأوا فان كل هذا كان يكون القوة الانجليزية كلها.

وتقريباً، كان عدد الاسبان يفوق عدد الانجليز بنسبة ١:٣، وبالنسبة لحجم السفن، فلم يكن هناك مقارنة. فهذه المزاياء، قرر الدوق أن يشتبك واعطيت اشارة كي يستفيد من الريح، ويبقى العدو منعزلاً. وكانت احدى عشرة سفينة الموجودة في

* الركيات جمع راكية، وهي عبارة عن حفرة في الأرض يصل عمقها الى قدم ويصل عرضها الى قدمين، ويوضع فيها الخشب الذي تشمل فيه الفيران، ولا تزال تستعمل حتى الآن في المناطق الريفية والصحراوية على حد سواء. ويتجمع حولها الناس في الصباح والمساء وبخاصة في فصل الشتاء (المترجم).

المقدمة، تتبع اسطول هوارد، أما الذين كانوا فى الداخل فهم يمثلون دريك والمغامرون، وبدهشة، رأى الضباط الاسبان هوارد يصل بسهولة فى الاتجاه المعاكس للريح، وبعيدا عن مرمى (الاسبان) وانضم الى دريك. وبعد ذلك مر كل الاسطول الانجليزى فى اتجاه معاكس للريح، وفى طابور من خلفهم (من خلف الاسبان) واندفع الى مؤخرتهم، مستخدما مدافع أكثر قوة من المدافع الاسبانية؛ وأطلقت السفن الانجليزية نيرانها من مسافة أمنة وبتأثير مميت على جوانب السفن الاسبانية. حاول كل من ريكالده Recalde، والونزو دى ليفا Alonzo de leyva وأوكويندو Oquendo، الذين أتوا لمساعدته - الاقتراب بطريقة يائسة، ولكنهم لم يستطيعوا عمل أى شئ. وأبحروا بعيدا عن مرمى المدافع، وأطلق الانجليز خمس قذائف على احدى سفنهم (سفن الاسبان)، وكان التأثير أكثر تدميرا، لأنه كان مثل ما حدث فى حرب رودنى Rodney فى دومينيكا Dominica، وكانت السفن الشراعية مزدحمة بالقوات، وقد أحدثت القذائف والشظايا خسائر فظيعة بينهم (أى بين الاسبان).

وكانت التجربة جديدة وغير مقبولة. وقد عزلت قوة ريكالده Recalde بشكل سيء للغاية، ولاحظ اسبانى من الحاضرين أن بعض الضباط أظهروا جبن، وكانت هذه ضربة للدوق، الذى كان بعيدا عن النيران، واستمرت المعركة حتى الرابعة بعد الظهر. وفى ذلك الوقت، كانت الريح تزداد سرعة ويزداد معها البحر هياجا. وقد مر كلا الأسطولين من السوند Sound فى هذا الوقت. ورأى الدوق أنه لا يوجد شئ يمكن عمله، وأعطى اشارة التحرك بعيدا عن القتال، وتبعهم الانجليز من على مسافة ميلين من المؤخرة. وقد كانت سفينة ريكالده أكثر السفن معاناة. ولوحظ بأن المياه قد تسربت اليها بشكل سيئ، وتخلفت عن باقى السفن تعرضت لخطر الأسر، عندئذ، استدار بدرو فالديز Pedro Valdez، لمساعدته بالسفينة كابيتانا التابعة للأسطول الأندلسى، ولكنه اصطدم بالسفينة سانتا كاتالينا Santa Catalina، عند استدارته، فتحطمت مقدمة سفينته والصارى الأمامى، وأصبح من العسير السيطرة عليها. وكانت السفينة كابيتانا Capitana، الاندلسية هذه واحدة من أحسن السفن فى الأسطول الاسبانى. وكان دون بدرو واحد من أقدر، ومن أشهر القادة معرفة. فقد كان على ظهرها السفينة كابيتانا

٥٠٠ من الرجال، ومبلغ كبير من النقود، وكان من بين الكنوز الأخرى التي كانت على ظهرها صندوق من المقابض المرسعة بالأحجار الكريمة، التي كان فيليب قد أرسلها إلى النبلاء الكاثوليك الإنجليز. وجاء الليل وخيم الظلام، وبدأ البحر والسماء قبيحين واضطر الدوق وأرسل إشارة إلى قادة السفن لمواصلة السير، وترك دون بدرو لمصيره وصعد باندفاع من ألونزو Alonzo ، دى ليفا deleyva و كويندو Quendo على ظهر السفينة سان مارتين San Martin ، للاحتجاج، ولكن لم يكن هناك فائدة. وقال ديغو فلوريز Diego Florez ، انه لم يستطع المخاطرة بأمن الأسطول بسبب ضابط واحد. وقامت السفينة المتروكة كابيتانا Capitana ، بدفاع شجاع، ولكنها لم تستطع انقاذ نفسها، وسقطت وعليها السيوف المرسعة بالأحجار الكريمة، ومبلغ ٥٠ ألف من النوكات، وقدر كبير من الذخيرة في أيدي دريك.

وكان على ظهر السفينة ستارت Start كارثة جديدة، فكان كل فرد (من بحارتها) في مزاج سيئ كما نشب الشجار بين الجنود والبحارة على ظهر سفينة أو كويندو. وكان لا يزال هو غائبا، وألقى بعض اليائسين بشعلة في مخزن البارود، وقفزوا من على ظهر السفينة إلى البحر، وانفجر ظهر السفينة وعليها ٢٠٠ من الرجال.

وهاتان هما الحادثان اللتان تبعتا الاشتباك الفاشل، ولم يوفق الأسبان مع قيادة الدوق. وكان بدرو دى فاليز Pedro de valdez ، محبوبا ومحترما بشكل عام، وهروبه أمام عدو أقل عددا اعتبر جبن مشين. وجاء صباح الاثنين بتناقل. وكانت الرياح قد تلاشت، ولكن الأمواج مازالت عالية، وكان الإنجليز لا يزالون يضرّبون من الخلف. وانقضى اليوم في اصلاح الاضرار، وفي سد الفتحات التي سببتها القذائف، وتحرك ريكالد إلى الامام ليكون بعيدا عن أى أذى، وأخذ دى ليفا مكانه في المؤخرة.

وعند الغروب كانوا (الأسبان) خارج بورتلاند. واقترب الإنجليز منهم أى كانوا علي بعد فرسخ، وقد ساد الهدوء تماما، واندفع (الأسبان) متفرقين مع المد، ولم يفكر الدوق فى شئ، ولكن فى منتصف الليل أيقظه الضباط الأسبان من نومه وحثوه أن يعد سفنه الكبيرة للعمل، فالآن تلك فرصتهم. وجلب لهم الفجر فرصة أفضل، وهى هبوب رياح من الشرق، فكان الجو الآن فى صالح الأسبان اذا استطاعوا أن يطبقوا على

السفن الانجليزية، فان تفوقهم العددي سوف يضمن لهم النصر، وأن هوارد فى سيره مع الريح نحو الشاطئ، كان عليه أن يمر من وسط خط الاسبان لكى يستفيد من هذه الميزة. ومهما كان الحال فانها كانت نفس القصة.

ولم يستطع الاسبانيون استخدام أية فرصة عندما كانت لديهم هذه الفرصة فكانت السفن الانجليزية تتمتع بأنماط جديدة منحها التفوق والميزة على السفن الشراعية الضخمة مثل تفوق السفن التجارية، على السفن القديمة ذات الأسطح الثلاثة. وعندما توقف النسيم كانوا يذهبون أينما يريدون، ولما كانت السفن الاسبانية ليست على الند للسفن الانجليزية، فقد حطمتها مدافع أطول مدى من مدافع الاسبان، وتطاييرت قذائف مدافعهم عالية، من فوق السفن الانجليزية، بينما كانت كل قذيفة انجليزية تجد طريقها الي جسم سفنهم (الأسبان). وفى هذا الوقت كانت السفينة سان مارتن داخل نيران المعركة فمزقت الواحها الخشبية المزبوجة. وقد شق العلم المقدس الى نصفين، وتسرب الماء من خلال الثقوب الناتجة عن الدانات، وفقد الرجال أعصابهم، وعلى سفن مثل هذه - يخلو من على ظهورها نبلاء - لوحظت عليها اشارات أو علامات تدل على أنها أجفلت أو ارتعدت.

وفى نهاية يوم الحرب هذا، نفذت الذخيرة الانجليزية. فقد كانت هذه الذخيرة تكفى ليومين فقط، هذا على حسب ما سمحت به الملكة. وفى اللحظة الاخيرة، طلب هوارد بالحاح مزيدا من المؤن، وقد تلقى الرد المعتاد الذى جاء فيه : انه من الواجب أن يذكر بدقة كم يحتاج هو قبل أن يرسل اليه المزيد من الامدادات. وان اشعال الركيات زاد من خفتان قلوب الرسمين قليلا. وارسلت امدادات الى ويموث Way mouth أو الى بول Pool، ولا يمكن عمل شىء أكثر من ذلك حتى تصل هذه الامدادات، وفى غضون ذلك ترك الدوق ليصلح من شأنه، ويسلك طريقه، ولكن كانت انجلترا فى هذا الوقت متيقظة وخرجت مراكب جديدة للقرصنة من موانئ دورستشير Dorset shire Harbours وهى محملة بالذخيرة، واللحم والخبز، والفاكهة، وبأي شىء استطاعت هذه السفن أن تحصل عليه. وقد أتى السير جورج كيرى Sir George carey من النيدلس Needles، فى الوقت المحدد ليشارك فى شرف المعركة الأخيرة وكما قال فان الطلقات

٥٠٠ من الرجال، ومبلغ كبير من النقود، وكان من بين الكنوز الأخرى التي كانت على ظهرها صندوق من المقابض المرصعة بالأحجار الكريمة، التي كان فيليب قد أرسلها إلى النبلاء الكاثوليك الأنجليز. وجاء الليل وخيم الظلام، وبدأ البحر والسماء قبيحين واضطر النوق وأرسل إشارة إلى قادة السفن لمواصلة السير، وترك دون بدرو لمصيره وصعد باندفاع من ألونزو Alonzo، دي ليفا deleyva و كويندو Quendo على ظهر السفينة سان مارتن San Martin، للاحتجاج، ولكن لم يكن هناك فائدة. وقال ديغو فلوريز Diego Florez، أنه لم يستطع المخاطرة بأمن الأسطول بسبب ضابط واحد. وقامت السفينة المتروكة كابيتانا Capitana، بدفاع شجاع، ولكنها لم تستطع انقاذ نفسها، وسقطت وعليها السيوف المرصعة بالأحجار الكريمة، ومبلغ ٥٠ ألف من النوكات، وقدر كبير من الذخيرة في أيدي دريك.

وكان على ظهر السفينة ستارت Start كارثة جديدة، فكان كل فرد (من بحارتها) في مزاج سيئ كما نشب الشجار بين الجنود والبحارة على ظهر سفينة أو كويندو. وكان لا يزال هو غائبا. وألقى بعض اليائسين بشعلة في مخزن البارود، وقفزوا من على ظهر السفينة إلى البحر، وانفجر ظهر السفينة وعليها ٢٠٠ من الرجال.

وهاتان هما الحادثان اللتان تبعتا الاشتباك الفاشل، ولم يوفق الأسبان مع قيادة النوق. وكان بدرو دي فاليز Pedro de valdez، محبوبا ومحترما بشكل عام، وهروب أمام عدو أقل عددا اعتبر جبن مشين. وجاء صباح الاثنين بتثاقل. وكانت الرياح قد تلاشت، ولكن الأمواج مازالت عالية، وكان الأنجليز لا يزالون يضربون من الخلف. وانقضى اليوم في إصلاح الأضرار، وفي سد الفتحات التي سببتها القذائف، وتحرك ريكالد إلى الامام ليكون بعيدا عن أي أذى، وأخذ دي ليفا مكانه في المؤخرة.

وعند الغروب كانوا (الأسبان) خارج بورتلاند. واقترب الأنجليز منهم أي كانوا علي بعد فرسخ، وقد ساد الهدوء تماما، واندفع (الأسبان) متفرقين مع المد، ولم يفكر النوق في شيء، ولكن في منتصف الليل أيقظه الضباط الأسبان من نومه وحثوه أن يعد سفنه الكبيرة للعمل، فالآن تلك فرصتهم. وجلب لهم الفجر فرصة أفضل، وهي هبوب رياح من الشرق، فكان الجو الآن في صالح الأسبان إذا استطاعوا أن يطبقوا على

السفن الانجليزية، فان تفوقهم العددي سوف يضمن لهم النصر، وأن هوارد فى سيره مع الريح نحو الشاطئ، كان عليه أن يمر من وسط خط الاسبان لكى يستفيد من هذه الميزة. ومهما كان الحال فانها كانت نفس القصة.

ولم يستطع الاسبانيون استخدام أية فرصة عندما كانت لديهم هذه الفرصة فكانت السفن الانجليزية تتمتع بأنماط جديدة منحها التفوق والميزة على السفن الشراعية الضخمة مثل تفوق السفن التجارية، على السفن القديمة ذات الأسطح الثلاثة. وعندما توقف النسيم كانوا يذهبون أينما يريدون، ولما كانت السفن الاسبانية ليست على الند للسفن الانجليزية، فقد حطمتها مدافع أطول مدى من مدافع الاسبان. وتطاييرت قذائف مدافعهم عالية، من فوق السفن الانجليزية، بينما كانت كل قذيفة انجليزية تجد طريقها الى جسم سفنهم (الاسبان). وفى هذا الوقت كانت السفينة سان مارتن داخل نيران المعركة فمزقت الواحها الخشبية المزبوجة. وقد شق العلم المقدس الى نصفين، وتسرب الماء من خلال الثقوب الناتجة عن الدانات، وفقد الرجال أعصابهم. وعلى سفن مثل هذه - يخلو من على ظهورها نبلاء - لوحظت عليها اشارات أو علامات تدل على أنها أجفلت أو ارتعدت.

وفى نهاية يوم الحرب هذا، نفذت الذخيرة الانجليزية. فقد كانت هذه الذخيرة تكفى ليومين فقط، هذا على حسب ما سمحت به الملكة. وفى اللحظة الاخيرة، طلب هوارد بالحاح مزيدا من المؤن، وقد تلقى الرد المعتاد الذى جاء فيه : انه من الواجب أن يذكر بدقة كم يحتاج هو قبل أن يرسل اليه المزيد من الامدادات. وان اشعال الركيات زاد من خفقان قلوب الرسمين قليلا. وارسلت امدادات الى ويموث Way mouth أو الى بول Pool، ولا يمكن عمل شىء أكثر من ذلك حتى تصل هذه الامدادات، وفى غضون ذلك ترك الدوق ليصلح من شأنه، ويسلك طريقه، ولكن كانت انجلترا فى هذا الوقت متيقظة وخرجت مراكب جديدة للقرصنة من موانئ دورستشير Dorset shire Harbours وهى محملة بالذخيرة، واللحم والخبز ، والفاكهة، وبأي شىء استطاعت هذه السفن أن تحصل عليه. وقد أتى السير جورج كيرى Sir George carey من النيدلس Needles، فى الوقت المحدد ليشترك فى شرف المعركة الأخيرة وكما قال فان الطلقات

كانت في كل اتجاه، تتطاير بكثافة مثل طلقات البنادق في تحرشات على الأرض. ولاحظ الدوق بصعوبة من على ظهر السفينة سان مارتين بأن مطارديه كانوا يزدادون عددا. فقد صمم بحزم أن يتوجه إلى جزيرة ويت، بحيث يأوى أسطوله في سولنت Solent ، وينزل على جزيرة ويت ١٠,٠٠٠ من رجاله، وهناك يتخذ موقف الدفاع حتى يتصل به بارما. وكان من الواجب عليه أن يحارب معركة أخرى، علما بأنه قد فقد حتى الآن سفينتين بالصدفة رغم أنه كان قد انعزل ومن المحتمل أنه كان يأمل في أن يشق طريقه بمساعدة سلطات أعلى، التي لسبب خاص، فانه كان يتوقعها معه في الاشتباك التالي.

وكان يوم السبت ساكنا تماما. فكان الانجليز مشغولين في امداداتهم. وكانت الارمادا لا تزال قابعة، وترمم الاضرار التي لحقت بها. وكان يوم الخميس يوم عيد الاحتفال بالقدّيس دومنيك St. Dominic day ، وينتسب القدّيس دومنيك هذا إلى أسرة الدوق. وكان القدّيس راعي من هذه الأسرة. وكان الدوق على ثقة بأن القدّيس سيقف الآن إلى جانب قريبه.

وجاء الصباح برياح خفيفة عندئذ سيكون الانجليز أقل قدرة على التحرك ولكن بمساعدة السفن الحربية الشراعية الكبيرة ذات المجاديف، كان (دريك) يأمل في أن يتخذ مواقع قريبة في النهاية. وبدأ أن هوارد كان ميالا لأن يحقق له رغبته، وبربح كافية للتحرك قاد قائد عام البحر (دريك) السفينة أرك رالي Ark Raleigh مباشرة إلى قلب المواقع الاسبانية، وكانت السفينة أرك هذه قد سبقت السفن الموافقة لها، ووجدت نفسها وحيدة وسط السفن الشراعية الضخمة. وفي تلك اللحظة سكنت الرياح. وكانت القوات الاسبانية على ظهور السفن متخذة مواقعها. وكانت الاسطح العليا للسفن مكتظة بحملة البنادق. وفي تلك الأثناء أعدت جميع الكلابات الحديدية كي تلقى بقوة على حبال أشرعة الصواري الخاصة بآرك.

ومن المتصور فإن الأدميرال كان هدفهم. ولكن كانت تجربة كل يوم تعلمهم درسا جديدا، فقد القى من على جنبا السفينة أرك Ark ١١ قاريا، سحبتها نفس هذه السفينة، وعندما بدأت هذه السفينة تتحرك ارتفع النسيم مرة ثانية، وملأت الرياح

أشروعها ، وانسابت عبر الماء، تاركة السفن الاسبانية، كما لو كانت رأسية، وفي هذه اللحظة كان الاسبان فى دهشة وعجز. وفى تلك اللحظة أيضا جلبت الريح دريك والبقية، وبعد ذلك بدأوا مرة ثانية فى الهجوم المرعب بالمدفعية التي قاست منها الأرمادا بدرجة كبيرة. وبدأ فى هذا الصباح (للأسبان) أن الانجليز يستخدمون مدافع معدنية أثقل من التي كانت تستخدم فى الأيام السابقة، مع أن هذه الأسلحة لم تتغير، انما الذى تغير هو خيالهم (أى الأسبان) الذى كان يرتعد خوفا. وكان لدى الدوق أسباب أخرى تدعوه للقلق، حيث كان المخزون من الأسلحة يتناقص نظرا للطلبات غير المتوقعة عليها. فكان هناك معركة واحدة حاسمة. وكان (الدوق) يتطلع اليها. فقد حارب ثلاث معارك، ولم تكن النهاية بأقرب مما كانت من قبل. وكان من الممكن (الدوق) بتصميم وعزم أن يشق طريقه الى مسالك مرسى سانت هيلينا St. Helena Roads ، لأنه من الواضح أن الانجليز كانوا يخشون الاقتراب منه. ولكن عندما تخلى عنه سنت دومنيك، فقد صوابه وشجاعته (الدوق). وبفقدانه شجاعته فقد كل شئ. وفى سولنت، كان من الممكن أن يكون فى أمن نسبيا. وكان من الممكن أيضا أن يحتل جزيرة ويت بسهولة، ولكن كان تفكيره الوحيد الآن أن يجد الأمن تحت مظلة بارما، وأن يتجه الى كاليه أو الى دنكرك. وافترض (الدوق) أن بارما كان عليه أن يقتحم من قبل بأسطول ثان مسلح - عند السماع بقدمه - الميدان، وأن يقوم بعمل سريع، وأرسل (الدوق) مركبا آخر شراعيا صغيرا يطلب المساعدة والذخيرة بالحاح، ويطلب أيضا مراكب سريعة لحماية السفن الشراعية الضخمة. ولكن فى ذلك الوقت كان بارما نفسه يتطلع الى مساعدات الأرمادا نفسها حيث أنه لم يكن لديه أسطول ثام بالمرة، وكل ما كان لديه هو اسطول صغير من المراكب النهرية التي تحتاج الى اصلاح يستغرق أسبوعا لإعدادها للعبور.

وقد أعد فيليب أسطولا ممتازا، وجيشا ممتازا بحيث ضم أحسن بحارة فى العالم بأستثناء البحارة الانجليز. وقد فشل (فيليب) فى أن يدرك أن أكبر الاستعدادات لا فائدة منها مع قائد أحمق. وكان الدوق التعس يستحق اللوم أقل مما يستحق سيده (فيليب). فقد فرضت عليه مهمة، كان يعرف أنه ليس كفا لها وكان قلقة الوحيد أن يجد بارما، كي يلقي بهذه المهمة على أكتافه وينتهي منها.

وفى يوم الجمعة، ترك وحيدا ليشق طريقه عبر القناة تجاه الشاطئ الفرنسى، ولا يزال الانجليز يتعقبونه، ولكنه اعتمد على أنه فى مرسى كاليه، ولن يجرؤ الانجليز على الاشتباك معه. واعتقد عندئذ، بأنهم (الانجليز)، سوف يعودون الي الوطن، ولن يسببوا له مزيدا من المضايقات. وعندما القى بمرساة خارج كاليه، فى مساء يوم السبت رأى باشمئزاز قوة أندمونيادا جنت Endemoniada gent ، التى اطلق عليها (شياطين جهنميين)، قد حضرت معه فى نفس اللحظة حيث كانت خلفه، وعلى مسافة تبعد فرسخ. وقد كان أمله الوحيد فى الأمير بارما. وعلى أية حال كان بارما على مقربة منه الآن.

" الفصل التاسع "

هزيمة الأرمادا

كانت توجد صورة رسمها تيتيان Titian فى معرض للفنون فى مدريد، وكانت هذه الصورة تمثل عبقرية أسبانيا، وهى آتية لتخليص عروس المسيح من حزنها. وتوفى تيتيان، ولكن بقى طابع عصره. وفى دراسة لتلك الصورة العظيمة سترى الروح التى بدأت بها الأمة الأسبانية غزوها لانجلترا. وكانت هذه الصورة لشاطئ البحر، والكنيسة، التى تمثلها ابديوميدا Andromeda العارية، بشعرها الأشعث، وهى مربوطة بأحكام الى جذع شجرة عجوزة بدون فروع، ويرقد الصليب وكأس مقلوب عند أقدامها، وتلدغها من الخلف أفاعى الهرطقة من نوات القرون. ويندفع غول البحر " وهو الاسطول الاسلامى " أمام النسيم، حيث كان هذا الاسطول متشوقا لفريسته. وفى المقدمة كان يوجد بريسيوس Perseus "عبقرية أسبانيا" وفى يده علم ومعه جماعات من المخلصين، الذين لم يلقون امامه الثياب، ولكنهم كانوا يأتون أمامه دروعا وخوذات، تلك التى تمثل ملابس الحرب من أجل سيدة الأمم لتدثر نفسها بالشجاعة، حتى يمكن لها أن تسحق أعدائها، وفى الأرمادا، قد وصل التعصب الصليبي الى ذروته، فقد كانت انجلترا هى الورد الذى قيدت عليه العذراء أسيرة، وهى ابنة عمران The daughter of sion وأخيرا أتى برسيوس فى شخص لوق سيدونا Medina Sidona ومعه كل ما هو أفضل والمع من ريفى كيرفانتس Cervantes ليحطموا قيودها، ويعيدونها الى عرشها. وقد أبحروا الى القتال يحدهم الأمل الدينى، ومعهم علمهم المبارك الذى يرفرف على رؤسهم. وكان عليهم أن يكونوا منفذين للإرادة الالهية، لأن ذلك هو أعلى واسمى طموح الهى، ولكن مع ذلك أغفل الرجال وهم فى حالة انفعال عاطفى، الاحتياطات التى لايمكن الاستغناء عنها حتى فى اسمى المهام.

وعندما بدأ دون كويكسوت Don Quixote، فى اصلاح أخطاء الانسانية، نسى أن تغيير المفروشات قد يكون ضروريا، كما كان من الواجب عليه أن يأخذ نقودا معه كى يدفع فواتير فندقه. وقد تصور فيليب الثانى "موكب نصر لا يقاوم" بإرساله الأرماده إلى إنجلترا.

أفراد الدوق). وقد طارده الانجليز كمجموعة من كلاب الصيد، والأسوأ من ذلك كله انهم طاردوه بقوة مضاعفة. وأما بخصوص اسطول التيمس، فقد عبرت منه بالليل، ثلاث سفن من سفن الملكة، وثلاثين سفينة من سفن مغامرى لندن، تحت قيادة الجنرال هنرى سيمور Lord Henry Seymour، والسير جون هوكنز Sir John Hawkins، وهناك كانوا بينه وبين رأس جريسنز Cap Grisnez بأن أى تعزيزات ترسل للدوق فان الريح ستعرقها.

وبعد أسبوع من المحاولة فان البحارة الاسبان، كان من الممكن أن يشعروا بالسعادة اذا استطاعوا الحصول على اجازة يوم الأحد. ولكن قد أدت المتعب القاسية التى واجهوها الى انتشار الفوضى فى كل شىء. وكان من الواجب أن يعتنى بالمرضى والجرحى، وكان من الواجب أيضا أن يهتم بالاشربة الممزقة، ومن الواجب كذلك اصلاح الألواح الخشبية المحطمة، وتطهير أسطح السفن، وتنظيف المدافع والاسلحة، بحيث توضع على أهبة الاستعداد، ولم يسمح براحة لأنه كان هناك عمل كثير فكان كل واحد مشغولا، ولم تقدم التموينات المعتادة، وانقضى يوم الأحد فى صوم. وبعد الظهر ذهب خدم السفينة الى الشاطئ للحصول على اللحم الطازج والخضروات. وعادوا بقواربهم وهى مشحونة، وعندئذ، بدأ الأمل أقل كآبة. وفجأة، وبينما كان الدوق، ومجموعة من الضباط تراقب الاسطول الانجليزى من مؤخرة السفينة سان مارتن San Martin، أطلقت السفينة شراعية صغيرة وقوية - تحمل فى مؤخراتها مدفعا - قذيفة من خطوط هوارد Howard's Lines، فازعجت السفينة سان مارتن، وابتحرت من حولها، وأطلقت قذيفة أو قذيفتين أثناء مرورها، وانصرفت دون أن تتعرض لأى أذى. ولم يتمالك الضباط الاسبان من أظهار اعجابهم من هذه الوقاحة التى تدل على اللامبالاة، عندئذ أطلق هيو جودى موناكادا Hugo de moncada، قذيفة خلف هذه السفينة الصغيرة، التى نفذت من شراعها الرئيسى، ولكنها (أى القذيفة) لم تسبب أى ضرر واختفت السفينة الصغيرة مرة ثانية فيما وراء السفن الانجليزية.

وهكذا، وصف ضابط أسباني المشهد، ولم تتحدث القصة الانجليزية، بشىء عن السفينة الصغيرة، ولكن بلاشك فانها قدمت وعادت، كما رواها الاسبان. وكان الانجليز فى تلك الاثناء فى متاعب لم يكن يحلم الدوق بها. وأنتم ستتذكرون بأن الامدادات

الآخيرة التي سمحت الملكة بها إلى الأسطول قد أرسلت في منتصف يونيو. وكانت هذه الإمدادات تكفي لشهر، ومنع المتعهدون من أعداد المزيد وتعلقت الملكة بآمالها الخاصة بخلافاتها، مع فيليب التي سوف تسويها اللجنة في أوستند Ostend. وخشيت أنه إذا زود كل من دريك وهوارد تزويدًا جيدًا فإنهما سيفامران بضربة جديدة متهورة ضد ساحل أسبانيا، التي من المحتمل أن تفسد بسببها المفاوضات. وقد مدت مؤن شهر إلى ستة أسابيع. وعندما ظهرت الأرمادا، كانت المؤن الباقية تكفي يومين فقط. ومع ذلك وبهذه المؤن شقوا (الإنجليز) طريقهم إلى القتال وبالجهد الذاتية، ثم جلبت بعض الأشياء على شاطئ دروست شير Dorsetshire وكان سيمور قد جلب أكثر قليلاً عما جلب من قبل. ومع ذلك فإنهم (أي الإنجليز) كانوا في حاجة إلى مزيد من المؤن. وقد حذر المتعهدون الحكومة من أنه لن يكون في استطاعتهم تقديم أي شيء دون الحصول على اشعار (أي أذن بالتنفيذ) ومع ذلك فلم يمنح أي اشعار بعد، لهذا فقد كان المغامرون في حالة أو في ظروف أفضل، فكانور قد جهزوا من قبل الملك. وأما بخصوص سفن الملكة فكان من الواجب في ظرف يوم أو يومين أن تعود للوطن أو أن بحارتها يموتون جوعاً. فقد عاشوا على تعينات مخفضة لمدة شهرين تقريباً. وكان الأسوأ من ذلك، أنهم لا يزالون مسمومين من تناول البيرة الفاسدة. وغالباً ما كانت الملكة تغير رأيها ولكنها، مع ذلك أمرت الأسطول أن يجهز للإبحار الآن، عندئذ، سحبت تعليماتها السابقة (الخاصة بعدم مجابهة حرية مع أسبانيا) ودفعت مرتبات الرجال. فقد حضر هؤلاء الرجال الذين سجلت أسمائهم بسرعة مع هوارد إلى ظهور السفن كما كانوا، وكانت ملابسهم في حالة رثّة. وكان الإشتباك ورؤيتهم للأسبان وهم يهربون أفضل بكثير من اللحم والشراب والملبس بالنسبة لهم (أي الإنجليز) وهذا ما جعلهم لا يهتمون بأي شيء آخر. ولم يكن هناك خوف من التمرد (من جانب الإنجليز)، ولكن كان هناك حد لتحمل المشاق.

وإذا تركت الأرمادا بدون ازعاج، فمن المحتمل أن يبقى أمامهم صراع طويل وقد يفيق العدو (الاسبان) من صدمته، وقد يأتي بارما من دنكرك Dunkirk. وقد يؤدي الهجوم عليهم مباشرة في المياه الفرنسية إلى تعقيدات محقوفة بالمخاطر، وكان التأجيل يعني المجاعة. وكان على الأسطول الأسباني أن يبدأ من المرسى المختفى

وكان كله ثقة فى العناية الالهية. وقد نسى أن الممولين من المحتمل أن يكونوا ندلاء، فالماء الذى يوضع فى البراميل مدة أربعة شهور، وفى مناخ حار فإنه سيفسد، وأن الماء الفاسد سيسمم البحارة، رغم أن الملائكة كانت تصاحبهم. وقد نسى أن أتباع السيدة الشريرة قد يحاربون من أجلها قبل كل شيء، لذا كان من الواجب عليه ارسال امدادات كافية من البارود. ومع ذلك، فقد كان هناك أسوأ افعال، تمثل فى تعيين قائد لايفهم عمله على رأس حملة بحرية عظيمة كهذه. فبعد أسبوع من المعارك الطاحنة التى سببت النكبات، وجد دوق ميدينا سيدونا نفسه فى نهايتها فى مرسى مكشوف، وفى تلك الاثناء كان ينبغي عليه أن يلقى بتسع أعشار تموينه من على ظهور السفن لانه كان طعاما غير صالح، كما أن ذخيرته استهلكت نتيجة لمتطلبات غير متوقعة. وكان جنوده وبحارة أسطوله منهكين، وفى روح معنوية منخفضة، يظل ضباطه بدون نوم طوال أسبوع، وقد رسى العدو - الذى طارده أى طارد دوق ميدينا سيدونا من بليموث الى كاليه Calais - على مسافة نصف فرسخ منه، ومع ذلك، وبعد كل مخاطراته المنكوبة هذه، أحضر اسطوله ان لم يكن فى شمال فورلاند Foreland، فانه كان على مسافة أميال قليلة منها، دون أن يصاب مظهره الخارجى بأى ضرر مادى. وقد أسرت سفينتان شرعيتان ضخمتان، وضلت السفينة الثالثة وهى السفينة سانتوا The Santoaua. وقد تخلفت عنه سفنه الشراعية الكبيرة ذات المجاديف، لأنها كانت ضعيفة ولاستطيع مجابهة مياه العال. ولكن على قدر مارأت الأعين الانجليزية، فان القوات الحربية الكبيرة كانت قد وصلت الى الجهة المنشودة دون أى ضرر جوهري. وقد قتل مئات من الرجال ومئات أكثر من الجرحى، لذلك اهتزت الروح المعنوية لدى الباقين، ولم يكن فى الامكان، وعلى وجه الدقة تقدير الخسائر فى الارواح فى الاسطول الانجليزى وتركت للتخمين. واستطاع - فقط - الادميرال الانجليزى أن يرى أن الدوق كان الآن على اتصال ببارما Parma. وعرفوا (أى الانجليز) أن بارما لم يكن لديه جيش فى دنكرك، فهو الذى كان عليه أن يعبر الى انجلترا. وكان يجمع الرجال، ومراكب نقل البضائع، وسفن نقل الجند، طوال فصلى الشتاء والربيع. ولم يكن من المتوقع أن تكون استعدادات بارما متدنية، ومع ذلك فلم يكن الاعتماد عليه كبيرا. وكان مرسى كاليه غير آمن، ولكن فى هذا الفصل من السنة، كان من المعتاد أن يستقر الطقس، وبخاصة بعد

صيف ممطر، ومن المحتمل أن يكون الهجوم على الاسبانين فى ميناء فرنسى خطيرا، لأسباب كثيرة. ولم يكن من المؤكد بعد يوم من الحصار معرفة أى دوق سواء، كان دوق أف جيز The duke of Guise أو هنرى أف فالوا Henry Valois سيد لفرنسا. وأن أى خرق لقوانين الحياد قد يجر بسهولة فى هذه اللحظة، الجيز Guise، وفرنسا France الى الميدان الى جانب الاسبانين. وأنه بدون شك، ومع توقعات كهذه، فإن الدوق ومستشاريه قد اختاروا كاليه كنقطة يتوقفون عندها. وكان ذلك فى يوم السبت السابع من شهر أغسطس. وتوجه حاكم المدينة فى المساء الى السفينة سان مارتن San Martin، وعبر بدهشة لرؤية الاسطول الاسبانى فى موقعه المكشوف، ومع ذلك، فإنه كان مستعدا لتقديم المساعدات الوفيرة، وكان على استعداد أيضا أن يقدم للدوق كل شىء يطلبه من كافة التسهيلات من أجل الاتصال بدنكرك وبارما. ولكن شكره الدوق، وقال أنه من المفروض أن يكون بارما قد وصل بقواته ومستعدا للمرور، وأن مكوثه فى المرسى سيكون قصيرا. وفى وقت متأخر من صباح يوم الاثنين توقع (الدوق) أن تبدأ محاولة العبور، وطلب الدوق من الحاكم الأذن بالرحيل، واستراح الدوق بعد ذلك من قلقه، بحيث ترك ليقضى ليلة هادئة. وفى صباح يوم السبت انزعج بسبب رسالة وصلت من بارما تخبره بأن جيش بارما لن يكون مستعدا قبل أسبوعين. ولم تكن مراكب النقل مستعدة أيضا للإبحار. وكانت هذه القوات فى المعسكر. وكانت الأسلحة Arms والذخائر Stores على الرصيف فى دنكرك، وأما بخصوص القوارب السريعة، والذخيرة التى كان الدوق قد طلبها، فلم يكن لدى بارما ما يستطيع الاستغناء عنه، فإنه هو نفسه، كان يتطلع بأن يزود بالمؤن والذخيرة من الارمادا وتعهده بارما ببذل قصارى جهده، ولكن كان على الدوق، أثناء ذلك أن يهتم بأمن الاسطول.

ان مجيء هذه الاخبار السيئة لرجل مضطرب فى مركز قائد جعله يتشوق لأن يتخلص من مسئولياته. وإذا كان من سؤ الطالع أن تهب عليه الرياح الشمالية الغربية، فضلا عن وجود المياه الضحلة، والشواطىء الرملية القريبة من مرساه فإنه سيكون فى حالة سيئة، كما أن الامور من خلفه لم تكن تنبعث على الراحة. وهناك كمن العدو فى مرمى النيران، رغم أنهم (أى الانجليز) كانوا بالكاد أكثر من نصف عدد أفرادهم (أى أفراد الدوق). وقد طارده الانجليز كمجموعة من كلاب الصيد، والأسوأ من ذلك كله انهم

بطريقة ما، وهذا ما يجب أن يتم فوراً.

وبعد ذلك، وفي نفس يوم الأحد بعد الظهر، عقد مجلس حرب جدير بالذكر في الكابينة الرئيسية للسفينة أرك Ark، فالتقى كل من هواندر Howard، ودرىك Drak، وسيمور Seymour، وهوكنز Hawkins، ومارتن فروبشر Martin Frobsher، وأثنى أو ثلاثة آخرين ليتشاوروا وهم على علم بأن حريات انجلترا تقع على عاتقهم في هذه اللحظة. لذا، اتخذوا قرارهم في الحال وبحزم، ولم يوجد هناك وقت للحديث. وبعد سدول الليل سيرتفع المد على طول الشاطئ وحتى المرسى الأسباني، وسيحاول الانجليز عمل ما يمكن عمله مع الحراقات، وأن رحلة السفن الصغيرة التي اعتبرت مظهراً من مظاهر الشجاعة كانت من المحتمل تقوم بمعاينة موقع الارمادا على وجه الدقة. وفي نفس الوقت غطى الانجليز (دهن) أجسام وأشعة وصواري ثمان سفن عديمة النفع بالقطران* prich، فضلاً عن ذلك فإن الانجليز صبوا القطران على أسطح هذه السفن وعلى جوانبها، وأصدرت الأوامر الى مجموعات من (البجارة الانجليز) بتوجيه هذه السفن الى أهدافها المنشودة واشعال النيران فيها وتركها.

ومضت الساعات، وانتشرت الظلمة بعد الفسق، ولم يكن الليل مقمراً وفي وقت متأخر من الليل تقدم الدوق على ظهر سفينته، وكان لديه احساس بالخطر، ولاحظ الأضواء تتحرك الى أعلى وإلى أسفل على الخطوط الانجليزية، وتصور أن السفينة أندمونيا داجنت Endemoniadaagent - الشياطين الجهنميين - قد تكون على وشك القيام بعمل شرير فأصدر أوامره بالمراقبة الشديدة. وكانت رياح غربية خفيفة تموج المياه. وعند منتصف الليل تبين للمراقبين (الاسبان)، على ظهور السفن الشراعية الضخمة بأن العديد من السفن غير الواضحة المعالم كانت تندفع نحركهم فيما يبدو. فقد كانت تجربتهم منذ عملية بليموث غربية وغير متوقعة بحيث أن أى شيء غامض كان يقوم به الانجليز يكون مزعجاً.

واندادات الاشباح** اقتراباً حتى أصبحوا تقريباً بينهم (أى بين الاسبان) بعدئذ،

* هذا القطران كان يحصل عليه من الفحم وليس من البترول الذى لم يكن قد تم اكتشافه بعد (المترجم).

** الاشباح هى السفن الغامضة التي كانت تقترب من الاسبان في عرض البحر (المترجم)

أصبحوا لهيبا من خط المياه وحتى أسطح هذه السفن، وشوهد الاسطولان بواسطة الضيق المتوهج من الحريق الهائل، كما شوهدت المرسى وحوايط ونوافذ أبنية كاليه، تتلأأ أحمرارا على قدر مرمى البصر، كما لو كان المحيط نفسه يشتعل. وكان من بين الاخطار التي من المتوقع أن يواجهها الاسبان القذائف النارية الانجليزية التي كان يخشاها هؤلاء الاسبان. وعلى وجه الخصوص كانت الحراقات - حيلة ملائمة للمهرطقين - قد أحدثت دماراً بين القوات الاسبانية، عندما ضرب الجسر في أنتويرب Antwerp. وتخيل الاسبان أن آلات جهنمية كانت تقترب من الارمادا، وكان من الممكن لأي قائد قدير أن يرسل عددا قليلا من اللنشات للمساك بالسفن المحترقة (الانجليزية) التي كانت بطبيعة الحال مجهولة، وسحبها بعيدا حتى لاتسبب أى ضرر. ولم يكن البحارة الاسبان جبنا، ولم يحجموا عن الواجب، لأنه قد يكون ذلك خطرا عليهم، ولكن مع ذلك فقد كل من الدوق وديجوفلوريز Diego Florez، توازنهما، وبطاقة إشارة واحدة من السفينة سان مارتن San Martin، أمر الدوق كل الاسطول (الاسباني) أن يرفع مراسيه ويتخذ مواقعه في البحر. ومن المعروف أن الأوامر التي تعطى في زعر، تكون مضاعفة في عدم حكمتها لأنها تنتشر الرعب في أماكن اصدارها. وكان الخطر من الحراقات أساسا في التأثير على خيالهم، والدليل على ذلك أن هذه السفن عند مرورها بهم (الاسبان) لم تحدث أى ضرر حقيقى. ومع ذلك، يشهد للاسبان على مهارتهم وشجاعتهم، وعلى قدرتهم على رفع أشرعتهم، ومفادرة المكان دون أن يصطدم كل منهم بالآخر. وعند منتصف الليل وياخذاز فجائى رفعوا حبال سفنهم لتوقعهم العودة الى أماكن رسوهم هذه في ضيق النهار. وقد قاموا (الاسبان) بمناورة صعبة بنجاح، وكان الدوق مسرور من نفسه. وقد تم احتراق الحراقات دون أذى. وقد تحيز الدوق من اختراع السفينة Endemoniadagent حتى أنها توقفت على بعد فرسخ خارج الميناء، وتصور (الدوق) أن كل الارمادا قد قامت بعمل نفس الشيء، واسق حظه أنه وجدها مقسمة قسمين عند الفجر. فالسفينة سان مارتن ومعها أحسن ٤٠ سفينة شراعية ضخمة مجهزة تجهيزا جيدا كانت قد توقفت معا عند مراسيها. وكانت البقية من هذه السفن تمثل ثلثي الجميع، فلم يكن لها مراسى ثانية جاهزة، ولما لم يكن لديها

خبرة بالمد فى القناة وبتياراتها فقد ظلت قابضة فى مكانها. وفى تلك الأثناء، كانت الرياح الغربية تهب ونتيجة لذلك انزلقت هذه السفن فى اتجاه دون أن تعرف أين تذهب، وأصبحت على بعد فرسخين من جرافيلين Gravelines، وقريبة من الشاطئ بطريقت خطيرة. وكان الدوق يجهل أن يدرك الخطر الكامل لموقعه، وأبلغهم (أى أبلغ الدوق السفن الثلاثين) أن يعودوا ويلتحقون به، وكانت عودتهم مستحيلة، وخاصة بعد أن توقفت الرياح والجزر، فاقترح (الدوق) أن يتبعهم (هو). وأخبره المرشدون أنه إذا فعل ذلك فمن الممكن أن يفقد كل الأسطول على الشواطئ. وبالقرب من الأرض لم يكن منظر الأشياء مشجعا كثيرا. وفى الليلة السابقة وقعت حادثة واحدة فقط. وكان دون هيوجوى مونكادا Don Hugo de Moncada، على متن السفينة الحربية الشراعية الضخمة ذات المجاديف، كابيتانا Capitana، وبرفقتة ثمانمائة من الرجال، وقد أعاق دفتها حبل وهى فى طريقها الى الابحار، وأصبح من المستحيل السيطرة عليها. وقد عصى عبيد هذه السفينة الشراعية الضخمة - ذات المجاديف - الأوامر، فضلا عن أن دون هيوجو كان غير كفء كقائد عام Cammander in chief، وقد جنحت السفينة كابيتانا هذه على الرمال، وعندما انحسر المد سقطت على جنبها، ورأى هوارد حالتها، وتبعها بالسفينة أراك وبرفقتة أربعة أو خمسة آخرين، من سفن الملكة وهاجمها بقوة بسفنته، غير عابى بقوانين الحياء. وكانت نظرية هوارد، كما قال أن يقتلع رئيس الجناح الاسبانى واحدة بواحدة. وهذه كانت ريشة جديدة بالقلع. وكانت هذه السفينة (الاسبانية) أعظم سفينة من نوعها فى البحر، وكان دون هيوجو هذا واحدا من أعظم النبلاء الأسبان.

وارتكب هوارد خطأ مضاعفا، عندما استولى على السفينة أخيرا، أى بعد ثلاث ساعات من المعركة، وقتل دون هيوجو بواسطة طلقة، ونهبت السفينة الاسبانية هذه حيث استولى رجال هوارد على محتوياتها، وكان هدفهم من وراء ذلك سحبها عند ارتفاع المد. وعندئذ أمرته (هوارد) السلطات الفرنسية أن يبتعد، وهددت بإطلاق النيران عليه، وبعد ضياع صبيحة يوم أجبر فيه النهاية أن يتركها، فى المكان الذى قبعت فيه. وكان الأسوأ من ذلك كله أنه (هوارد) قد أضاع ثلاث ساعات ثمينة من الزمن، وأضاع معها جلال اليوم العظيم. كان هذا رأى أمير بارما.

وكان دريك وهكنز قد عرفا ماهو أفضل من ضياع الوقت فى اقتلاع الريش واحدة بواحدة. وكانت الحراقات أكثر تأثيرا مما كانا يأملان، ودمر العدو، وجرى الدوق من نصف قوته، ومع ذلك فقد خلصه اللورد من أيديهما. وانطلق الدوق بعد هذا التوقف، وهو مازال يعطى أشارته بطريقة عنيفة، وكان غير متأكد الى أى اتجاه يسير، وانتهت حيرته عندما رأى دريك يتجه إليه بكل الاسطول الانجليزى باستثناء تلك السفن التى كانت تتلأأ حول السفينة " كابيتانا". والآن يتفوق الانجليز فى العدد، كما تتفوق مدافعهم التى عرفها من قبل (الدوق) فلم تعط سرعتها الكبيرة (أى الدوق) الفرصة له فى أمل الهروب من المعركة. وفى هذا الوقت كان قد بقى مع الدوق ٤٠ سفينة، يدافع بها عن علم الصليبية، وعن شرف قشتالة، ولكن مع ذلك كانت الاربعون سفينة هذه من أكبر وأقوى السفن تسليحا لديه (أى الدوق)، وكان على ظهور هذه السفن أو كويندوا Oquendo ودى ليفا Deleyva، وريكالده Recalde وبريتاندونا Bretandona وهم جميعا من أحسن الضباط فى الاسطول الاسبانى بعد قفقد دون بيدرو Don Pedro.

وكانت هذه الفرصة الحالية، هى الفرصة الوحيدة لانجلترا، التى لن تعود أبدا. وكان ميدان العمليات يقع بين كاليه ودينكرك، وهو على بعد أميال قليلة من الشاطئ، وعلى مرمى البصر من معسكر بازما، الذى يقرر مستقبل أوروبا. ولم يكن هناك مزيد من المناورات بسبب مؤشرات الطقس. كما لم يكن هناك مزيد من الحروب التى تقع على مرمى طول، وانقض دريك على فريسته، كما ينقض الصقر على فريسته، فقد هبطت عليه فرصة قد لاتعود أبدا، ولم يكن هدفه أيضا حمل هدفه الفخر بحمل الغنائم الى الموانئ الانجليزية، ولم يكن هدفه أيضا حمل الشرف الذى سيضفى عليه اذا استطاع حمل العلم المقدس نفسه ورفعته فى وستمنستر أبى Westminster Abbey، إنما كانت فرصته (أى دريك) الوحيدة أن يتعامل مع الامداد، حتى لاترى مرة ثانية فى المياه الانجليزية، كما كانت فرصته أيضا أن يصوب ضربة الى فيليب، بحيث تهتز معها الامبراطورية الاسبانية. وكانت السفن الانجليزية تتفوق على السفن الشراعية الاسبانية بمثل ما تتفوق به السفن البخارية الآن على السفن الشراعية. فكان لها ضعف السرعة، وكان فى استطاعتها الوقوف فى أقرب نقطتين من مهب الريح وكان فى استطاعتها أيضا أن تدور حول السفن الاسبانية، على مسافة تقترب من طول حبل

السفينة، وكان في مقدور السفن الانجليزية أيضا أن ترغم السفن الاسبانية على التجمع الواحدة مع الأخرى، دون أن تترك لها الفرصة في الامساك بسفينة انجليزية، ثم قذفها بوابل منهمر من القذائف. ولما كان هناك نقص في الذخيرة (الانجليزية)، فلم يكن في الامكان ضياع أى شيء منها، وفي هذا الصباح مضت الساعات، وكانت المعركة لاتزال يشتد سعيها، اذ كان في امكاننا أن نطلق عليها معركة، حيث كانت الضربات تكال من جانب وتقع الضائير على الجانب الآخر. ولم يبين الاسبان أنفسهم من قبل - بأنهم كانوا جديرين بحمل اسمهم العظيم، وبأنهم قادرين على القتال فى البر والبحر- مثلما بينوه فى هذا اليوم. ولكن ومع ذلك، ومنذ البداية فلم يستطيعوا فعل أى شيء، وفيما بعد قيل فى أسبانيا أن الدوق أظهر الريشة البيضاء يبدو أنها العلم الأبيض الخاص (بالاستسلام) وأنه هاجم ماسك الدفة لبيعه عن الأذى، وأنه حبس نفسه فى كابينة، وأخفى نفسه فى بالات الصوف ...الى آخره. وعلاوة على ذلك فإنه (أى الدوق) كان له أخطاء كثيرة، ولكن لم يكن الجبن واحدا منها، فهو الذى - كان حتى دخوله القتال الانجليزى - لم يقع بحرب فى الحرب أو فى البر، ولكنه وجد نفسه، وكما قال فى وسط أكثر الحروب ضراوة سجلها التاريخ، فأما مايتعلق ببيعه عن الأذى، فإن مستوى أعلى صاربه قد جذب أشد النيران عليه. وكانت ألواح خشب السفينة سان مارتين من البلوط، وكان يبلغ سمك هذه الألواح قدم، ومع ذلك، فكانت الطلقة تنفذ من خلالها، بقوة تكفى لتحطيم صخرة. وقد تحول سطحها الى مذبحة، وقتل نصف طاقمها أو جرح. ولم يكن من الممكن سماع أو رؤية المزيد عن سان مارتين، أو عن قائدها، لولا أن كل من أوكينو Oquendo، ودي ليفا Deleyva، قد أتى لينقذوه وسفينته ويمكنوه من الزحف بعيدا تحت غطاءهما، ولم ير هو نفسه (الدوق) المزيد من العمليات الحربية، فالدخان، وكما قال كان كثيفا بحيث لم يستطيع (الدوق) أن يميز أى شيء حتى من أعلى صاريه. ولكن كل مايدور حول ذلك هو تكرار لنفس المشهد. وكانت طلقات الاسبان تتطاير فى الهواء، كما كان الحال من قبل، أى كانت تتطاير من أعلى السفن الانجليزية المنخفضة، وكان الاسبان أنفسهم أهدافا لاحول لهم ولاقوة للمدافع الانجليزية. وأنه من الملاحظ والجدير بالفخر لهم (الاسبان) انه لم تضرب واحة من سفنهم فى أعلامها. وكانت سفينة من سفنهم على وشك الغرق، بعد مبارزة طويلة مع

رجل اجليزى واعجب أحد الضباط الانجليز بالشجاعة التى أبدأها الاسبان، فاندفع على عمود فى مقدمة سفينته، وأخبرهم أنهم فعلوا ما يجب أن يفعله الرجال، وحثهم على الاستسلام وانقاذ حياتهم. وكان ردهم(أى الاسبان) أنهم لعنوا الانجليز كجبناء، وضعاغ لأنهم رفضوا الاقتراب منهم، وقتل الضابط(الانجليزى). وقد أدى سقوطه الى اطلاق المدافع من جانب واحد (أى من جانب الانجليز) عليهم (أى على الاسبان) وانتهى الأمر وغرق الاسبان، فقد فضل جنود الصليب (أى الاسبان) الموت على الاستسلام للمهرطقين.

وعلت صراخات الموت، وشوهد الدم فى بعض السفن وهو يتدفق من بالوعاتها ومع ذلك لم يوجد هناك استسلام، وقد أظهرت جميع الرتب بطولات متساوية، وكان الكهنة يصعدون وينزلون فى وسط المجزرة، وهم ممسكون بالصليب أمام أعين الذين يموتون. وعند منتصف اليوم - جاء هوارى ليطالب بحصنة ثانية فى النصر الذى لم يعد مشكوكا فيه. وبعد الظهر خفت حدة النيران الاسبانية، فقد نفذ بارودهم (نخيرتهم)، ولم يكن فى استطاعتهم العودة الى الرشق بالمدافع، لأن مدافع الانجليز كانت لاتزال تسحقهم، وبعد ذلك اعترفوا بصراحة، بأنه اذا استمر الهجوم لأكثر من ساعتين، فانه لايد وأن يذهبوا الى الشاطئ. وكانت مخازن الذخيرة الانجليزية فارغة أيضا، فكانت آخر خرطوشة قد أطلقت، وانتهت المعركة فقط بسبب عدم القدرة على مواصلةها. وقد حارب كلا الجانبين بتصميم عجيب، وكان يوجد استياء متراكم على الجانب الانجليزى لـ ٣٠ سنة مضت من التهديد لوطنهم ولعقيدتهم من عدو حقيقى. وفى النهاية، أمسك به وقيد. وأما على الجانب الاسبانى فكان هناك احساس بأنه اذا كانت قضيتهم لم تكن قد جلبت أو حققت لهم المساعدة التى بحثوا عنها من عليين، فان شرف وولاء قشتالة لاينبغى له أن يقاسى فى أيديهم.

وفى النهاية، انتهى كل شىء. وانسحب الانجليز بأسف لأن سيدتهم البخيلة قد حدث من امكانات حربهم التى خوضت من أجلها. وبذلك ألزمتهم أن يتركوا عماهم، بعد أن انجزوا نصفه. وعندما توقف هدير المدافع، ارتفعت الريح، وتدرج الدخان، وعند غروب الشمس استطاعوا أن يروا نتائج الحرب.

وكانت سفينة شراعية ضخمة من سفن أسطول ريكالد تفرق بكل من عليها من

رجال. وانحرف كل من السفينة سان فيليب San Philip والسفينة سان ماتيو San Mateo الى الساحل الهولندي دون صواري، حيث تحطمتها هناك بعد ذلك. وأما السفن التي تركت بأشرعتها، فكانت تتقدم ببطء خلف زميلاتها التي لم تشتبك في المعركة، وكانت صواريخها محطمة حيث انها استطاعت بالكاد حمل أشرعتها. وأمكن حصر الضحايا بالتخمين، وبدأ أن العدو كان مخيفا، وكانت الرياح الشمالية الغربية تهب وكانت تضغط على السفن المعطوبة وتدفعها نحو المياه الضحلة، التي يبدو منها انه من المستحيل على السفن في حالتها المشلولة هذه أن تكون قادرة على العمل. وتركها دريك مدة الليل وهي على هذه الحالة لا ليستريح، ولكن ليجمع من أى مكان يستطيعه مزيدا من الطعام والبارود. فقد شلت الأفعى، ولكنها لم تقتل، المقصود بذلك الارمادا أى الأسطول الأسباني فأكثر من نصف الأسطول الكبير (الأسباني) كان بعيدا، أى بعيدا عن مرمى النيران، ولعله يكون في مقدور الاسبانين أن يحاربوا معركة ثانية اذا هم استردوا شجاعتهم. واذا توقفت الرياح، فانه يكون في الامكان تتبعهم ومطاردتهم (من جانب الانجليز) نحو الشاطئ أو نحو البحر الشمالى، أو الى أى مكان، حتى لايترك لهم فرصة الانضمام الى بارما مرة ثانية. وأن يستغل (الانجليز) الوقت قبل أن يفيقوا (أى الاسبان) من ضربات (الاسطول الانجليزى). وكان ذلك ضروريا فى تلك اللحظة. وكان دريك واتباعه التعساء جوعانين، وفى ملابس رثة، ولكن لاهو ولاهم لديهم وقت للتفكير فى أنفسهم، فكان هناك فكرة واحدة أجمع عليها الجميع، هو أن يعادوا مطاردة العدو الهارب، وكان هوانر على نفس تصميم دريك، وقد انجز بسرعة كل ما هو ممكن عمله. وكان على سيمور وأسطول التيمس أن يمكثا فى المضائق ليراقبا بارما. فمن كل مصدر ممكن جمع الطعام والبارود للبعثة - وباختصار وبكل الوسائل الممكنة - كما قال دريك " صممنا أن نتجاسر وأن نواصل كما لو كنا لا نحتاج الى شىء" وقبل الفجر، عاود الأدميرال هو المطاردة.

ولم تكن الحاجة ماسة، الى الجسارة، فقد أنجز مايستطيع الانسان عمله، وأما الباقي فقد ترك للعوامل الطبيعية، ولم يستطيع البحار الاسباني أبدا، أن يواجه مدافع الانجليز مرة أخرى. وهم تحت قيادة ميدينا سيدونا، فكان على رأسهم غبى (أى أنهم كانوا تحت قيادة قائد غبى) وقد هجرتهم القوى الخفية التي لقنوا بأن يثقوا فيها،

وتبددت ثقتهم وتحطمت روحهم المعنوية، وانبثق الصباح بكأبة على الدوق، ورفاقه فى اليوم التالى للمعركة. وقد تجمعت الارمادا فى الليل. وفى تلك الأثناء، قويت الرياح الشمالية الغربية، وتحولت الى عاصفة هوجاء، وكانت السفن (الاسبانية) تجاهد بشدة وانحرفت احرافا قاتلا نحو المياه الضحلة.

وكان ذلك فى يوم عيد القديس لورانس St.Lawrence، الذى كان نصيرا لفيليب، والذى استعان فيليب به فى الحصول على كنوز سكوريال The Escorial، ولكن القديس لورانس هذا لم يكن مهتما (بمثل هذه الأمور) مثل القديس دومنيك. وكان عمق الماء تحت السفينة سان مارتن ست قامات، وأما السفن الأخرى التى كانت أكثر قربا من الارض، فكان العمق يشير الى خمسة قامات، ورأوا أمامهم مباشرة الرغبة البنية للأمواج التى كانت تتعرج فوق الرمال، وتحت شعاع الجو. وكانت السفن الانجليزية - التى تطاردتهم كشبح الموت وكالكلاب المسعورة - على مسافة ميل من بليموث. ولقد كان البحارة والجنود الاسبان بدون طعام منذ المساء، عندما رسوا فى كاليه. وفى طوال يوم الأحد كانوا فى عمل، ولم يسمح لهم بالراحة لتناول الطعام وفى مساء نفس اليوم فزعوا من نومهم بواسطة الحراقات. وفى يوم الاثنين كانوا يحاربون، وفى مساء نفس اليوم القوا بموتاهم الى البحر. والآن بدأ أنهم فى طريقهم مباشرة الى التدمير المحتوم. وعندما خمدت الرياح، كان لايزال يوجد أمامهم فرصة من الوقت ليرتدوا ملابسهم ويهربوا الى الشواطىء، ولكن عندئذ كان عليهم مواجهة العدو الذى بدا محجما عن مهاجمتهم. وبينما كانوا هم فى طريقهم الحالى، فان الرياح والأمواج سوف تقضى عليهم (أى على الاسبان) دون تدخل الرجال. وقد حضر كل من ريكالد، ودى ليفا وأوكويندو، وضباط آخرين الى السفينة سان مارتن للمشاورة. وأتى كويندو أخيرا. وقال الدوق الى كويندو: وماذا سنفعل ؟ فأجابه كويندو بجسارة نطلب من سعادتك أن تأمروا بتعمير المدافع مرة ثانية. ولكن كان هذا مستحيلا. وقال دى ليفا نفسه أن الرجال سوف لا يحاربون الانجليز مرة ثانية. ونصح فلوريز بالاستسلام، ولكن تردد الدوق، ويقال أن قاريا كان قد أنزل بالفعل ليتجه الى هواردر بهدف عقد اتفاق ولكن أقسم كويندو أنه إذا غادر القارب السفينة سان مارتن لهذه المهمة فسوف يلقى فلوريز Florez فى البحر. وكان من الممكن أن تكون نصيحة كويندو أكثر أمنا لو

استطاع النوق الأخذ بها ، ولا يزال يوجد سبعون سفينة من سفن الارمادا غير مصابة بأضرار كبيرة. وكان الانجليز يتأهبون كما قال دريك مع أنهم أنفسهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم باشتباك آخر خطير. وقد جعل المزاج الكلى للأسطول (الاسبانى) الطريقة الشجاعة مستحيلة. ولكن كان هناك كويندو واحد. وتبدد النظام، وكان الجنود فى يأس، واستولوا على القيادة من البحارة. وفقد الضباط والرجال الأمل على حد سواء... ولم يكن هناك أية امكانية انسانية للخلاص فركعوا (الاسبان) على أسطح السفن وتضرعوا الى الله لينزل عليهم الرحمة وقد مر أسبوعان منذ ركوعهم على نفس تلك الاسطح عند رؤيتهم للشاطئ الانجليزى لأول مرة يشكرون الله، لأنه أرسلهم لمهمة جلية مثل هذه المهمة فأسبوعان، وأى أسبوعان فقد كان الاسبان محطمين، وقد مزقتهم طلقات المدافع فمات منهم أوكان على وشك الموت عشرة آلاف - هذه الخسارة التى قدرت فى المعركة - والآن يستطيع الاحياء أن يتوسلوا الى الله كى ينقذهم من الموت البشع، بواسطة العوامل الجوية. فغالبا، تتغير الأعاصير والرياح فجأة وتتجه الى الجنوب وتتغير من الشمال الغربى الى الغرب، ومن الغرب الى الجنوب وفى تلك اللحظة، وكما لو كان ردا على توسلاتهم، فان تغيرا من هذه التغيرات الفجائية للرياح أنقذتهم من خطر داهم وارتدت العاصفة الى الجنوب والجنوب الغربى S.S.W، وتوقفت عن دفعهم الى المياه الضحلة. واستطاعوا فرد أشرة سفنهم، والانطلاق بها الى عرض البحر، واتخذوا طريقهم الى وسط بحر الشمال، وهكذا، ذهبوا الى الشمال وأكفئ درسك أن يتركهم دون أن يتعدى عليهم. واذا ما اتجهوا الى أقصى الشمال، فانهم يستطيعون الذهاب الى حيث يشاؤون، وفى ذلك الوقت لم يرغب هوادر ولادريك فى حرب غير ضرورية، وبخاصة اذا كان لديهم نقص فى ذخيرتهم أما اذا عادت الارمادا، فمن الواجب عليهما أن يطبقا عليها. واذا استمرت فى طريقها الحالى فعليهما أن يتبعوها حتى يتأكدا أنها لن تتصل فى هذا الصيف مع أمير بارما. وفكر دريك أنه من الممكن أن يشقا طريقهما الى البلطيق أو الى احدى موانئ النرويج، وقد لا يستقبلان بالحفاوة أو بكرم ضيافة سواء أكان ذلك من جانب السويد Swedes، أم من جانب الدنمركيين Danes. ولكن كان عليهما أن يحاولا، وهناك خطر محتمل، كان عليهما أن يعدا العدة له. فاذا اتجها الى فورث Forth، فأنه فى هذه الحالة لا يزال من الممكن للاسبان أن

ينتقموا لهزيمتهم، وأن يهزوا عرش اليزابيث. وكان من الخطط التي أعدت لغزو إنجلترا هو الانزال في اسكتلندا، وكانت هذه أفضل الخطط. وقد فضل الجيز Guise دائما اسكتلندا، عندما قصد أن يكون هو القائد. وقد كان سانتاكروز على تفاهم وثيق مع الجيز في هذا الموضوع، ولابد وأن كثيرا من الضباط في الارمادا، كانوا على علم بآراء سانتاكروز. وكان لايزال النبلاء الاسكتلنديون الكاثوليك في غضب عارم، بسبب اعدام ماري ستيوارت. ولو كانت الارمادا قد رست في مرسى ليث Leith، وعلى متنها ٢٠ ألف رجل، ونصف مليون من الدوكات، وعلى رأسها سانتا كروز، فلربما أن تشتعل المنطقة الممتدة من أرض جون جروت John Groat، الى أرض بوردر Border، لهيبا في تلك اللحظة.

ولكن لم يطرأ على الدوق ميدينا سيدونا مثل هذا الهدف، فمن المحتمل أنه لم يعرف أى شيء بالمرة عن اسكتلندا، أو عن أحزابها. وكان من بين أوجه النقص الكثيرة التي حاول أن يفتح بها فيليب على عدم ملائمة للقيادة، أنه قال بأن سانت كروز كان لديه معارف من بين النبلاء الانجليز والاسكتلنديين، بينما أنا دوق "ميدينا سيدونا" لأعرف أحدا منهم.

وأن معلوماته القليلة لاتتعدى حدائق برتقاله أو اصطفايه لسمك التونة. وكانت ميزته الرئيسية أنه كان على دراية بعدم كفايته للعمل. وقد نبذ العمل الذي ضلته فيه راهبة غير متزنة. وكان شغفه الوحيد هو أن يعود الى الوطن الذي وضع تحت مسئولياته الاسطول الكبير دون مزيد من الخسارة. وكان هناك المحيط الشاسع فيما وراء اسكتلندا والجزر الاسكتلندية، وفي المحيط الشاسع هذا لم يكن يوجد هناك شواطئ رملية، ولامدافع انجليزية، وهكذا، واصل الدوق الإبحار بكل الاشرعة المفرودة يدفعه الريح، ولكن راقبه كل من دريك وهوارد حتى أنهما رأوه قد مر بفورث Forth، وعندئذ عرفا انه لم يكن هناك خوف وفي هذا الوقت، كان عليهما أن يهتما باحتياجات رفاقهما التمساء الذين تحملوا بصبر، وحاربوا بروعة فائقة. وفي الثالث عشر من شهر أغسطس رأيا الارمادا لأخر مرة. فاستدارا وشقا طريقهما الى تيمس.

ولكن ما زال للقصة بقية، لتروى المصير للمغامرة عظيمة من أجل إنجلترا. فقد كانت هذه المغامرة الهدف الذي تعلق به وبحرارة، آمال العالم الكاثوليكي لمدة طويلة.

ولقد كانت هذه الحملة حرباً صليبية دينية، حيث كانوا يتفاخرون بها. وقد صاحب الاستعدادات لها احتفالات مهيبية وغريبة.

وفى أعين المخلصين كانت هذه الحرب تنفيذ لعدالة السماء على أميرة شريرة وشعب شرير. وكانت هذه الحملة فى أعين الملايين من الناس - الذين كان اقتناعهم أقل حسماً - تمثل طلباً لحكم الله كى يحكم بين حركة الإصلاح الدينى وبين البابا. ومن المناسب القول كذلك، بأن هناك أسباباً أخرى بجانب عمل الانسان، لابد وأنهما اتحدا فى تدمير هذه الحملة.

وكان الاسبان بحارة ذى خبرة، فرحلة حول أوركنيز Orkneys، وحول ايرلندا، ثم الى أسبانيا، من المحتمل أن تكون شاقة، واكن يبدو أنه فى هذا الفصل من السنة، لم يكن هناك مخاطر ولاصعوبات. وعلى أية حال، وعند الاستقصاء وجد أن حالة الاسطول (الاسبانى) كانت مفزعة للغاية، فالمؤن التى شحنت بها السفن فى لشبونة كامنات لاتصلح كغذاء، وتقريباً أُلقيت جميعها فى النهر، وأما المؤن الطازجة، التى تم الحصول عليها من كورونا Corunna، فقد استهلكت تماماً. وبهذه النسبة الحالية وجد أنه لن يتبقى شىء فى ظرف ١٤ يوم وكان الأسوأ من ذلك ان براميل المياه التى أُعيد ملؤها هناك (فى كورونا) قد عبثت باهمال، واخترقتها الطلقات أثناء الحرب، فأصبحت فارغة، كما لم يوضع فى الاعتبار الملابس أو أى وسائل أخرى للراحة بالنسبة للمناطق الباردة التى كانوا يعبرونها، فالقى بالبالغال والخيول من على ظهور السفن الى البحر وقد أبلغت القوارب الاسكتلندية الصغيرة التى تبعت الاسطول المنسحب، من أنها ابحرت لعدة أميال بين جثث طافية.

وكان هناك نقص شديد فى المؤن، فكان كل رجل يحصل على نصف رطل من البسكويت يومياً، وكوب من الماء وآخر من النبيذ. وهكذا ترك الجرحى فى حالة من المرض والجوع تحت رعاية ضابط طبيب، الذى كان ينتقل من سفينة لأخرى، وقد خصصت الصلوات لحمايتهم من طقس شمال الأطلنطى. وقد لام الدوق الجميع عدا نفسه، وأعدم أحد القباطنة التعساء لاهماله فى الأوامر، وكان من الممكن أن يشنق قبطان آخر لوكان لديه الجرأة، ولكن قد فقد سلطته، ومرت الحملة على الاوركنيز Orkneys، كتلة واحدة وبعد ذلك، قيل أنها تفرقت فى الضباب، ولكن كان على كل قائد

أن ينتبه لنفسه ولرجالاه. ففي كل سفينة كان من الواجب أن يتم الحصول على الماء من أى مكان، والاسوف يموتون، فالسفينة سان مارتين، ومعها ستون سفينة مرافقة، اتجهت جميعها الى شمال خط عرض ٦٠°. وكان المرشد قد وعدهم بأنه سيأخذهم من تلك النقطة الى الساحل. ولاتزال الريح تهب الى الغرب، فكل يوم كانت تهب أشد من اليوم السابق. وعندما لقحت الرياح الصواري المعطوية تطايرت فى الهواء، وانفصلت حبال أشرعتها وسارياتها. وفى ظل أكبر صعوبة تمكنوا من قطع مسافة كافية. وتدرجوا الى حد ما، حتى أصبحوا بعيدا عن رأى الشاطئ، وهم يدفعون سفنهم بعوارضهم الخشبية فى البحار الشاسعة، وتوجهت سفينة أو سفينتين ممن تبقوا الى وسط الجزر الغربية وهناك، أصبحوا حطاما، واتخذ أطقمهما أو جزء منهما طريقهما عبر اسكتلندا الى الفلاندرز. وذهب الآخرون شمالا الى شتلاند Shitland، أو الى جزر الفارو Faro، وإفري ما بين ٣٠، ٤٠ بأن يبقوا على السواحل الايرلندية. وكان يوجد رجال ايرلنديون فى الاسطول، الذين لا بد وأنهم أخبروهم (أى أخبروا الاسبان) بأنهم سوف يجدون الماء هناك، الذى بسببه كانوا على وشك الهلاك، كما أنهم سيجدون مرافق آمنة، وشعبا كاثوليكيا صديقا. فقتوجدوا أما موانئ لم يستطيعوا الوصول اليها، أو ربما لا كسحتها مياه البحر أو صخورا. وهناك دمروا جميعا فى أماكن مختلفة بين دونيجال Donegal، والبلاسكت Blasket، وكان حوالى ثمانية آلاف من التعساء نصف الفرقى يناضلون للوصول الى الشاطئ أحياء، وكان الكثير منهم من النبلاء الاسبان يرتدون ملابس ثمينة وجاكيتات قطيفة، وسلاسل وخواتم ذهبية. وكانت مرتبات الجنود والبحارة قد صرفت لهم قبل بدء مهمتهم. فكان كل منهم يملك حقيبة من النوكات، مربوطة فى وسطه عندما نزل الى البر عبر الأمواج. وقد أغرت هذه الغنائم الايرلنديين البربريين على الساحل، فضربوا عددا من الاسبانين غير معروف على رؤسهم بالبلط، أو سلبوا ملابس الآخرين وتركوهم يموتون من البرد. وقد حصر ضابط انجليزى ١١٠٠ من الجثث على شريط رملي طويل فى سليجو Sligo، وسمع بأنه كان يوجد هناك الكثير على مسافة أميال قليلة.

وأسرع رؤساء أولستر Ulster، والأورورك Orourk، والأودونيل O'donnell، فهؤلاء هم الأفضل تعليما - ليوقفوا عملية القتل الجماعى، كى يبعثوا ايرلندا عن خزي

قتل الأصدقاء الكاثوليك الذين لاحول لهم ولاقوة. وقد وجد الكثير من الاسبان الحماية فى القلاع الايرلندية، ولم يعرف بالضبط كم كانوا، ولكن على الرغم من ذلك فقد بدأ، كما لو كان القدر المهلك قد طارد جميع من أبحروا على هذه الحملة المشنومة. فقد شق أولونزوى ليفا Alonzo de Leyva، ومعه نصف مائة من النبلاء الاسبان الشباب من الرتب العالية - الذين كانوا تحت مسئوليته الخاصة - طريقهم فى سفينة شراعية كبيرة الى كيلبيج Killbeg. وقد عجز أولونزوى ليفا نفسه على الرسو. وأستقبله رئيس الالودونيل O'donnell، واهتم به وبرفاقه. وبعد البقاء فى قلعة رئيس الالودونيل مدة شهر استرد صحته (أولونزوى ليفا). وفى تلك الأثناء بدأ الطقس فى التحسن، وأصلحت السفينة، وغامر أولونزوى ليفا فى محاولة ليشق طريقه بها إلى أسكتلندا وقد مر بأسوأ الأخطار، حيث كانت اسكتلندا على مرمى بصره تقريبا، ولكن القدر له ضحاياه، فارتطمت سفينته بصخرة أمام دونلوس. وتحطمت الى قطع، وعندئذ، اكتسحت المياه دون الونزوى ليفا، وشباب النبلاء الذين كانوا قد أبحروا معه على الشاطئ. وهم موتى ليدفنوا فى قبر غير مميز فى انتريم.

وكان الاسبانيون الذين يستحقون الشفقة، هم أولئك الذين سقطوا فى أيدي الحاميات الانجليزية فى جولوى Jalway، وميو Mayo. فقد شقت السفن الشراعية الضخمة طريقها الى خليج جولوى، وكانت واحدة من هذه السفن (الاسبانية) قد وصلت الى جولوى نفسها، وكان البحارة (الاسبان). على وسك الموت بسبب المجاعة، فكانوا يستبدلون برميل من النبيذ بأخر من الماء. وكان سكان جولوى انسانيين. فحاولوا أن يطعموهم ويهتمون بهم، ولكن مع ذلك فقد ساعات حالات معظم هؤلاء، بحيث كان من الصعب افاقتهم، وماتوا من الاجهاد وكان من الممكن أن يسترد البعض صحته، ولكن اذا استردوا صحتهم فانهم سيكونون خطرا على الدولة (الانجليزية). وكان الانجليز فى غرب ايرلندا قلة قليلة فى وسط سكان غاضبين شبه مقهورين. فكان الرماد الذى تخلف عن ثروة دسموند Desmond، مازال ينبعث منه الدخان، وما زالت ذكرى دكتور ساندز Sanders، ولجنته الذى كان يرأسها ممثل البابا ماثلة فى الأذهان أيضا، وكان من الممكن أن تكون المعلومات عن هزيمة الارمادا فى القتال غامضة بالنسبة للانجليز فى ايرلندا. وكل ماكان يمكن أن يعرفه الموظفون الانجليز بدقة لابد وأن ذلك كان عن بعثة

ضخمة أرسلت إلى إنجلترا بواسطة فيليب كى يستعيد سلطة البابا. وكان الاسبانيون الذين وجدهم الانجليز يرسون وسطهم على البر بالآلاف، كان معهم (أى الاسبان) أسلحتهم ونقودهم.

وفى هذه اللحظة انتابت الكآبة (انجلترا ايرلندا) ومع ذلك فانهم كانوا متاكدين من أنه اذا سمح لهم (أى الاسبان) الوقت باستعادة قوتهم مرة أخرى، فانه فى هذه الحالة يكون فى امكانهم اشغال كانتوت Cannaught، ولم يكن لدى انجليز ايرلندا حصون كى يعتقلوا فيها هذا الكم الكبير العدد من المساجين (الاسبان)، ولم يكن لديهم أيضا رجال يزيديون عن الحاجة لاصطحابهم الى دبلن Dublin، وكان هؤلاء (انجليز ايرلندا) مسئولين أمام حكومة الملكة عن أمن الوطن. فلم يأت الاسبان فى مهمة طلب الرحمة والغفون منها (أى من الملكة). لذلك أصدرت الأوامر الصارمة بقتلهم جميعا أينما يكون فى الامكان الامساك بهم أو ايجادهم، فأكثر من الفين شخص، أما أطلقت عليهم النيران، أو شنقوا، أو ضربوا بالسيف، فبالفضاعة، نعم (أنها لفضاعة)...فالحرب نفسها فظيعة ولها ضرورياتها الخاصة.

وأخيرا نجحت الستون سفينة التى تبعت السفينة سان مارتن فى البوران من حول رأس كلير Clear، ولكن كان أفرادها فى حالة ليست بأقل تعاسة من رفاقهم الذين هلكوا فى ايرلندا. فمات نصف هؤلاء الزملاء وكان موتهم بسبب الجروح الشديدة التى اهلكت أو بسبب الجوع والعطش أو بسبب حمى المجاعة. وكان الأحياء منهم عبارة عن هياكل متحركة، وكانوا أشباحا أكثر منهم أحياء، ولم يكن لديهم القوة على جذب حبل أو ادارة دفة. ولم يكن يوجد ماء كاف فى بعض السفن، بحيث يكفى لمدة ١٤ يوم. وكان الطقس فى خطوط العرض السفلى قد فقد جزءا من عنفه أو من حرارته، ولولا ذلك ما وصل واحد منهم الى أسبانيا مرة ثانية، وبينما كانت الحالة هكذا، نزلوا خارج سيساى Scilly واتجهوا الى خليج بسكى The Bay of Biscay. وفى الاسبوع الثانى من سبتمبر تساقطوا الواحد بعد الآخر. وتمكن ريكالد، الذى كان أكثر نجاحا من الباقين فى التوجه الى كورونا، ولم يكن الدوق يعرف فى أى مكان هو، فقد وجد نفسه على مرأى من كورونا أيضا. وكان بحارة السفينة سان مارتن منهكين، ولم يستطيعوا تشغيلها. عندئذ، أرسلوا إشارة من أجل الاستغاثة، ولكن مع ذلك فلم تأت أية مساعدة.

«اندفعوا بعيدا مع الريح الى بلباو. وكان اوكيننو لايزال بعيدا عن سانتاندر Santander. ووصلت بقية الستين سفينة في الايام التالية الى أحد موانئ خليج بسكى أو الى موانئ أخرى. وكان على متن هذه السفن تسعة آلاف من ٣٠ ألف رجل كانوا قد تركوا هذه الشواطئ قبل ذلك بشهرين، وهم في قمة الأمل والحماس والانفعال. هذا اذا اعتبرنا هم أحياء ومن المؤثر قراءة خطاب من مدينة بلباو ويعبر عن فرحتهم بالشمس الاسبانية الدافئة وعن منظر العنب المتسلق على الحوائط البيضاء، وعن طعم خبز الوطن الطازج والماء مرة ثانية. ولكن هذه الأشياء أتت متأخرة لانقاذهم، لأن هؤلاء الذين استعادت أجسامهم القوة ماتوا من الحزن العميق ومن الأحلام الفاشلة. فمات رفاق سانتا كروز القداما، قبل أن يروا تدمير الاسطول الاسباني. ومات ريكالد بعد يومين من نزوله في بلباو. وكانت سانتا ندر موطن أوكيننو. وكان له زوجة وأطفال هناك. ولكنه رفض أن يراهم، فأدار وجهه الى الحائط ومات أيضا. وكان البحارة بصفة عامة والجنود في حالة من الضعف لدرجة أنهم لم يستطيعوا معها مساعدة أنفسهم، وكان لابد وأن يتركوا على ظهور السفن المسممة حتى تستعد المستشفيات لاستقبالهم. وقامت سلطات الكنيسة والدولة بعمل مايستطيع الرجال انجازه أو عمله، ولكن كانت الحالة تفوق أى مساعدة. وقبل انقضاء شهر سبتمبر لم يكن الجميع، بل مئات قليلة في حاجة الى المزيد من العناية.

ويجب القول من أجل فيليب، بأنه لم يأل جهدا في التخفيف من البؤس والشقاء. فقد حصلت الأرامل والأيتام على معاش تقاعد من الدولة وأستقبلت الضربة التي وقعت بخضوع جلال لأغراض السماء المبهمة. وفي هذه الأثناء هرب دييجو فلوريز Diego Florez، الى بورجورس Burgos بعد أن صدر حكما بعقابه. ولم يعاقب شخصا آخر على الأخطاء التي وقعت أساسا، لأن الملك فيليب نفسه، افترض وكما تخيل بأنه أداة الله. واعتقد الدوق نفسه، أنه قد أخطى في حقه أكثر مما سببه هو من أخطاء ومع ذلك فلم يمت مثل ريكالد وأوكيننو، ولم يجد مناسبة لموته. وتخلّى عن قيادته وتقاعد في قصره في سان لوكان San Lucan. وكان فيليب بعيدا عن تحمل مسئولية فقدان الارمادا الذي وقع على عاتق قائدها، والذي جعله يستمر في منصبه حاكم لقادش، حيث وجد أسكس Essex الدوق بعد ذلك بسبع سنوات، فهرب الدوق منه، كما هرب من

قبل من دريك.

ولم يقم الاسبان بمحاولة لاختفاء حجم هزيمتهم. كما لم يكن لديهم الرغبة بالاقرار بأن القوى العليا كانت ضدهم، انما أرجعوا هزيمتهم بكل صراحة الى القوة الحربية الانجليزية المتفوقة.

وقال الامير بارما أن الانجليز أنفسهم كانوا متواضعين في انتصارهم. فلم يقم الاسبان وزنا كبيرا لبسالة الانجليز، وبالنسبة الى الاسبان فان هزيمة وقدمير الاسطول الاسباني يرجعان الى حكم الله في قضية وطنهم. وقد استعان الطرفان بالسماء، ولكن السماء أعطت أوقالت كلمتها. وجاء نور المد، وانحسرت من هذه اللحظة موجة إعادة فتح الاراضي المنخفضة. فلم يستولي بارما على مدن أكثر من الهولنديين. وقبل الاشراف و النبلاء الكاثوليك في انجلترا - الذين كانوا بمعزل عن الكنيسة القائمة، والذين كانوا ينتظرون ثورة دينية - حكم الله. واكتشفوا أنهم يستطيعون في ظل العقيدة الانجليكانية الاحتفاظ بعقيدة آبائهم، وفي الوقت نفسه سيظلون على اتصال برفاقهم البروتستانت ويستخدمون نفس طقوسهم الدينية ويصلون في نفس أماكن تعبدهم (كنائسهم). للوهلة الأولى، ومنذ تحطيم والد اليزابيث لقيود روما - أصبح الانجليز أمة متحدة مرتبطة بتعصب ديني مخلص للملكة، وكانوا مقتنعين منذ ذلك الحين بأنه ينبغي ألا يفرض قسيس ايطالي العصور أو أي رسوم في ممتلكات الملكة.

وانتهى كل ذلك، ولكن انتقال صولجان البحار من أسبانيا الى انجلترا، لا بد وأن يترك ذلك الى محاضرات أخرى أو الى محاضرين آخرين، الذين تكون أمامهم فرصة أكثر منى وكان موضوع بحثي هو المغامرون البروتستانت التعساء الذين حاربوا أسابيع خطيرة في القتال الانجليز، وانقذوا وطنهم وحرية بلادهم.

المسلسل	الموضوع	رقم الصفحة
-	مقدمة المترجم	من - إلى
١	البحر مهد حركة الإصلاح الديني	أ - ج
٢	جون هوكنز وتجارة الرقيق	٢٠ - ١
٣	السير جون هوكنز وفيليب الثاني	٣٩ - ٢١
٤	رحلة دريك حول العالم	٦٠ - ٤٠
٥	أطراف النزاع في الدولة	٨٣ - ٦١
٦	البعثة العظيمة إلى جزر الهند الغربية	١٠٤ - ٨٤
٧	الهجوم على قادش	١٢٣ - ١٠٥
٨	إبحار الأرمادا	١٤٠ - ١٢٤
٩	هزيمة الأرمادا	١٦٠ - ١٤١
١٠	الفهرس	١٨١ - ١٦١
		١٨٢

رقم الإيداع ١٩٩١/٣٠٨٤
الترقيم الدولي 177 - 212 - 319

مطبعة **الانتصار** **غلاف**
EL-ENTISAR PRESS
١ شارع الوادي كسوة الشركة ت ٤١٦٥٤٧ ألكسندرية